استنبول

وحضارة الخلافة الإسلامية

تأليف الأستاذ برنارد لويس

تعريب مع تعليقات نقدية وإيضاحية مفيدة

الدكتور سيد رضوان علي

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

استنبول

بسم الله الرحمن الرحيم

نشر هذا الكتاب باسم ISTANBUL AND THE CIVILISATION OF THE OTTOMAN EMPIRE من قبل مطبعة جامعة اوكلاهاما بالولايات المتحدة الأمريكية. ويشكر المترجم إدارة هذه المطبعة على تفضلها بمنح الإذن لنشر هذه الترجمة العربية للكتاب .

الغلاف والاخراج والاشراف الفني
للفنان عبد السلام الشريف

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م

جده الاداره ـ العماديه عماره الجوهره الدور الثاني شقه رقم ٧ و١٢
تلفون ٦٤٣٢٨٢١/٦٤٢٤٠٤٣ ص ب ٢٠٤٣ برقيا نشر دار
الرياض السليمانيه، شارع الأربعين تلفون ٤٦٤٧٥١٥ ص ب ٩٤٧٣
الدمام الشارع العام، عماره المنصور والعدل ص ب ٨٩٩ تلفون
٢٣٥١٥ برقيا نشر دار الدمام

الحروف الجديدة المستعملة في هذه الترجمة

١ ـ پ (الباء الفارسية ذات ثلاث نقاط) وتقابل صوتياً حرف P في الانكليزية .

٢ ـ چ (الجيم الفارسية ذات ثلاث نقاط) وتقابل صوتيا حرف CH في الانكليزية .

٣ ـ گ (الكاف الفارسية ذات شرطتين) وتقابل صوتياً حرف G في الانكليزية .

٤ ـ ڤ تقابل صوتيا حرف V الإنكليزية .

واستعملت هذه الحروف ، وهي موجودة في عدد من اللغات الإسلامية ، لضبط الأعلام التركية والاجنبية ، ويلاحظ استخدامها في بعض المؤلفات أو التراجم العربية الحديثة .

بين يديّ الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الاولى للترجمة العربية لهذا الكتاب قبل ثمانية أعوام ضمن مطبوعات جامعة بنغازي بليبيا، واصبح من المراجع الرئيسية لطلبة الليسانس بقسم التاريخ .

ولكن من المؤسف أن هذه الترجمة لم تعرف في المشرق العربي، لأنه لم يتم توزيعه في السوق، ولحظت ذلك عند قدومي الى الرياض، فشعرت بمسيس الحاجة الى طبعها من جديد، وخاصة قد مضى زمن غير قصير على طبعها الاول .

وتمتاز هذه الطبعة الثانية للكتاب بثلاثة وجوه :

١ ـ إثبات تعليقاتي التوضيحية والنقدية في مواضعها من صفحات الكتاب، وكنت قد جعلت هذه التعليقات في آخر الكتاب في الطبعة الاولى ليكون عملي منفصلا عن عمل المؤلف ،ولكن نزولا عند رغبة بعض الاصدقاء الافاضل وتسهيلا للمراجعة عدلت ذلك على النحو التقليدي .

٢ ـ وضعت فهارس مفصلة لاسماء الاشخاص والطوائف، والقبائل، وأسماء الأماكن والبقاع والكتب الواردة أسماؤ ها في الكتاب والتعليقات .

٣ ـ تلافي الاخطاء المطبعية وغيرها التي ظهرت في الطبعة السابقة .

وأود أن أشير الى أن جميع التعليقات للمترجم، كما انتهز الفرصة وأسجّل هنا انها قد أغضبت المؤلف المستشرق الى حد الخروج من اللياقة الاجتماعية. وتفصيل ذلك انه عند زيارتي للولايات المتحدة الامريكية في صيف عام ١٩٧٨ دعاني أحد اصدقائي الأمريكيين في جامعة برنستن (Princeton) الى حفلة عشاء في احد المطاعم بالمدينة، وكان من بين المدعويين بعض اساتذة الجامعة، ومنهم مؤلف الكتاب الاستاذ برنارد لويس، فلم يكلمني على الإطلاق بخلاف الآخرين، وكانت هذه أول مرة اجتمع به. وعندما سألته : هل قرأ ترجمة كتابه هذا أجاب بكلمة نعم فقط، وذلك ببرودة وجفاف. . وكل ذلك لأنني رددت على هجومه على الإسلام والمسلمين في الكتاب. ويلحظ القارىء ذلك في فصل «العلم والدين» وغيره من صفحات الكتاب.

وعجيب ان يكون لهذا المستشرق حق في طعن الإسلام والمسلمين ، ولا يكون لمسلم حق في الرد على هجماته !

كما أرجو أن يكون هذا الكتاب رداً مفحما على أولئك الذين ينكرون للأتراك العثمانيين أي دور في مجال الحضارة الاسلامية واثرائها أمثال الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه: مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام (فصل. . فتح القسطنطينية) الذي تابع المستشرق الالماني الحقود موردتمان في هذا الجحود.

وفي الختام أتقدم بخالص الشكر لصديقي العزيز الاستاذ محمد صلاح الدين صاحب الدار السعودية للنشر والتوزيع على تفضله مشكوراً بطبع هذا الكتاب، كما اشكر تلميذي النجيب في مرحلة الماجستر بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الاخ سعد القصيبي في عونه لي بوضع فهارس الكتاب. ولله الحمد اولا واخيرا، وهو الموفق والهادي الى كل رشاد.

سيد رضوان علي
الرياض
١٧ ربيع الأول ١٤٠٢ هـ
١٢ يناير ١٩٨٢ م

كلمة التعريف

إن مؤلف هذا الكتاب الأستاذ برنارد لويس غني عن التعريف لشهرته . واكتفي بالقول انه استاذ التاريخ الاسلامي والشرق الأدنى في جامعة لندن ، وله مؤلفات وأبحاث في مختلف نواحي التاريخ الإسلامي ، وبعضها مترجم إلى اللغة العربية . وفي السنوات الأخيرة اتجه المؤلف إلى البحث والكتابة في الدولة العثمانية وتركيا الحديثة .

وليس هذا الكتاب الصغير ، في رأيي، أحسن كتبه في الموضوع ، بل خيرة مؤلفاته «ظهور تركيا الحديثة» (The Emergence of Modern Turkey) الذي نشر قبل هذا الكتاب بسنة ، ثم توالت طبعاته .

ومهما كان الأمر ، فان الكتاب الذي أقدم ترجمته للقراء له قيمة خاصة وميزة فريدة ، فليس بين أيدينا كتاب جامع سهل التناول في الموضوع الذي تعرض له المؤلف ، اي الحضارة العثمانية ، وهذا الكتاب يسد ذلك الفراغ . وهو لصغر حجمه وعرضه البياني كبير الفائدة لعامة القراء وطلاب الجامعة .

وبالإضافة الى ذلك يحوي هذا الكتاب نصوصاً هامة من المصادر الأوربية والتركية من القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين تكشف عن بعض جوانب حضارة العثمانيين في عهدهم الزاهر . وقيمة الكتاب الحقيقية ، في نظري ، هي جمع هذه النصوص في اصولها او تراجمها الانكليزية القديمة ، أو في ترجمة المؤلف لبعضها ، وهي نصوص طويلة ، كما سيلاحظ القارىء ، في الفصول: الرابع والخامس والسادس .

واذا كان للمؤلف فضل في بحث هذه النصوص وعرضها في كتابه كما هي ، فأنا بدوري لقيت عناءاً كبيراً في ترجمة بعضها إلى العربية لكونها مكتوبة في الإملاء الانكليزية القديمة المهملة التي تختلف عن الإملاء الحديثة كثيراً .

والاعتراض الوحيد الذي يوجه إلى المؤلف انه ترك كثيرا من الكلمات الغامضة والمصطلحات التركية الغريبة دون شرح وتفسير ، وبذلك أصبح من الصعب لعامة القراء الإفادة منها ، كما انه انتهز الفرصة فشرح بعض مبادىء الإسلام السياسية والدينية وعباداته على هواه ، بل تهجم على العبادات الإسلامية والعلماء المسلمين دون حق ومبرر ، ولذا رأيت أن أضيف الى الكتاب تعليقات من عندي . وهذه التعليقات على أنواع ثلاثة :

١ ـ شرح بعض النقاط والحوادث التاريخية ، واثبات اختلاف الروايات في بعضها ، وترجيح غير ما ذكره المؤلف .

٢ ـ تفسير المصطلحات والأسماء التركية ، وهي كثيرة في مجالَيْ الإدارة والمجتمع ، وتراجم قصيرة لبعض الشخصيات التي وردت أسماؤها أو الإشارات إليها في الكتاب ، وتحديد بعض

الأماكن في أنحاء الدولة العثمانية في البلقان والأناضول .

٣ ـ الرد على هجمات المؤلف على الإسلام أو بعض مؤسساته السياسية والدينية .

وإنني واثق بأن هذه الترجمة ستسد فراغاً في المكتبة العربية عن المراجع في الدولة العثمانية ، كما أن قيمة الكتاب قد ازدادت ـ كما سيلاحظ القارىء ـ وأصبحت الإفـادة منه ميسورة بعد هـذه التعليقات . والله المستعان ونعم الوكيل .

بنغازي ٦ ذي الحجة ١٣٩٣ هـ
الموافق ٢٠ ديسمبر ١٩٧٣ م .

المترجم
سيد رضوان علي

المقدّمة

إن المدينة العظيمة على ضفاف البوسفور قد عرفت بأسماء عديدة . فانها عند السلاف كان زارغراد : مدينة الامبراطور ، وعند سكان شمال اوربا ميكالاغارد أو ميكل غارث (Myklagaard or Micklegarth) البــرج العظيم ، وقد عرفها اليونان والرومان باسم بيزنطه (Byzantium) ، وهي اسم مستعمرة قديمة في هذا الموضع ، كما عرفت عندهم باسم « روما الجديدة » ، وفوق ذلك كله باسم قسطنطينوبولس (Constantinupolis) اي مدينة القسطنطين ، الذي أنشأ عاصمته الإمبراطورية الجديدة هناك في ٣٣٠ م . وإن الاسم الجديد في صورة القسطنطينية كـان ايضـاً قد استعمله المسلمـون وراء الحدود الشـرقية والجنـوبيـة للإمبراطورية .

وعلى وجه العموم ، كان البيزنطيون يكتفون باطلاق لفظة « المدينة » (hê polis) على عاصمتهم العظيمة . ولعلها

هذه اللفظة التي تظهر في مؤلفات المؤرخين والجغرافيين المسلمين في القرن العاشر الميلادي . أما الاسم استنبول ، فاشتقاقه مختلف فيه ، والتفسير المقبول بصفة عامة هو انه مشتق من شبه الجملة eis tên polin ومعناها « إلى المدينة » ، والتي يمكن أن قد سمعها المسلمون من جيرانهم اليونانيين في آسيا الصغرى . إن الاسم استنبول بالرغم من انه استعمل بكثرة من قبل الأتراك والمسلمين الآخرين لم يحظ بالاستعمال العثماني الرسمي . وإن تحويراً خيالياً له في شكل « اسلامبول » أي . العامرة بالإسلام ، ظهر لفترة على العملات النقدية والوثائق العثمانية . ولكن لمعظم الفترة فضل السلاطين العثمانيون . منذ الفتح حتى سقوط الامبراطورية ، المحافظة على الإسم « قسطنطينية » . وتنويعه بأسماء شعرية مثل « الآستانة » و« دار السعادة » . ولم يحدث استبدال القسطنطينية باسم استنبول نهائياً ورسمياً إلا في سنة ١٩٣٠ .

وعلى أية احوال ، كان الاسم استنبول الإسم المعروف والعام الذي أطلقه الأتراك على المدينة العظيمة التي فتحوها واتخذوها عاصمة لامبراطوريتهم وحضارتهم . وفي الصفحات القادمة ، بذلت مجهوداً لعرض بعض جوانب هذه الامبراطورية وتلك الحضارة في أيام ازدهارهما في عهد المجد العثماني . وقد فعلت ذلك حسب الإمكان في كلمات المراقبين المعاصرين من الأتراك والغربيين .

النص من كاتب چلبي في الفصل السادس من ترجمة

الدكتور ج . ل . لويس G.L. Lewis وأشكره والناشر George Allen and Unwin لنقله هنا . والمقطع من سعد الدين في الفصل الأول ، ومن أولياء چلبي في الفصل الخامس ، من ترجمة J.Hammer , E.J. W. Gibb بتعديل بسيط ، وقصيدة مسيحي في الفصل السادس ، من تـرجمة Sir William Jones .

والمقاطع من الكتاب الأوربيين نُقلت في التراجم الانكليزية المعاصرة أو القريبة العهد منها . والتراجم الأخرى للنصوص التركية من عملي ، وأشكر مدير مجلة Islamic Studies في كراتشي لسماحه باعادة نشر تراجمي لنصوص لطفي باشا وكوچوبيك وكاتب چلبي ، والتي نشرت في الأصل العدد الأول ، مارس ١٩٦٢ من هذه المجلة .

وأحب أن أعرب عن امتناني للأستاذين A.T.Hatto والدكتور V.L. Menage من جامعة لندن اللذين تفضلا بقراءة نسخة هذا الكتاب المطبوعة بالآلة الكاتبة . وأبديا عدداً من المقترحات لتحسينها . ولكل واحد أن يلاحظ ديني الكبير لسادة الدراسات التركية وبصفة خاصة للأستاذ Paul Wittek .

لندن ، انكلترا
نوفمبر ١٩٦٢

برنارد لويس

١

الفَتح

في الساعات الأولى من صباح يوم الثلاثاء ٢٩ مايو ١٤٥٣ م ، بدأت الجيوش العثمانية المعسكرة خارج أسوار القسطنطينية هجومها العام الأخير . كانت قد مرّت مئة عام منذ أن عبر الأتراك مضيق الدردنيل من برّ آسيا ووضعوا ا أقدامهم في شبه جزيرة غاليبولي[1] ، وأكثر من خمسين عاماً منذ أن

---

(١) كان ذلك في عهد أورخان بن عثمان ، ثاني سلاطين الدولة العثمانية . وتختلف الرواية التاريخية حول تحديد السنة التي عبر فيها الجيش العثماني مضيق الدردنيل إلى غاليبولي (Gallipoli) واحتل فيها هذا الشاطىء الأوربي . ففريق من المؤرخين يرى أن هذا العبور حدث في ١٣٥٦ م ومنهم Creasy في كتابه History of the Ottoman Empire p 19 وبابنجر (Babınger) كاتب مقال اورخان في دائرة المعارف الإسلامية وانه أضاف ان احتلال الأتراك لهذه المدينة تم في ١٣٥٧ م (الترجمة العربية ١٩٠/٥ - ١٩٦) .

وفريق آخر يحدده بـ ١٣٥٧ م . ومنهم محمد فريد في كتابه الدولة العلية العثمانية (ص ٤٤) ، واسماعيل سرهنك في حقائق الاخبار عن دول البحار (٤٩٠/١) ، و Lane- poole, Turkey, p. 34 والدكتور سالم الرشيدي ، محمد الفاتح ص ٢٦ و ٢٧ وبروكلمن في تاريخ الشعوب الإسلامية (الترجمة العربية ٢٣/٣) .

وفريق ثالث يرى أنه حدث في ١٣٥٤ م ، ومنهم الباحث الألماني Paul Wittek في =

حاول السلطان بايزيد ، سيد البلقان ، فتح المدينة الإمبراطورية . ولقد نجت القسطنطينية آنذاك بتدخل من الغرب وخطر من الشرق[٢] . وفي عامي ١٤١٠ م و١٤٢٢ م حاصر المدينة الحكام الأتراك الآخرون : الأمير موسى والسلطان مراد على التوالي . ولكن حالت مرة اخرى ظروف طارئة

= كتابه The Rise of the Ottoman Empire, p.44 ومؤلف هذا الكتاب ، ص ١٧ وكذا يستفاد من احدى الروايات المذكورة في كتاب الدكتور الرشيدي المذكور (ص ٢٦) .

وأنا أميل إلى هذه الرواية نظراً إلى أن هذا الاستيلاء الذي تم بسبب زلزال حدث في تلك المدينة ، ومغادرة سكانها مذعورين ، واحتلال الأتراك الموجودين في المنطقة لها كان سبب ثورة أهالي القسطنطينية على الأمبراطور كانتاكوزين وخلعهم له في ١٣٥٥ م (انظر جدول أباطرة بيزنطة لرنيسمان في كتاب الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز تعريب حسين مؤنس ومحمود زايد ص ٤٠٩) . وهكذا كانت قد مرت مئة عام على وجه التحديد على وضع الأتراك أقدامهم في غاليبولي . والحقيقة أنهم كانوا عبروا مضيق الدردنيل إلى غاليبولي قبل ذلك في ١٣٤٤ م أو ١٣٤٥ م لمساعدة حليفهم كانتا كوزين لأول مرة ثم عادوا منها . انظر Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, vol. vi.p. 298 ، ومحمد فؤاد كوبريلي في كتابه قيام الدولة العثمانية (الترجمة العربية ص ١٨١) .

(٢) حاصر با يزيد الأول أو بايزيد يلدرم القسطنطينية لأول مرة في ١٣٩٥ م أو ١٣٩٦ م على اختلاف الروايات ، فهبت دول أوربا بدعوة من البابا بونيفاس التاسع بحملة صليبية تحت قيادة ملك المجر سجسموند واشتراك أمراء فرنسا والمانيا وغيرها لإنقاذ القسطنطينية والقضاء على الأتراك العثمانيين ثم التوجه نحو القدس ، واضطر بايزيد الى رفع الحصار لمواجهة هذا التدخل الغربي ، وألقى هزيمة ساحقة على الصليبيين في معركة نيكوبولس الشهيرة (سبتمبر ١٣٩٦ م) .

ثم عاد بايزيد بعد فتوحه في البلقان واليونان وحاصر العاصمة البيزنطية مرة أخرى في ١٤٠٢ م ، فبرز له الخطر من الشرق الذي يحدث عنه المؤلف ، وهذا الخطر هو هجوم تيمورلنك (الأعرج) على سيواس من ممتلكات العثمانيين في شرقي الأناضول في ١٤٠٠ م ، ثم الهجوم الثاني فيها ١٤٠٢ م والمعركة الحاسمة في سهل انقرة التي انتهت بهزيمة بايزيد .

دون وصولها إلى الهدف[٣] . والآن بدأ سلطان جديد شاب ، محمد[٤] المعروف في التاريخ بالفاتح . أضخم وآخر حصار . ولقد أتى محمد الفاتح بجيش عظيم من ممتلكاته في آسيا وأوربا ليفتح العاصمة الإمبراطورية ، ويجعلها حجر زاوية للامبراطورية التي كوّنها آباؤه بفتوحهم .

لقد كانت بقيت من الإمبراطورية الواسعة التي حكمها الأباطرة البيزنطيون العاصمة فقط ، وبعض المدن البعيدة في اليونان ، والتي كانت لفقرها وبعد مسافتها لم تكن تستطيع أن تقدم للامبراطورية عوناً يذكر . ومن

---

(٣) الأمير موسى أحد أبناء بايزيد يلدرم الأربعة الذين تنازعوا فيما بينهم على العرش بعد موت أبيهم في أسر تيمورلنك . أما مُراد فهو مراد الثاني ابن السلطان محمد الأول . والظروف الطارئة التي حالت دون فتح العاصمة البيزنطية هي أنه في المرة الأولى تحالف الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني مع الأمير محمد بن بايزيد يلدرم (الذي أصبح سلطاناً فيما بعد) ضد موسى ، فاضطر الأمير موسى إلى رفع الحصار ثم مُني بالهزيمة في المعركة التي جرت بينه وبين الأمير محمد .

وأما السلطان مراد فدعته ثورة أخيه مصطفى في الأناصول إلى رفع الحصار في ١٤٢٢ م والإسراع بجيشه لمحاربة أخيه الثائر وحلفائه الأقوياء من أمراء قرمان وكرميان من إمارات الأناضول التي كانت قد استقلت بعد هجوم تيمورلنك الآنف الذكر . وألقى مراد هزيمة على أخيه وقضى على فتنته .

(٤) هو السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني ، سابع سلاطين آل عثمان . تولى الحكم وعمره ٢٢ سنة ، وحكم ثلاثين عاماً (١٤٥١ ـ ١٤٨١ م) ، واشتهر بالفاتح لفتحه القسطنطينية وهو أعظم السلاطين العثمانيين من حيث الفتوح التي تمت في عهده في اوربا الشرقية واليونان وشبه جزرية القرم ، ومن حيث تأسيس وترسيخ دعائم الحضارة العثمانية . كان عالماً شاعراً ، بجانب كونه قائداً عسكرياً طموحاً ، وكان يجيد عدة لغات شرقية وأوروبية (التركية والعربية والفارسية واليونانية واللاتينية والسلافية) وله ديوان شعر بالتركية مطبوع . وهو يُعد أحد الفاتحين العالميين الثلاثة اسكندر الكبير قبله ونابليون بعده . وكان يفكر ويعمل لإنشاء امبراطورية عالمية على غرار امبراطورية اسكندر ، ولكن الموت المبكر لم يدع له فرصة لتحقيق حلمه ، ومات في معسكره وهو خارج لحملة كبرى.راجع عنه كتابنا «محمد الفاتح بطل الفتح الاسلامي في أوربا الشرقية .

العاصمة العظيمة المزدهرة زمناً كان قد بقي جزء صغير منكمش خاو ، عدد سكانه مجرد خمسين ألف[٥] نسمة . وكانت هناك داخل أسوار المدينة خرائب تنمو فيها الحشائش وحقول مهجورة لا تمسها يد الإنسان . ولكن الأسوار المنيعة الثلاثة الواحد تلو الآخر ما زالت واقفة قوية عالية ، واستعدت خلفها فرق الإمبراطورية الرومانية الأخيرة للدفاع عن عاصمتهم .

وإن هذه الفرق لم تكن كثيرة ، ويجعلها المؤرخون المعاصرون ثمانية آلاف شخص ، بشمول حوالي ثلاثة آلاف متطوع إيطالي ، وذلك للمحافظة على أسوار المدينة في البرّ مسافة أربعة أميال وحماية المداخل من جهة البحر . وكان يساعدهم اسطول صغير في القرن الذهبي الذي تحميه سلسلة حديدية ضخمة عبر المدخل من البحرية التركية خارج القرن الذهبي . ولقد حشدت ضد هؤلاء جيوش إمبراطورية امتدت من شواطىء الدانوب إلى الفرات الأعلى ومن البحر الإيدرياتيكي إلى البحر الأسود : فرق المشاة الإنكشارية النظامية ، فرق الفرسان (سباهية) الإقطاعية ، وقوة كبيرة من المدفعية مع المدافع الضخمة لضرب أسوار المدينة المبنية من ألف عام . يضاف إلى كل

---

(٥) إن تقدير عدد سكان القسطنطينية انذاك أمر مختلف فيه ، واختار المؤلف التقدير الأقل شأن غيره من الكتاب المحدثين لتهوين أمر الفتوح . ويخالف هذا التقدير الواقع والمنطق . فعند جورج فنلي (G. Finlay) الشهير بمؤلفاته عن اليونان كان عدد سكانه حينذاك مئة ألف نسمة . وأخذ بهذه الرواية السير ادْوَرْد كريزي (Creasy) في كتابه المذكور سابقاً (ص ٧٨) . ويقدره مؤرخ بلجيكي معاصر جاك بيرنيه (Jacques Pirenne) بـ ١٨٠ ألف . The Tides of History , (Transl.) Vol. ii, P. 316 . وقدرهم القائد البحري المصري اسماعيل سرهنك بـ ٣٠٠ ألف (حقائق الأخبار : ١/٥٠٩) . ولقد ذكر المؤرخ گبن (E. Gibbon) في كتابه « انحلال وسقوط الدولة البيزنطية « أن ٦٠ ألف شخص من سكانها (القسطنطينية) أخذوا أسرى ونقلوا إلى المعسكر او الأسطول العثماني او بيعوا أو استبدلوا » وذلك عند الكلام على سقوط القسطنطينية . وعلى هذا فيبدو التقدير الوسط لجاك بيرنيه أقرب إلى الصواب .

هذه القوات عدد لا يحصى من المتطوعين ، والطلائع ، وفرق المساعدين . وتكوّن من هؤلاء واولئك جيش يقدر ما بين ١٠٠,٠٠٠ و١٥٠,٠٠٠ شخص ، واسطول من عدة مئات من السفن الحربية[٦] كانت تراقب مضيق

---

(٦) إن مسألة تقدير قوات الطرفين المتحاربين موضع اختلاف كبير بين المؤرخين قديماً وحديثاً . والمؤرخون المسيحيون المعاصرون للفتح يميلون إلى تقليل عدد قوات البيزنطيين وتضخيم قوات العثمانيين إلى حد غير معقول جداً . وهدفهم من ذلك تهوين شأن الفتح والانتصار الذي أحرزه العثمانيون بقواتهم الهائلة على جيش البيزنطيين القليل جداً حسب زعمهم . وهذا ما جعل أوليفنت سميتن (Oliphant Smeaton) محقق تاريخ گبن (Gibbon) يعلق على الروايات البيزنطية قائلاً : «يختلف الرواة البيزنطيون المعاصرون في تقدير هذه القوات إلى حد يثير السخرية والضحك » ، (Gibbon, vi, 429 footnote 1) . والحقيقة أنه لم يكن يتجاوز عدد القوات العثمانية بشتى أنواعها ٨٠ ألف مقاتل حسب تقدير المؤلف اللاتيني فليفوس (Philephus) المعاصر للفتح ، كما نقل عنه Gibbon عند سرده الروايات المختلفة عن هذه القوات . ويقدر المؤرخ التركي ضياء شاكر قوات المدافعين بما لا يقل عن ٦٠ ألف بعد بحثه في الإحصاء السكاني للقسطنطينية . وانظر مناقشتنا لهده الروايات في (كتابة المذكور ص ٧٩) ويقرر المؤرخ التركي المعاصر خليل إينالجك ان عددهم لم يكن اقل من خمسين الف (ص ٢٣) .

أما كريزي (Creasy) فقدر عدد القوات العثمانية بـ ٧٠ ألف جندي فقط ، وردّ الروايات القائلة بـ ١٥٠ ألف جندي أو أكثر قائلاً : « إن السلطان لم يكن في حاجة إلى مثل هذا العدد الضخم بالاضافة إلى ما يشكل ذلك من مشكلة التموين » (كتابه المذكور ص ٧٩) .

والجدير بالذكر أن البيزنطيين كانوا يعتمدون في دفاعهم على الأسوار الضخمة المزدوجة للمدينة والخندق العميق جداً الملاصق بالسور الخارجي . وكان اختراق هذا السور المنيع الفريد يعتبر من احدى المستحيلات .

وأما الأسطول الذي يذكره المؤلف فكانت معظمه سفناً صغيرة أو قوارب ، و ١٢ سفينة فقط منها مسلحة تسليحاً تاماً ، ولم تكن الدولة العثمانية حتى ذلك الحين دولة بحرية مثل البندقية وجنوا . وانظر مناقشتنا لهذا الموضوع في كتابنا (غير المطبوع) « تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها » الآنف الذكر .

البوسفور . ونجح السلطان في نقل ٧٠ أو ٨٠ سفينة من البرّ على ألواح من الخشب عبر غلطه وإنزالها في القسم الأعلى من القرن الذهبي(٧) . وهكذا طوّقت المدينة ذات الشكل المثلث من جهاتها الثلاث .

لقد كانت مضت على الحصار عدة أسابيع . وفي اليوم السابع من ابريل كانت جيوش السلطان أخذت مواقعها على طول مسافة الأسوار في البرّ ، من بحر مرمرة إلى ميناء القرن الذهبي . وفي اليوم الحادي عشر من نفس الشهر نصبوا مدافعهم في مواجهة الأسوار وفي اليوم التالي اي ١٢ ابريل بدءوا قصفها ، والذي استمرّ لستة أسابيع التالية يدك ويهدم الأسوار ؛ وفي ٢١ ابريل نقلوا اسطولهم عبر التلال خلف غلطه إلى القرن الذهبي . ثم بدأ الهجوم التركي الأول على الأسوار يوم ١٨ ابريل ، وتبعته هجمات اخرى من البرّ والبحر . ولكن رُدّت كلها من قبل المدافعين الباسلين . وفي مجلس عُقد في المعسكر التركي في ٢٦ و٢٧ مايو ألحّ الوزير الأعظم الموقر خليل باشا على ترك العملية ، وكان قد عارضها منذ البداية(٨) ، وبدون شك كان هناك

---

(٧) تم ذلك في الليل بين ٢١ و ٢٢ ابريل من ميناء بشكطاش على الشاطىء الأوربي لمضيق البوسفور إلى الشاطىء الشرقي لخليج القرن الذهبي (قاسم باشا حالياً) . والمسافة بين النقطتين حسب التقدير المعتدل ٨ كيلومترات ، في ارض غير مستوية من أنجاد وتلال ، عبر ضاحية غلطة ، حيّ التجار الجنويين الذين أرضاهم السلطان محمد بالمال وفُرشت هذه المسافة بألواح خشبية دهنت بالشحم ، وركبت العجلات في تلك السفن الصغيرة ثم جرّها الثيران والرجال إلى أن أُدخلت في مياه القرن الذهبي . وهكذا تغلب الاتراك على مشكلة الدخول الى هذه المياه من جهة مدخل هذا الخليج في بحر مرمرة بسبب السلسلة الحديدية الضخمة ، وتم بهذه الطريقة حصار المدينة من ناحية البحر أيضاً .

(٨) كان هذا الوزير خائناً ومتواطئاً مع الامبراطور البيزنطي لقاء رشوة كبيرة وحاول صرف السلطان عما قد عزم عليه من الفتح وثبّطه ، ثم اشار عليه برفع الحصار بعد مضيّ اربعين يوماً على الحصار ، طاعناً بطريق خفي على العمليات الحربية وعجز القوات العثمانية أمام الأسوار الضخمة للمدينة ، وذلك في المجلس الحربي الذي عقده =

آخرون يؤيدونه . ولكن السلطان الشاب الطموح الكاره للمستشارين الشيوخ ، الذين تركهم له أبوه ، قرر غير هذا . ففي يوم ٢٧ مايو استشار بعض قواده ، وزار جنوده ، وأرسل مناديه في المعسكر ليعلنوا بأن لو هاجم جنوده الأسوار واحتلوا المدينة ، فانها ستكون لهم لمدة ثلاثة أيام لينهبوا ويسلبوا دون قيد أو مانع(٩) . مرّ يوم الاثنين ٢٨ مايو في الإعداد ، وفي اليوم التالي اي الثلاثاء بعد مضي ساعة أو اثنتين على نصف الليل أعطيت الإشارة لبدء الهجوم العام .

ولقد قام بالهجوم الأول فرق من الأغمار والمغامرين ، وكان الكثير منهم من أصل اوروبي(١٠) . وتقدم هؤلاء نحو الأسوار ، ولكنهم ردوا على أعقابهم مع خسائر فادحة في الأرواح ، غير أنهم حققوا هدف السلطان من إنهاك المدافعين واستنفاد ذخائرهم . وقام بالهجوم الثاني الأكثر جدية فرق العاصفة من الأناضول أي الجنود المسلحون النظاميون ، ولكنهم أيضاً أخفقوا في

= السلطان الشاب لاستعراض الموقف . وضرب نصيحة هذا الوزير العجوز الخائن عرض الحائط ووجد تأييداً لعزيمته في الفتح في آراء قواد وعلماء مخلصين أمثال زغنوس باشا والشيخ شمس الدين الكوراني ، أستاذ الفاتح . وكان جزاء هذا الوزير الخائن ـ بعد إتمام الفتح ـ مصادرة أمواله وحبسه في السجن حتى الموت .

(٩) لم يعلن ذلك إلا في اللحظة الأخيرة حسب رواية المؤرخين الاتراك . أي بعد بدء الهجوم النهائي في ٢٩ مايو ، وبعد استشهاد المئات من الجنود الأتراك في الهجومين الأولين ، وكان ذلك لتشجيع الجنود وإثارة حماسهم على الطريقة المعهودة في تلك العصور . ولكن السلطان نفسه منع عن النهب والسلب والقتل بعد دخوله في العاصمة ، بل فدى بماله الخاص كثيراً من الشخصيات البيزنطية الكبيرة (انظر الرشيدي ، محمد الفاتح صفحات ١٣٦ و ١٤١ وما بعدها) .

(١٠) كان هؤلاء من جنود الروملي اي البلقان الحوبي التابع لحكم العثمانيين ، وكانوا بمثابة طليعة الجيش . وليس الأمر كما يقول المؤلف ، فلم يكن هناك مكان للإغمار والمغامرين في جيش يقوده محمد الفاتح بنفسه .

إحداث ثلم في مواقع الدفاع ، واضطروا إلى الانسحاب ، وأخيراً أرسلت في الضوء المبكر من الفجر كتائب جنوده المختارة : حرسه ورماته وأصحاب الرماح واثنى عشر ألف جندي من جيش الإنكشارية .

وأول واحد منهم تمكن من وضع قدميه على السور كان رجلاً ضخماً من الإنكشارية اسمه حسن[11] ، ولكنه أسقط بضربة حجرة كبيرة وقتل . ولكن الآخرين تبعوه وشقوا لهم الطريق إلى الطرف الآخر الداخلي من السور . وفي نفس الوقت كان الأتراك الآخرون قد دخلوا المدينة من جهة باب « السيرك » المهمل[12] . وفي ظرف ١٥ دقيقة كان عشرات الآلاف منهم قد دخلوا مواقع الدفاع . وعلا الصراخ بين صفوف اليونانيين : «Polıs Healo He» أي « احتلت المدينة » . وفجأة خفقت الأعلام التركية فوق الأبراج ، واندفع المهاجمون من كل جهة نحو الأسوار المثلومة للإجهاز على البقية من المدافعين ، ونهبت المدينة المفتوحة ، ومات الإمبراطور باليولوجوس دراغاسيس[13] (Palaeologus Dragases) آخر الأباطرة في الكفاح المرير الأخير وسيفه في يده .

(١١) واسمه الكامل حسن طولو باتلي ، وصعد السور مع ثلاثين من رفاقه في المطر المنهمر عليهم من النبال والرماح . وسقط منهم ثمانية عشر قتلى وهم في السلّم . ونجح حسن في الصعود الى السور مع البقية حيث انقض عليهم الجنود البيزنطيون والجنويّون ودار قتال رهيب ، قتل فيه البطل التركي بعد أن نجح هو ورفاقه في مهمتهم . (الرشيدي ـ المصدر المذكور ص ١٣٥) .

(١٢) يردد المؤلف هنا ما قاله بعض المؤرخين الغربيين المحدثين أمثال هامر وبيرز ، وذلك للغض من شأن التضحية والبذل والفدى الذي قدمه الأتراك . ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ البيزنطي الرسمي فرانزا الذي كان مع الامبراطور البيزنطي وشهد حوادث الفتح بدقة وتفصيل لم يذكر إهمال هذا الباب ، وكذلك لم يشر إليه رنْسيمَن ـ (Runciman) في كتابه الحديث The Fall of Constantınople

(١٣) هو المعروف بقسطنطين الحادي عشر ، وحكمت اسرته لمدة قرنين من الزمن (١٢٦١ ـ ١٤٥٣ م) .

يدافع به عن عاصمته المفقودة ، « وامبراطوريته كشراع يطوى » .

وبعد ساعات دخل السلطان المدينة بنفسه ، راكباً جواده ، من الباب الذي يدعي بـ « طوب قبو »(١٤) في حاشية من كبار رجال الدولة وحرس الإنكشارية ، وتوجه نحو الكنيسة العظيمة المعروفة بـ آيا صوفيا (Hagia Sophea) أي الحكمة المقدسة حيث ترجل من جواده ، ودخل مبناها . ثم دعا إماماً صعد المنبر وجهر بعقيدة الإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وهكذا أصبحت الكاتدرائية اليونانية مسجداً . وفي مكان الإمبراطور في القسطنطينية حكم السلطان في استنبول . لتنمو وتزدهر مرة اخرى كمركز لإمبراطورية واسعة وحضارة عظيمة .

ولقد رسم لنا طرسون بيك ، أحد المشاركين في الفتح وسكرتير مجلس السلطان وأحد كتاب النثر الفني من العثمانيين ، صورة حية عن دهشة الأتراك على الكنوز التي استولوا عليها . وفي سيرته لمحمد الفاتح التي كتبت في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي يصف دخول السلطان المدينة في الكلمات التالية :

> وتقدم عظماء الدولة وخدام الحضرة بفتح أبواب المدينة قبل أن يدخلها السلطان محمد الغازي مع علمائه وقواده ، بينما لهجت جماعة من الملائكة بالثناء في الملأ الأعلى ورفعوا أصواتهم بتلاوة آية : « هذه جنات عدن . ادخلوها بسلام آمين »(١٥) . بحيث تصل إلى آذان الناس الفانية . وتجول فيها

---

(١٤) ومعناها باب المدفع . وسمي بهذا الاسم لأن الأتراك كانوا قد نصبوا أمامه مدفعاً ضخماً ظل يدك السور المواجه له ، واسمه قبل الفتح باب سان رومان (Saint Romanus) ، وبعد الفتح بسنوات قلائل بنى السلطان الفاتح قصره الواسع في هذا الموضع ، فعرف بسراي طوبقبو ، وهو حالياً متحف .

(١٥) هكذا في الأصل الأنكليزي . وصوابه : إنّ المتقين في جنّات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين * . الأيتان ٤٥ و ٤٦ من سورة الحجر .

وهو يشاهد البيوت ذات الطبقات العديدة وأسواق هذه المدينة الواسعة القديمة . ثم أعرب عن رغبته لمشاهدة الكنيسة المسمى بآيا صوفيا ، والتي تعتبر بقعة من الفردوس ، كما قال الشاعر :

أيها الصوفي اذا كنت تبحث عن الجنة
فهاك آيا صوفيا ، أرفع الجنان

ويمضي طرسون قائلاً بأن الكنيسة رغم مناعتها وجمالها العديم النظير كانت قد تأثرت بعوادي الزمن وانهارت منها بعض الأبنية التابعة لمجموعة البنايات حولها . وأصبحت خراباً ولكن القبة الضخمة ما زالت واقفة :

أية قبة هي ! إنها تضارع في المرتبة الأفلاك التسع ، وكأن مهندساً بارعاً قد عرض في هذا الأثر كل علم الهندسة . فجعل داخلها أنصاف القباب المركبة بعضها فوق بعض مع الزوايا الحادة وأنصاف الحادة ومع الأقواس العديمة المثال كأنها الحواجب المقوسة للصبايا الفاتنات ، ومع المقرنصات المزينة . وإنها من الاتساع بحيث تسع لخمسين الف شخص وتفضل امبراطور العالم بعدانتهائه من مشاهدة الصور العجيبة المدهشة والزينات الرائعة المنقوشة على السقف الداخلي المقعرّ للقبة بأن يصعد إلى السطح لمشاهدة الجزء الخارجي المحدودب من القبة كما صعد روح الله (عيسى بن مريم عليه السلام) إلى السماء الرابع . فصعد إليها وهو ينظر في مروره إلى الفناء الرخامي من فوق تحصينات في كل طبقة . وحينما رأى المباني المنهدمة الخربة التي كانت ملحقة بهذه الكنيسة القديمة المتينة تفكر في عدم خلود هذه الدنيا وفنائها النهائي القادم . ووصل إلى مسامعي المتواضعة بيت شعر من إنشاده الحلو في صوت حزين ، والذي بقي منقوشاً على لوحة قلبي وهي :

ينسج العنكبوت خيطه في قصر كسرى
ويرفع البوم عقيرته الحزينة في قلعة افراسياب(١٦)

---

(١٦) هكذا في الأصل الإنكليزي ، والبيت الفارسي :
بُوم نوبت ميزند بر طارم افراسياب
پرده داري ميكند بر قصرِ قيصر عنكبوت =

وبينما كان السلطان هكذا يخلو إلى تأملاته الحزينة على زوال الأمجاد الإنسانية، كان الجنود الفاتحون يمتعون أنفسهم بحظوظ الانتصار العادية . ويمكن أن نأخذ فكرة عن نظرتهم إلى الفتح من كلام كاتب تركي معاصر آخر ، وجدّ مختلف من الأول ، وهو المؤرخ عاشق باشازاده(١٧) . وسرده التاريخي المكتوب في اللغة التركية السهلة العادية للرجل العادي أقرب إلى نظرات المجاهدين الأتراك أو مقاتلي الثغور :

استمرت الحرب لمدة خمسين يوماً ليل نهار . وفي اليوم الحادي والخمسين أصدر السلطان أمره بنهب دون تقيد ، فهاجموا . وفي اليوم الحادي والخمسين ، الثلاثاء تم الاستيلاء على الحصن . وكانت ثمة غنائم وأسلاب جيدة ، الذهب والفضة والمجوهرات والأمتعة الثمينة التي اخذت وجمعت في سوق المعسكر ، وبدءوا يبيعونها . وإنهم جعلوا أهل المدينة أسرى ، وقتلوا امبراطورهم . واعتنق المجاهدون فتياتهم الجميلة . . وأدوا صلاة الجمعة في آيا صوفيا في الجمعة الأولى بعد الفتح ، ودُعي فيها للسلطان محمد خان الغازي(١٨) .

= ولا خلاف في المعنى إلا ذكر قيصر مكان كسرى ، وتقديم الشطر الثاني على الشطر الأول .

(١٧) كان درويش أحمد الشهير بعاشق باشازاده « رجلاً ساذجاً على غير شيء من العلم » على حد قول العلامة التركي الراحل محمد فؤاد كوبريلي (المصدر المذكور سابقاً ص ١٥٧) . وتاريخه من أقدم كتب التاريخ عن الأتراك العثمانيين ، وقد انتهى من تأليفه وتحقيقه في ١٤٨٤ م في عهد بايزيد الثاني . (انظر مقال خليل ايناجق The Rise of Ottoman Historiography P 152 في كتاب Historians of Middle East جمع وترتيب (Bernard Lewis and P. M. Holt

(١٨) من الجديربالذكر أن طرسون بيك سكرتير السلطان محمد الفاتح ومؤلف كتاب تاريخ ابو الفتح (كنية السلطان المذكور) والدي كان شريكاً في هذا الفتح والذي تقدم وصفه لدخول السلطان الفاتح في العاصمة البيزنطية لا يشير بتاتاً إلى مثل هذه الأعمال من النهب والقتل والأسر . ولا شك أنه أدق في وصفه .

وكان عاشق باشازداه ، وهو الرجل الساذج المجاهد ، مدفوعاً بعاطفته الدينية =

وبعد أكثر من قرن ختم أحد مشاهير المؤرخين العثمانيين ، سعد الدين[١٩] قصته الأدبية الطويلة للفتح بهذه الكلمات الوجدانية :

تلك المنطقة الفسيحة والمدينة القوية الشامخة . . . حوّلت (بعد الفتح) من وكر بومة الآثام إلى عاصمة المجد والشرف . واستبدل بجهود السلاطين المسلمين المشكورة قرع النواقيس الكريهة الصوت للضلال قليلي الحياة بآذان المسلمين - الترنيم الحلو المكرر خمس مرات لعقيدة الشعائر النبيلة . وطربت آذان المجاهدين لألحان الدعوة (الآذان) إلى الصلاة . وأخليت الكنائس في داخل المدينة من أصنامها الدنسة . وطهّرت من أرجاس الوثنية والقذارة . وأصبحت كثير من الأديرة والكنائس بعد محو تماثيلها ورسومها ، وإنشاء محاريب الصلاة والمنابر اكثر جمالاً من جنات الفردوس . وحوّلت معابد الضالين[٢٠] إلى مساجد الأتقياء . ودحرت أشعة نور الإسلام جحافل الظلمات من هذا المكان الذي كان كل تلك المدة الطويلة مستقر الكفار الأخساء ، وبددّ انبلاج فجر الدين الحنيف ظلام الطاغوت الحالك ، وأصبحت كلمة السلطان المظفر ، التي كالقدر لا تقاوم ، نافذة في حكم هذه البلاد المفتوحة حديثاً .

سقط معقل المسيحية في جنوب شرقي أوربـا ، وتأسست فيها قوة جديدة والتي سمّاها أحد القساوسة في عصر اليزابيث حين كتابته بعد قرن ونصف قرن : « إمبراطورية الأتراك المجيدة وإرهاب العالم الحالي » .

= المشبوبة فروى حوادث الفتح في اسلوب قصصي مثير . كما نجد عند كثير من مؤرخي الفتوح في مختلف العصور ومختلف الشعوب .

(١٩) هو شيخ الإسلام سعد الدين خوجه المتوفى في ١٥٩٩ م ، واسم تاريخه « تاريخ التواريخ » ، وقد طبع في استنبول سنة ١٨٧٩ م .

(٢٠) اي المسيحيين أصحاب التثليث حسب التفسير المأثور لكلمة « الضالين » في سورة الفاتحة .

٢

الفاتحون

إن التسمية « الترك » ظهرت لأول مرة في التاريخ في القرن السادس الميلادي وذلك عند حديث المدونّات الصينية عن امبراطورية قوية في آسيا الوسطى ، اسسها شعب يدعى بـ « توكيو » (Tu Kiu) . وليس من شك أن شعوباً من أصل تركي لعبت دوراً ، له بعض الأهمية ، في الأزمنة القديمة ، في تاريخ آسيا وحتى في تاريخ اوربا . ولكن « توكيو » - وتدرك صورتها المحرّفة « تـرك » بكل سهولة - هم أول الشعوب التركية التي ظهرت في التاريخ بهذا ا لاسم ، وهو الذي أصبح فيما بعد اسمهم المميَّز . واستجلبت هذه الإمبراطورية التي امتدت ، عبر الهضاب (Stcppse) ، من حدود الصين إلى البحر الأسود انتباه المؤ رخين الإغريق والصينيين على السواء ، وعلى كل حال فانها كانت قصيرة العمر ، وسرعان ما تفككت في طوائف متحاربة ، وقع بعضها تحت نفوذ الصين(٢١) . لم يكن هؤلاء الأتراك القدامى من آسيا

---

(٢١) وهي التي عرفت فيمابعد في العصور الأخيرة بـ « تُركستان الصينيّة » أي أراضي الترك الصينية . وتُركستان الروسية ، وكانت تضم مناطق من حدود الصين الغربية بشمول مقاطعة سنكيانكَك إلى حدود نهر جيحون أو آمودريا. وقامت فيها حضارة رائعة في ظل الإسلام قبل إعصار جنكَيز خان المغولي وأولاده وأحفاده . =

الوسطى متوحشين . إذ كانت لهم لغة مكتوبة ، وتأثرت بعض طوائفهم الرئيسية بديانات العالم المتحضر ، كالبوذية والمانوية والمسيحية النسطورية .

وعلى كل فلم تكن أية من هذه الديانات القديمة التي اعتنقها الأتراك عقيدتهم النهائية . ففي القرن الثامن الميلادي فتح العرب ـ الذين كانوا قد حملوا عقيدة الإسلام الجديدة من الجزيرة العربية إلى ايران ـ الأراضي الواقعة بين نهري سيحون وجيحون[٢٢] . وحدث إثر ذلك الاحتكاك المباشر بينهم وبين الشعوب في آسيا الداخلية . ووقع الأتراك منذ ذلك الوقت تحت تأثيرهم بالرغم من أن المسلمين لم يخضعوهم تماماً أبداً .

وحمل مجاهدو الثغور والمبلغون الدراوشة ـ الذين كان معظمهم من أصل تركي ـ العقيدة الإسلامية الى القبائل غير المغلوبة ما وراء حدود الامبراطورية الإسلامية وبمرور الأيام اعتنقت معظم الشعوب التركية العقيدة الإسلامية . واختارت معها الخط العربي وشيئاً كثيراً من حضارة الإسلام الغنية المركبة من عناصر شتى .

ومنذ اوائل القرن التاسع الميلادي بدأ الخلفاء يستجلبون الأرقاء الأتراك من الحدود الشرقية ، لاستخدامهم في الجيش بصورة خاصة[٢٣] ، وعرف

= وقضى الروس السوفيت على البقية الباقية من معالم الإسلام في هذه المنطقة الغنية المزدهرة ، وأوجدوا فيها جمهوريات قومية قرغيزيا ، كازخستان ، تاجكستان ، أزبكستان ، تُركمانستان . والشيوعيون الصينيون غيّروا بدورهم اسم تركستان الصينية أو مقاطعة « سنكيانكَ » وسموها باسم أويغور (نسة إلى قوم قديم من الأتراك) وذلك في ١٩٥٥ م ولقد اشتهرت مدينة كاشْغَر في تركستان الصينية ، وقامت فيها حضارة مزدهرة ،وألف أحد علمائها وهو محمود الكاشغري أقدم كتاب عن اللغات التركية ، في اللغة العربية ، في القرن الخامس الهجري ، واسمه « ديوان لغات الترك » ، في ٣ مجلدات .

(٢٢) وهما يعرفان في الخرائط الحالية بأسمائها الفارسية سَرْدَرْيا وآمُودَرْيا على التوالي .

(٢٣) بدأ ذلك في خلافة المأمون ، في أواخر عهده ، ثم استخدموا بكثرة في خلافة أخيه =

هؤلاء بالمماليك . وهو تعبير عربي معناه « ما يُملك » وذلك لتمييزهم عن الأرقاء الذين يستعملون لأغراض الخدمة في البيوت وللأعمال التجارية والاقتصادية . وشكل هؤلاء المماليك الأتراك طبقة حربية خاصة رغم انهم كانوا في المرتبة الدنيا ، ولكن كان هذا اسمياً فقط . واستجلبوا إما بطريقة الشراء او الأسر ، ولكن كان يوحدهم الإخلاص العسكري الصادق . وأصبح هؤلاء بمرور الأيام الركيزة الرئيسية لجيوش الإسلام ، وترقى القواد منهم بسهولة الى مرتبة ولاة الاقاليم ، وأسس بعض هؤلاء الاسر الحاكمة وهكذا ظهر أول الحكام الأتراك في الإسلام في القرن التاسع الميلادي لأول مرة[٢٤] . وفي القرن الحادي عشر كان هناك عدد قليل من الحكام المسلمين الذين لم يكونوا أتراكاً[٢٥] . وفرض الأتراك سيطرتهم في العالم الإسلامي عندما أصبح الجيش الإسلامي يعتمد على الأتـراك أكثر فأكثر . وغدت الحكومات الإسلامية عسكرية الصبغة .

وحدثت في نفس الوقت الحركة التي كان من أثرها أن يصل الأتراك الى البحر الأبيض المتوسط ووراءه ويغيّروا مجرى الحوادث في الشرق الاوسط وأوربا الشرقية . فبدأت هجرة شعوب هضاب اسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط في القرن العاشر الميلادي وذلك بحدوث هزات غامضة في أراضي

= المعتصم بالله (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) حتى بلغ عددهم حوالي سبعين ألف .

(٢٤) وأولهم بنو طولون ، فقد أسس قائدهم أحمد بن طولون دولته في مصر في ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، واستمرت هذه الدولة إلى ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م

(٢٥) وذلك في الشرق الإسلامي ، حيث كان القره خانيون والغزنويّون ، في شرق وشمـال ايران وافغانستان وغرب الهند . ثم السلاجقة ، في ايران وآسيا الصغرى بل والعراق والشام والحجاز أتراكاً ، وكذلك قامت دولتهم بعد الغوريين في الهند في عاصمتها دهلي ، وكذلك الخوارزميون الذين حلّوا محل السلاجقة في ايران وما وراء النهر كانوا أتراكاً .

الشمال النائية ، والتي دفعت طوائف أوغوز من القبائل التركية نحو الجنوب وعبر نهر جيحون الى الحدود الإسلامية ، وكانت هذه أول موجة من سلسلة موجات الغزو والهجرة من تلك الهضاب والتي لم تقف حتى القرن الخامس عشر الميلادي .

وفي موضوع نشأة قوة الأتراك وانتشار الشعوب التركية وتقاليدها في أراضي الإسلام تتميز فترتان بصفة خاصة . الأولى : فترة سلاطين السلاجقة الذين حكموا الشرق الأوسط حوالي قرن من الزمن ، منذ فتحهم لبغداد في ١٠٥٥ م إلى موت السلطان سنجر في ١١٥٧ م . والثانية : فترة الفتح المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي وغلبة المغول ونفوذهم الذي تبع ذلك الفتح .

لم يكن السلاجقة قبيلة فضلاً عن أن يكونوا قوماً . بل كانوا عشيرة من الأتراك الأوغوز[٢٦] ، ويدّعون الانحدار من شخص يسمونه سلجوق ابن دقاق . ويبدو انهم نزحوا إلى الأراضي الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ، واستقروا بجوار بخارى حيث اعتنقوا الإسلام . وأصبح بنو سلجوق هؤلاء قادة الجنود المرتزقة المحترفين مع جماعاتهم الحربية وخدموا في جيوش عدة دول إسلامية . وأخيراً بدءوا يعملون لحسابهم الخاص . واستطاعوا أن يشكلوا قوة عظيمة ويفتحوا المناطق الواسعة . واكتسح أحفاد سلجوق ايران الشرقية ، ثم ساروا نحو الغرب غازين فاتحين ، حتى قاد أحدهم وهو طغرل بك جيشه إلى بغداد المدينة الإمبراطورية في ١٠٥٥ م . وهكذا نشأت امبراطورية جديدة في الإسلام عرفت بسلاجقة العظام . واستمرّ السلاجقة في تقدمهم من العراق نحو الغرب ، وتقدمت إحدى الموجات إلى سوريا وفلسطين ، وانتزعوهما من

---

(٢٦) وهو الجدّ الأسطوري للشعوب التركية المختلفة ، ويعتبره رشيد الدين فضل الله « حفيداً لأبوبْجة خان المسمى يافث بن نوح عليه السلام » . (انظر كتابه ، جامع التواريخ ، ترجمة محمد صادق نشأت وزميليه ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ص ٢٠٤) وانظر كذلك محمد فؤاد كوبريلي (المصدر المذكور ص ١٢١) .

أيدي الحكام المحليين والمصريين . وامتدت موجة اخرى إلى الأناضول الذي كان لا يزال يشكل جزءاً من الإمبراطورية البيزنـطية. وكانت الطريق قد عُبّدت لهم بعد معركة ملاذكرد(٢٧) أو منزكرت (Manzikert) في أرمينيا حيث أوقع السلطان السلجوقي الب أرسلان هزيمة ساحقة بالإمبراطور البيزنطي رومانوس السادس ديوجينس (Romanus VI Diogenes) وحيث كان جميع المهاجمين السابقين من المسلمين قد أخفقوا . واستطاع المحاربون الأتراك بانتصارهم هذا أن يزيحوا حدود المسيحية اليونانية الى غرب الأناضول ويضموا هذه المنطقة الغنية الجديدة الى العالم الإسلامي .

يظهر اسم تركيا لأول مرة في ١١٩٠ م في إحدى مدونات الحروب الصليبية حيث أطلق هذا الاسم على الأراضي التركية الجديدة في آسيا الصغرى وأصبح هذا الإسلام معروفاً في التعبير الغربي ، دون الاستعمال التركي ، للمناطق التي غدت أراض إسلامية .

كانت السلطنة السلجوقية ، في أول الأمر ، موحدة وغير قابلة للتجزئة نظرياً بمعنى أنه لا يصح أن يحكم إلا سلطان واحد جميع أراضي الإسلام المركزية . ولكن بانحطاط السلاجقة العظام وتفكك امبراطوريتهم إلى عدد من الدول يحكمها الأمراء السلاجقة أو قوادهم ظهرت هناك فكرة جديدة ، وهي سلطنة ثغور أو مناطق بعينها .

وكانت إحدى دول ورثة سلجوق الهامة قائمة في الأناضول الأوسط والشرقي . وكان فتح الأناضول في الأساس من عمل القبائل المتنقلة المهاجرة وجماعات المجاهدين (غازيان) ، والذي تم دون أية خطة أو محاولة من قبل الدولة السلجوقية . ومهما كان الأمر فعندما أخذت الفتوح تتوالى ، أرسل أمير

---

(٢٧) وقعت هذه المعركة الحاسمة في ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . ومنذ ذلك الوقت استقر حكم الإسلام في معظم أجزاء أسيا الصغرى أو الأناضول .

سلجوقي ، اسمه سليمان بن قطلمش[٢٨] ، لتنظيم المناطق المفتوحة حديثاً . وبينما حارب مجاهدو الثغور ضد المسيحية وتقدموا إلى الأمام ، قدم الموظفون السلاجقة على إثرهم ينشئون إدارة إسلامية منظمة . وفي خلال قرن واحد كان سليمان وخلفاؤه قد أنشأوا دولة تركية قوية ، عاصمتها مدينة إكونيم (Iconium) القديمة ، والتي يدعوها الأتراك بـ قونية .

وكانت هذه السلالة التي حكمت الأناضول التركي ، بنجاح تختلف بين فترة وأخرى ، إلى بداية القرن الرابع عشر الميلادي تعرف بسلاطين الروم .

وإسم الروم صورة عربية للإسم الشهير روما ، والذي ظل يذكر في الأماكن الأجنبية النائية في الشرق والغرب حتى بعد انهيار الامبراطورية الرومانية بزمن طويل . وكان الروم حسب التعبير الإسلامي في القرون الوسطى هم البيزنطيون ـ « رهمايو » (Rhomaioi) ، الذين حكموا ، من روما الجديدة على البوسفور ، بقايا الإمبراطورية الرومانية في الشرق ، وكانت بلاد الروم من المناطق التي كانت تحت حكمهم . ولم يكن من غير الطبيعي أن هذا المصطلح بدأ يطلق بصورة أخص على المناطق الشرقية للإمبراطورية ، وذلك لاحتكاك المسلمين بها أكثر من غيرها من المناطق الرومانية .

وهكذا فكانت بلاد الروم هي التي وطئت أرضها أقدام المجاهدين الأتراك في القرن الحادي عشر. وكانت تلك البلاد وأهاليها هم الذين أخضعهم سلاطين قونية السلاجقة لحكمهم . ولم يمض زمن طويل إلا وبدأ نعت « الرومي » يطلق على السكان الأتراك واليونان على السواء . بل أصبح يستعمل في الأماكن البعيدة كمصر والهند لتمييز الأتراك الأناضوليين من غيرهم[٢٩] .

---

(٢٨) جاء سليمان هذا إلى آسيا الصغرى في ٤٧٠ هـ ـ ١٠٧٧ م في عهد السلطان السلجوقي العظيم ملكشاه ، وعرفت دولتهم بدولة سلاجقة الروم .

(٢٩) ويعرف ، على هذا الاساس ، أحد كبار شعراء الفارسية وأعظم شعراء الصوفية ، =

وكانت سلطنة الروم السلجوقية مملكة إسلامية تصطنع بالصبغة التقليدية ، ولها جذور عميقة في دنيا الإسلام القديمة . وكانت الحرّية السياسية التي تمتع بها مجاهدو الثغور ورجال القبائل الذين فتحوا البلاد وعمّروها قد حُددت بسلطة مملكة قوية مركزية، كما كانت عقائدهم تخضع لامتحان ومراقبة رجال الدين الرسميين . وكانت قد نشأت في قونية وغيرها من المدن السلجوقية صفوة مختارة من المدنيين ، كما توجه الإداريون ، ورجال العلم ، والفقهاء ، والصلحاء ، والتجار ، وأصحاب الحرف من الشرق ومن الجنوب* إلى المناطق المفتوحة الجديدة . وأتوا معهم بحضارة الإسلام « الكلاسيكي » ، الحضارة العريقة الراقية . وطبعوا البلاد بطابع الأنماط التقليدية للمجتمع الإسلامي ونظام الحكم الإسلامي . وكانت علائق هؤلاء ، بل وأصولهم في كثير من الأحيان ، في قلب أراضي الإسلام القديمة التي كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً منها . ولم يكن هؤلاء يمتون مع مغامري ومجاهدي الثغور بصلة إلا قليلاً .

وفي القرن الثالث عشر واجه الأناضول التركي مع غيره من مناطق الشرق الأوسط النتائج الساحقة للفتح المغولي . فبعد فتح إيران اكتسح الفرسان المغول بلاد الرافدين والأناضول ، وتغلبت فرقة من المغول على جيش

= جلال الدين المتوفى في ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م بالرومي أو مولاناي روم حسب التعبير الفارسي ، ولم يكن رومي الأصل بل كان من اصل تركي في مدينة بلح بخراسان ، ولكنه اشتهر بهذه النسبة أو اللقب بعد استقرار والده وأسرته في قوبية عاصمة السلاجقة في الأناضول .

وإلى عهد غير بعيد كان يسمى بعض الناس في الهند تركية بالروم ، فبعد أن ساح أحد كبار علماء الهند ، وهو مولانا شبلي ، في تركيا والشام والحجاز في أواخر القرن التاسع عشر ألف رحلته باللغة الأردية وسماها : « سياحت نامه روم وشام وحجاز » .

(*) أي ايران وما وراء النهر والبلاد العربية .

سلطان الروم في ٢٦ يونيه ١٢٤٣ م بالقرب من كوسه داغ[٣٠] في تركيا الشرقية . ورغم أن المغول قاموا بغارات ونهب متوغلين في وسط الأناضول ، فانهم في الواقع لم يخضعوا سلطنة الروم لحكمهم المباشر ، وفضلوا إبقائها كدولة تابعة لهم . وعلى كل حال فانهم كانوا قد وجهوا إليها ضربة لم تنهض بعدها أبداً ، وبعد أن عاشت خمسين سنة أخرى في حالة الإضمحلال زالت نهائياً في مبدأ القرن الرابع عشر الميلادي وأصبح معظم الأناضول الشرقي والأوسط تابعاً لإيلخـانات* المغول في إيران وحكمهم ، ينوب عنهم الولاة المغول أو الأمراء الأتراك المحليّون . وانحلّ حكم المغول في الشرق الأوسط بعد موت إيلخان أبو سعيد في ١٣٣٦ م . وظهر عدد من الإمارات الصغيرة تحكمها إما السلالات المغولية او السلالات التركية في إيران وبلاد الرافدين والأناضول .

أما الأناضول فان انهيار سلطة الدولة المركزية به ، واندفاع موجات جديدة إليه من الأتراك الرحل الهاربين أمام غزو المغول أدى إلى احياء النشاط على الثغور والى تقدم جديد نحو الغرب على حساب البيزنطة . ونتج عن هذا دخول جميع الأناضول الغربي في حكم الأتراك المسلمين . وكان شبه جزيرة الأناضول خلال ذلك قد انقسم الى عدد من الإمارات[٣١] ، أقواها قَرَمان ، والتي ملكت العاصمة السلجوقية القديمة ، قونية . وحاولت أن تحل محل السلطنـة السلجوقية بالإبقاء على مؤسساتها واستمرار التمسك بها . وكانت

---

(٣٠) ويكتب أيضاً كوسه طاغ وهو باللغة العربية « الجبل الأقرع » .

(*) مفردها ايلخان ، وهو لقب هولاكو واولاده من بعده الذين حكموا ايران والعراق والأناضول لمدة .

(٣١) ويختلف المؤرخون في عدد هذه الإمارات من عشر إلى أربع عشرة إمارة . وانظر في ذلك في اللغة العربية محمد فؤاد كوبريلي (المصدر المذكور ص ٦٠ ـ ٦٧) وبحثنا في كتابنا (غير المطبوع) المذكور سابقاً .

أنشط الإمارات من بينها تلك التي تقع في أقصى الغرب بحذاء شواطىء بحر مرمرة وبحر إيجه[٣٢] ، حيث كانت مشغولة بالجهاد الإسلامي ضد الكفار برّاً وبحراً .

وكانت بين إمارات مجاهدي الثغور الذين اشتركوا في الفتح مؤخراً إمارة تعرف بحاكمها الأول ، عثمان . والذي قيل[٣٣] عنه أنه حكم من ١٢٩٩ م الى ١٣٢٦ م . وكان سكانها يدعون ، على اسمه ، عثمانلي ، والذي حرّف في اللغات الأوربية بـ Ottomans . وكان قدر لهم أن يقوموا بأعظم إنجازات . وبالرغم من أن إمارتهم في البداية كانت أصغر حجماً وأقل قوة من الإمارات الأخرى المنافسة لها ، فان وضعهم في أقصى الغرب على حدود الإقليم البيزنطي بثينيا Bithynia وعلى مقربة من القسطنطينية ، أعطاهم اهدافاً كبرى وفرصاً عظمى ، وسبب في انجذاب العون والمتطوعين من جميع الأناضول . وكانت هذه الإمارة أحسن إمارات الحدود والتي قدم كفاحها المتواصل ضد العدو البيزنطي فرصاً مختلفة لأصحاب اتجاهات مختلفة ، لنيل المجد والغنيمة والاستشهاد حسب اتجاه كل واحد منهم .

في ١٣٠١ م انتصر عثمان على البيزنطيين في معركة بافيون (Baphaion) ـ قوين حصار في اللغة التركية ـ ومكنه هذا الانتصار من توسيع ممتلكاته بدرجة ملحوظة على حساب البيزنطيين. وفي عهد خلفه أورخان (١٣٢٦ ـ

---

(٣٢) وهي إمارات منتشا وآيدين وصاروخان وقره سي .

(٣٣) لا ندري لماذا يستعمل المؤلف مثل هذه الصيغة المبهمة عن حكم الأمير عثمان مع أن حكمه معروف بالتأكيد والتحديد في المصادر الشرقية والغربية . وذكر گِبن (Gibbon) في تاريخه هجومه الأول على نيقوميديا من ممتلكات البيزنطيين في شمال الأناضول بتحديد دقيق ، ٢٧ يوليو ١٢٩٩ م ، والمؤلف نفسه يذكر بعد أسطر بصيغة الجزم انتصاره على البيزنطيين في معركة بافيون في ١٣٠١ هـ . وهكذا فمحاولته لإثارة الشك في حكم عثمان لا أساس لها من الصحة .

١٣٦٢ م)[٣٤] كان هذا التوسع أكثر سرعة . ففي ١٣٢٦ م بعد توليه الحكم بوقت قصير ، استولى العثمانيون على مدينة بروسه[٣٥] (بورصة في التركية) المحصنة حصانة كافية ، وأصبحت هذه المدينة عاصمة لدولتهم النامية نمواً سريعاً . ثم احتلوا نيقية (أزنيق) في ١٣٣١ م ونيقوميديا (ازميد) في ١٣٣٧ . وفي حوالي سنة ١٣٤٠ م كانوا قد استولوا بالفعل على جميع ما كان قد بقي للبيزنطيين في آسيا الصغرى باستثناء الحصون الواقعة على الشاطىء والمتصلة بالقسطنطينية نفسها . ولم يكن ثمة مكان للتقدم والتوسع لفترة . فتبعت ذلك فترة توطيد الحكم ، والانشغال لحد ما بإلحاق إمارة « قره سي » المجاورة في الجنوب الغربي ، الحدث الذي أوصل العثمانيين إلى الدردنيل وشاطىء بحر ايجه .

ولكن نشاطات مجاهدي الثغور المدعمة بدم جديد من أجزاء الأناضول الاخرى لم تكن لتجمّد طويلاً . ففي ١٣٤٥ م عبرت القوات العثمانية المضيق ـ على طلب من قبل الإمبراطور يوحنا السادس كانتا كوزين

(٣٤) المعروف في معظم المصادر الشرقية والغربية أن أورحان توفي في ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م أو ١٣٥٩ م . والتاريخ الذي ذكره المؤلف اي ١٣٦٢ من رواية بعض المؤرخين الصقليين والبيزنطيين . وناقش بابنجر (Babıbger) كاتب مقال أورخان في دائرة المعارف الإسلامية هذه الروايات ودحضها ، وانتهى باعتبار ١٣٥٩ م سنة وفاته على أوثق الروايات . وفوق ذلك فان جميع الروايات تقول أن أورخان لم يعش بعد وفاة ابنه سليمان بطل عاليبولي إلا قليلاً أو بضعة أشهر ، والثابت أن هذا الأمير توفي في ١٣٥٨ م . كما أن مدينة ادريانوبل أو ادرنه في البلقان لم تفتح إلا في عهد مراد بن اورخان ، والمعروف أنها فتحت في ١٣٦١ م . وهكذا فما احتاره المؤلف والبعض الآخر من المؤلفين الغربيين ليس صواباً

(٣٥) المعروف في جميع المصادر التركية والعربية ومعظم المصادر الغربية ان هذه المدينة قد سقطت وعثمان والد أورخان على فراش الموت وذلك بعد حصار طويل الأمد . وحمل إليها جثمان عثمان حسب وصيته ودُفن فيها .

(John VI Cantacuzenus) إلى أوربا لتساعده في صراعه مع منافسه يوحنا الخامس باليولوجوس[٣٦] (John V Palaeologus) . وأتت تلك القوات عند عودتها إلى آسيا الصغرى محملة بالغنائم وبأخبار سارة عن الأراضي المغرية الجديدة، عبر مياه البوسفور والدردنيل الضيقة .

وفي سنة ١٣٥٤ م وقع الحادثان اللذان هيئا للعثمانيين الفرصة للقيام بمغامرتهم الثانية في اوربا . كان الأول ، سقوط أنقرة ، المدينة الإسلامية الأولى القديمة في آسيا الصغرى ، في أيديهم . إذ كانت أنقرة في حوزة المسلمين لمدة قرنين ونصف قرن وجزءاً من السلطنة السلجوقية . ولأجل ذلك كانت تتمتع بمستوى عال في التجارة والثقافة وإدارة شئون الحكم. وحيازتها أتى إلى المعسكر العثماني برجال العلم وأصحاب الخبرة والمهارة الذين كان العثمانيون في أمس الحاجة إليهم لحكم امبراطوريتهم .

وكان الثاني والأهم من الناحية المصلحة العاجلة احتلال غاليبولي (Galipoli) ـ أول موطىء قدم للعثمانين في أوربا . ومنحها[٣٧] للعثمانيين الإمبراطور البيزنطي نفسه لقاء مساعدتهم له . وسرعان ما أصبحت قاعدة

---

(٣٦) كان هذا الوريث الشرعي لتاج الإمبراطورية . ولكن لكونه صغيراً، استولى على العرش البيزنطي قائد الجيش الأول يوحنا كانتا كوزين . وذلك بمساعده اورخان بعد أن قدم كانتا كوزين ابنته تيودورا للزواج من أورخان ، الذي تم في نفس السنة . ثم خلع كانتا كوزين في ١٣٥٥ م بعد ثورة قام بها أهالي العاصمة ضد سياسته ومحالفته للاتراك وعاد يوحنا باليولوجوس إلى العرش .

(٣٧) الحقيقة ان الامبراطور كانتا كوزين كان قد منحهم حصن تزيمب (Tzymp) في شبه جزيرة غاليبولي لقاء هذه المساعدة ، ثم استولى الأتراك على مدينة غاليبولي نفسسها بعد أن دمّر جزءاً كبيراً منها زلزال عنيف اعتبره سكانها نقمة من الرب فهجروها واعتبره الأتراك نعمة من الله فدخلوا المدينة من أسوارها المهدمة واحتفظوا بها وهذا يدل على العقائد الخرافية التي كان يعتقد بها المسيحيون آنذاك بخلاف الأتراك المسلمين .

لسلسلة من عمليات الفتح في البلقان .

وقام العثمانيون بتقدم سريع في أوربا في عهد حاكمهم الثالث مراد (١٣٦٢ - ١٣٨٩ م) . فكانوا قد فتحوا ادرنة (Adrianople) في حوالي ١٣٦١ م . والتي كانت معقلاً حصيناً على الطريق المؤدي من القسطنطينية إلى الدانوب ، وبعد سنتين أو ثلاث حصن فلبه (Philipopolis) وأصبحت أدرنة الآن مركز القيادة العامة لمراد في أوربا . ومنها أحرز العثمانيون سلسلة من الانتصارات السريعة الساحقة في مقدونيا وبلغاريا وصربيا ، والتي انتهت بمعـركة قوصوه بوليه (Cosovo Polje) العظيمة في ٦ يونيو ١٣٨٩ م ، المعركة التي أغلقت باب الاستقلال في وجوه الصرب ، وهلك فيها كل من ملك صربيا لازار (Lazar) والسلطان مراد ، ولكن كان انتصار العثمانيين تاماً .

إن كل معركة الفتح في أوربـا كان يسبقه توسع في القاعدة الأناضولية للقوة العثمانية . وذلك احياناً عن طريق الحرب وأحياناً أخرى بوسائل سلمية . ففي جنوب الممتلكات العثمانية بآسيا الصغرى كانت تقع إمارة كرميان[٣٨] ، والتحقت معظم ممتلكاتها بشمول عاصمتها كوتاهية ، بالدولة العثمانية كجهاز لابنة أميرها ، التي تمّ زواجها مع الأمير العثماني بايزيد . أما إمارة « حميد » ، جنوبي كَرميان ، فقد استطاع السلطان مراد أن يشتريها من أميرها ، وذلك بفضل الثروة التي كان قد حصل عليها في فتوحه في أوربـــا . وأما إمارة « تكه »[٣٩] وراء « حميد » فقد ملكها خلفاؤه بقوة السلاح .

---

(٣٨) كانت هذه الإمارة من أقوى الإمارات التركية المستقلة في آسيا الصغرى وأقدم عهداً من إمارة آل عثمان ، ولم يكن يفوقها في النفوذ والاتساع إلا إمارة قرمان في جنوب وسط الأناضول . وذكرها Gibbon في تاريخه بهذا الوصف .

(٣٩) من الإمارات البحرية في جنوب غرب الأناضول ، وعاصمتها عَلايا وميناؤها أنطالية ، وهما لا تزالا من المدن الكبرى في جمهورية تركيا الحديثة .

وخلفه العاهل العثماني الرابع بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢ م) الملقب بـ يلدرم (الصاعقة) في حكم الأراضي العثمانية الواسعة في كل من آسيا وأوربـا حيث كان قد توطد وجود العثمانيين بعد الانتصار في معركة قوصوه . وقاد هذا السلطان ، عائداً إلى الشرق ، جيوشه ضد البقية من الإمارات التركية في الأناضول . واستسلمت له أقوى هذه الإمارات ، قرمان ، في ١٣٩٠ م . كما تم إلحاق البقية منها في وقت قصير . وفي خلال السنوات القليلة امتد الحكم العثماني إلى جميع الأناضول التركي ؛ إلى بحر ايجه وشواطىء البحر الأبيض المتوسط في الجنوب وإلى سيواس وقيسارية والفرات الأعلى في الشرق .

كان بايزيد الآن سيد آسيا الصغرى وأوربـا الشرقية الجنوبية ، وفي الواقع سيد جميع الممتلكات البيزنطية باستثناء عاصمتها . وكان خلال هذه السنوات وفي نهاية عام ١٣٩٤م بالتحديد ، قد بعث إلى القاهرة طلباً طريفاً ذا معنى خطير .

فقد كان حكام مصر الحقيقيون في ذلك الوقت سلاطين المماليك الذين تأسست دولتهم في القرن الثالث عشر الميلادي . وكان هؤلاء قد نصبوا ، بعد سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول ، أحد أعضاء أسرة الخليفة العباسي خليفة بالإسم(٤٠) . ومنذ ذلك الحين كانوا قد حافظوا على سلسلة من الخلفاء الإسميين في بلاطهم كرؤساء (أئمة) الدين الرسميين تحت الحكم الفعلي لسلاطين المماليك .

وكان إلى هذا الخليفة الإسمي قد بعث أمير الثغور بايزيد سفارة مع

---

(٤٠) وهو احمد بن الخليفة العباسي الظاهر وعم الخليفة المقتول المستعصم على يد هولاكو ، وتلقب بالمستنصر بالله ، ولقي مصرعه وهو يحاول استرجاع بغداد من المغول في قوة صغيرة بعثها معه الملك الظاهر بيبرس .

الهدايا ملتمساً الحصول على مرسوم التعيين مع لقب « سلطان الروم » . ولم يكن السلطان المملوكي ليرضى بسهولة على منح اللقب الملكي لجار قوي ناهض ولكن الخطر المعلق على الرؤوس من قبل فاتح جديد من الشرق ، اي تيمور ، كان قد جعل المماليك والعثمانيين حلفاء[٤١] موقتاً . ولأجل هذا مُنح بايزيد اللقب الذي كان طلبه ، وذلك في مرسوم وقّع عليه أمير المؤمنين في القاهرة .

وحينما أعلن بايزيد نفسه سلطان الروم فانه كان بنفس الوقت يثير ذكريات تاريخية كثيرة . إذ إنه لم يكن الآن مجرد أمير للثغور بل حاكماً أعلى لإمبراطورية إسلامية في العالم القديم ، ووريثاً لأمجاد سلاطين قونية السلاجقة ، الأمجاد التي تقادم عهدها ولكن لم يعف عليها النسيان . ولعله كان يدّعي حق الوراثة البعيدة عن أولئك الأباطرة المسيحيين الذين كانوا قد حكموا زمناً ما أراضي الروم .

ولم يعجب هذا التحول مجاهدي الثغور ، وقاوموه إلى حد ما . إذ استاء رجال الثغور هؤلاء من تحوّل قائدهم من رئيس قبيلة إلى ملك ؛ كما أنهم استاءوا من تقييد حريتهم بسلطان الدولة المتزايد. وهناك أمثلة كثيرة في المصادر العثمانية القديمة عن عدم رضاهم ، وسخطهم على إدخال نظم الحكم للإسلام التقليدي (كلاسيكي) تدريجياً ، ونظمه المالية والقانونية

---

(٤١) الحقيقة التاريخية خلاف ما يقوله المؤلف . فلقد صرح ابن تغري بردى ، مؤرخ مصر الموثوق في عصر المماليك ، بأن يلدرم بايزيد بعث بسفارة إلى السلطان المملوكي في مصر بقصد التحالف ضد هذا الطاغية الذي كان خطراً عليهما معاً ، ولكن السلطان المملوكي ومستشاروه رفضوا هذا العرض ودلك لحقد المماليك على قوة العثمانيين الصاعدة ولبعض خلافات على الحدود فيما بينهما . وانتقد ابن تغري بردى سياسة المماليك في هذه اللحظة الحرجة بصراحة . (انظر النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢١٧) .

بصورة خاصة(٤٢) .

وفي ١٣٩٥ م ، بعد أن سحق سلطان الروم الجديد حملة لأمير افلاق (Wallachia) وفرض سلطته من جديد ، بدأ بحصار مدينة القسطنطينية ذات الأسوار الضخمة . ولكنه اضطر إلى رفعه لمدة قصيرة بسبب حملة صليبية ، والتي ألقى عليها هزيمة ساحقة في معركة نيكوبولس (Nicopolis) على نهر الدانوب في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦ م .

وبعد عودته إلى حصار القسطنطينية ، اضطر مرة اخرى إلى رفعه بسبب المشاكل في الشرق . كان مواجهة المتمردين والثوار الأناضوليين سهلاً ، ولكن ظهر وراءهم عدو آخر عظيم ، وهو تيمورلنك . وكان تيمور من أصل وضيع(٤٣) ولكنه استطاع أن يجعل نفسه سيد دول المغول بآسيا الوسطى في

---

(٤٢) هذا التهجم على إسلام الأتراك العثمانيين مؤسف وغريب وبعيد عن الحقائق التاريخية . كيف يتصور ان يحارب هؤلاء المجاهدون الشريعة أو النظم المالية والقانونية للإسلام الحق ـ والذي يسميه المؤلف الإسلام التقليدي ـ وهم الذين قاموا بحركة الجهاد الإسلامي ، وبذلوا أرواحهم رخيصة لرفع راية الإسلام في أوربا الشرقية ، والصمود أمام البيزنطيين الذين كانوا يكنون عداوة قديمة راسخة ضد الإسلام والمسلمين منذ ظهور الإسلام .

ويتناسى المؤلف عن قصد الحقيقة التاريخية أن الإسلام بالنسبة لهؤلاء المجاهدين في الثغور لم يكن غريباً ، فقد عرفوه وعاشوا في ظل نظمه الدستورية والقانونية المالية منذ قرون مضت ، منذ دولة السلاجقة في آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر الميلادي وعرفوا حدود حرياتهم ، واحترام السلطة الحاكمة قبل حكم بايزيد يلدرم بزمن . ولم ينزعج بهذه النظم السياسية والدينية والمالية إلا بعض فئات الدراوشة او الصوفية المتحللين ، وكانوا متطفلين على حركة الجهاد الإسلامي في هذه البقعة ، وحاربهم السلاطين العثمانيون حتى قضوا عليهم ، ووقف عامة الأتراك المسلمين خلف سلاطينهم في محاربة هؤلاء المارقين أو المغامرين السياسيين .

(٤٣) كان تيمورلنك من قبيلة برلاس المغولية المتركة ، ويتصل بنسب مع جنگيز خان كما يذكر معظم المؤرخين الفرس (وانظر في ذلك بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى =

سنوات قليلة . وفي سنة ١٣٨٠ م غزا إيران ، وفي السنوات السبع التالية ، اكتسح جميع مناطقها ، وهزم خان « القبيلة الذهبية » في روسيا الجنوبية مرتين . وهاجم الهند ، ثم اكتسح سوريا ، وأجبر السلطان المملوكي(٤٤) بتقديم فروض الولاء إليه . كان تيمور تركياً ومسلماً ، ولكنه يفتخر بصلته بالبيت الملكي المغولي عن طريق زواجه مع أميرة من سلالة جنكيزخان . وهكذا فإذا كان لبايزيد أن يدعى التوارث عن سلاطين الروم السلاجقة ، فان تيمور كان وريثاً لخانات المغول الذين كانوا فيما سلف من الزمن أسياد السلاجقة في الأناضول . وقام تيمور بأول هجوم على شرقي آسيا الصغرى ، ولكنه كان متردداً في المضيّ فيه ضد حاكم مسلم كان قائماً بالجهاد على الثغور الإسلامية . وفي خريف ١٣٩٩ م ، ظهر تيمور من جديد . ولكنه كان الآن فاتحاً عالمياً قوياً . وكان بايزيد أيضاً قد تبدل ، فلم يكن مجرد زعيم مجاهدي الثغور ، بل كان حاكماً إسلامياً منافساً . وكان أبرز ملامح هذا التبدل معاملته لحكام إمارات الأناضول الذين جُرّدوا من سلطانهم ، ولجأ عدد منهم إلى بلاط تيمور . وحتى قوة العثمانيين لم تكن قادرة على مقاومة هجوم الفاتح الجديد

= ص ٢١٧ ، ترجمة احمد السعيد سليمان) . وأخذ بهذه الرواية ابن خلدون . وما قاله المؤلف هنا هو أحد الأقوال الواردة في كتاب ابن عربشاه الدمشقي في كتابه « عجائب المقدور في أخبار تيمور » والذي ألفه بعد وفاة تيمور لنك بخمس وثلاثين سنة . وكان قلب هذا المؤلف مليئاً بالكراهية والسخط على تيمورلنك وذلك بسبب هجماته المدمرة القاسية على البلاد العربية والإسلامية. فشاعت هذه الرواية عن أصل تيمور لدى بعض المؤرخين المحدثين، ومنهم المؤرخ العربي المتأمرك فليب حتي(تاريخ العرب المطول ترجمة جبور وجرجي) ٨٢٥/٢) .

(٤٤) كان هذا السلطان هو الصبي الصغير الملك الناصر فرج ، ولكن تيمور لم يجرؤ أن يتقدم إلى الشام في عهد أبيه الملك الظاهر برقوق ، وعاد إلى الشرق بعد هجومه على بغداد ليقوم بغارته المدمرة على الهند . ثم عاد إلى الغرب بعد سماع أخبار وفاة برقوق . (انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ، الجزء ١٢ ، حوادث سنة ٨٠١ و ٨٠٢ هـ) .

من منطقة الهضاب (Steppes) . وفي ٢٨ يوليو ١٤٠٢ م ، اشتبك الجيشان في سهل قرب انقرة ، ومُني العثمانيون بهزيمة منكرة ، وأسر بايزيد نفسه ، وانتحر بعد ثمانية أشهر ؛ وأدت فتوحه في الأناضول الى عودة الأمراء الذين كان طردهم من أملاكهم .

وتبعت موت بايزيد فترة من القلاقل ، من تمرد وحروب أهلية . وانتقصت الممتلكات العثمانية الى ما كان قد ورثها بايزيد عند اعتلائه العرش وحتى هي تمزقت بسبب الصراع المدمر الذي حدث بين ابنائه على العرش. وأثناء هذه القلاقل أصبح الصراع بين الأناضول والروملّي واضحاً، إذ الأول كانت بلاداً إسلامية قديمة بينما كان الآخر بلاداً يسكنها مجاهدو الثغور والمستوطنون. وإن الأمير موسى ـ الذي كان قد أسر مع أبيه ورآه يموت ـ قد حصل على تأييد الروملّيين، وبصورة خاصة شعوب البلقان المستضعفة من المسيحيين والمسلمين والفلاحين ورجال الثغور على السواء . فان هؤلاء كانوا يخافون ويكرهون قوة الأسياد الشرقيين النامية ، وسيطرة علمائهم المتزايدة . وكانت حكومته في طبيعتها وفيها لاقته من التأييد اكثر شعبية . وكان هذا كافياً لترويع الاشراف والأعيان الذين كانوا خدموه سابقاً وهروبهم إلى صف الأمير محمد في الأناضول . وكان لاستعداد الروملّيين ـ وليس مصادفة ـ أنه خلال كل هذه الاضطرابات للصراع على العرش ، باشر موسى بالجهاد من جديد ، واسترد مكاسب العثمانيين في تراقيا وتساليا وصربيا ، وأرسل الكتائب الغازية إلى كارنثيا (Carinthia) ، وحاصر القسطنطينية في ١٤١٠ م .

وكان محمد يقود قواته في نفس الوقت في الأناضول حيث كان قد نجح في امتلاك جميع المقاطعات العثمانية . وأعطت الأخطار الاجتماعية الكامنة في خطط وأعمال موسى الفرصة لمحمد بأن يفوز بتأييد أشراف البلقان ونبلائه ، بل تأييد امير صربيا وامبراطور القسطنطينية الذي اشترك في هذا الحلف المقدس ضد موسى . وفي ٥ يوليه ١٤١٣ م هزم موسى نهائياً على يد أخيه

محمد في الجبال قرب صوفيا ، ولجأ بعد المعركة إلى الفرار ، ولكنه أُسر وقتل خنقاً .

وكان أخوان آخران قد قتلا قبل ذلك . وأصبح محمد بعد هذا الانتصار مالكاً لجميع الممتلكات العثمانية في آسيا وأوربـا . ولكن لم تنته مشاكله بعد ، ففي ١٤١٦ م ، واجه ثورة خطيرة ، ويحتمل أنها كانت ثورة اجتماعية في الأصل أشعلها وقادها الدراويش . ويجدر بالذكر أن زعيمها الروحي كان القاضي بدر الدين الذي كان قد خدم كقاضي عسكر في جيش موسى . ويبدو أن تعليماته كانت خليطاً من التصوف والاشتراكية الدينية ، ونوعاً من الوحدة الدينية التي اتجهت إلى توحيد الأديان المختلفة(٤٥) .

وكان هدف حكم سلطان محمد الأول(٤٦) الرئيسي محافظة وتوطيد الدولة العثمانية وممتلكاته . فكان عليه وعلى خلفائه أن يحموها من حركات العصيان المختلفة التي إستمرت تندلع في مناطق مختلفة لبضع سنوات . وعلى كل فخلال حكم ابنه مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١ م) حدثت تغييرات عظيمة وخطيرة . إذ استؤنفت حركة توسيع حدود الإمبراطورية ، وأحرزت

---

(٤٥) لم تكن حركة بدر الدين الصمانوي إلا حركة مارقة دينية ولها أهداف سياسية ايضاً وهو الاستقلال بالحكم في جهة الإمارة السابقة آيدين ولم تنتشر دعوة بدر الدين المنحرفة إلا بين السطاء من فلاحي الأناضول المسلمين والمسيحيين ، ودخل فيها زعيم آخر وهو طولاق كمال من أصل يهودي . وقضى على هذه الحركة وهي في مهدها ولم يكن لها تأثير يذكر في المجتمع التركي .

(٤٦) وهو المعروف لدى الأتراك بمحمد چلبي اي الشريف والنبيل، وذلك لنبل أخلاقه واستقامة سيرته وتشجيعه للعلوم والمعارف ، ويعتبرونهم نوح قومهم ، وذلك لأنه استطاع بعد عشر سنين من الحروب الأهلية أن ينقذ الدولة العثمانية من التفكك والانحلال ، ويلمّ شمل أجزائها بعد تمزقها أثر هجوم تيمور لنك ، ومن تم سماه لين بول Lane- Poole « محمد المنقذ » (Turkey, P 74) .

القوات العثمانية انتصارات باهرة ضد اليونانيين ، والصربيين ، والمجريين ، والصليبيين الغربيين[٤٧] . وفي ١٤٢٢ م حاصر مراد القسطنطينية . ولكن كان هذا المجهود قبل الأوان ، فرفع الحصار ، واتجه الأتراك بدل هذا نحو أوربـا. وفي ١٤٣٠ م أكمل مراد فتح مقدونية ، وذلك باستيلائه على سالونيكا ، التي كان البيزنطيون في حالة يأسهم قد باعوها للبندقية قبل ثلاث سنوات . ولاقى تقدم الأتراك نحو الشمال مقاومة عنيفة من قبل المجريين ، واضطر الاتراك ازاء ذلك أن يرفعوا حصار بلغراد في سنة ١٤٤٠ م ، كما أضطر مراد أمام الهزائم الأخرى على أيد المجريين أن يعقد معهم صلحاً لمدة عشر سنوات ، والذي وقع عليه من قبل الطرفين بـ زغد (Szeged) في ١٤٤٤ م . وضمن هذا الصلح حدود العثمانيين على الدانوب في الوقت الذي أعطى بعض الفوائد للمجريين .

تنازل مراد عن العرش ـ بعد أن ضمن سلامة حدود الدولة في اعتقاده ـ لإبنه محمد ، البالغ من العمر اثني عشر عاماً ، وانعزل بجوار بورصة ، في آسيا الصغرى ، ليعيش حياة الزهد والتعبد . وترك وزيره خليل باشا وخسرو ملا (المولى خسرو) كمستشارين له . كان الأول سليل أسرة لكبار الوجهاء الذين خدموا السلاطين العثمانيين حوالي قرن من الزمن ، وكان الثاني فقيهاً وعالماً ربّانياً شهيراً ، وعلى المحتمل من أصل مسيحي[٤٨] ، والذي كان قد

(٤٧) وهكذا فبشهادة هذا المؤلف لم تنته الغارات الصليبية في الشرق بنهاية الوجود الأوربي الصليبي في سواحل الشام ولبنان في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي .

(٤٨) ليس هذا إلا مجرد وهم وقع فيه البعض الآخرون مثل مؤلف هذا الكتاب وذلك بسبب اسم والده فرامرز في صورة غير تركية وعربية ، والحقيقة أنه لقب فارسي . وذكر المولى خسرو نفسه اسمه الكامل في أحد مؤلفاته الفقهية بالعربية : « محمد بن فرامرر بن علي » (انظر على همت الأقسكي : العاهل العثماني ابو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية تعريب محمد إحسان عبد العزيز ص ١٠٢ ، هامش ١) . وهكذا خاب ظن المؤلف وغيره من المؤلفين الأوروبيين الذين ينسبون كل ما هو جيد =

أصبح قاضي أدرنة من مدة قريبة .

كان الإغراء لنقض الهدنة بحيث لا يقاوم ، ففي سبتمبر من نفس العام عبر المجريون الدانوب ، وساروا مع حلفائهم من الأوربيين نحو الجنوب إلى بلغاريا . أما مراد ، الذي كان قد عاد على عجل من آسيا الصغرى ، فاستجمع قواته، وسارع نحو الشمال لملاقاتهم. وأوقع هزيمة قاضية بالمجريين بمعركة وارنه (Varna) في نوفمبر ١٤٤٤ م . وهكذا حطم القوة العسكرية لآخر دولة كان يظن أنها تقدر على أن تقف في وجه الأتراك في أوربا الشرقية الجنوبية ، كما قضى على أحلام حملة صليبية أوربية لطرد الأتراك من بلاد كانوا قد فتحوها .

وحاول مراد مرة اخرى بأن ينعزل ، ولكنه اضطر من جديد إلى العودة على طلب وإلحاح من الوزير خليل باشا لمواجهة تمرد عسكري في أدْرنة . وبقي السلطان المتردد الآن على العرش . وفي أواخر سني حكمه قام بحملات اخرى في اليونان وألبانيا وصربيا . وأحرز الأتراك انتصاراً آخر على جيش المجر المهاجم في معركة قوصوه الثانية في ١٤٤٨ م .

هذا وكانت تطورات هامة تأخذ مجراها في الدولة العثمانية والمجتمع العثماني . فكان السلاطين العثمانيون قد حرصوا منذ عهد بايزيد (الأول) على الاحتفاظ ببلاط على النمط التقليدي ، المكوّن من رجال الحاشية ، والمستشارين ، وعدد من الوزراء . كما أنهم قاموا على طريقة حكام الشرق المسلمين برعاية الشعراء ، والكتاب ، والعلماء . وكان في مكنة هؤلاء الأخيرين أن يقدموا لهم خدمات جليلة . فقد احتاج البيت العثماني الآن إلى سلسلة نسب وتقليد لسلالتهم . ونستطيع ان نتبين منذ ذلك الوقت ظهور ما

= ورائع في الدولة العثمانية إلى الأصل المسيحي حقداً منهم وحسداً . وكان يعتبره السلطان الفاتح أبا حنيفة زمانه لنبوغه في علم الشريعة .

قد عرف فيما بعد بتدوين التاريخ التقليدي للبلاط الملكي بين العثمانيين .

إن التفاصيل عن الأتراك الأوغوز حقيقة وأسطورة كانت توجد في أشكال مختلفة منذ زمن مضي ، ودرست هذه التفاصيل الآن ، وجعلت نقطة إنطلاق لتقليد تاريخي عثماني ، والذي أوجدت فيه صلة البيت العثماني الحاكم بكل من الأسطورة القبلية التركية[٤٩] والإمبراطوريات الإسلامية التركية الأولى . وقويت هذه النظريات الملكية والسلالية الجديدة بظهور طبقة من القادة العسكريين والمدنيين الموثوقين الذين كانوا يدركون مبدأ دولة سلالة إسلامية ويخلصون له بحماس زائد . كما كان هؤلاء على ولاء ووفاء لآل عثمان . ودعّمها إلى حد كبير نظام « ديوشيرمه » الذي اتخذ قبل مدة[٥٠] . وهو ضريبة الغلمان من بين الرعايا المسيحيين في الامبراطورية لاستخدامهم في الجيش العثماني والخدمة المدنية . وأحدث بهذه الوسيلة التحام بين طاقات السكان المسيحيين وروح مجاهدي الثغور كليهما لخدمة السلالة العثمانية . وفي نفس الوقت تم البحث عن حل مشكلة ملحة تتزايد تعقيداً على مرّ الأيام ، وهي الربط المتعادل بين العنصرين والتقليدين اللذين كانا يشكلان الأمبراطورية العثمانية ، اي الجيش ـ الذي كان لا يزال تغلب عليها تقاليد الثغور ـ والدولة التي لا تزال تقتبس نظمها من الأنماط السلجوقية الإسلامية القديمة وأنماط الشرق المغولي .

وذهب مراد إلى العزلة النهائية بموته في سنة ١٤٥١ م . وخلفه ابنه محمد

---

(٤٩) من الثابت ان الأتراك ينتمون إلى عشيرة قاي الغزية ، ووفد عدد كبير من أفراد هذه العشيرة مع السلاجقة إلى الأناضول ، وليست تاريخهم قبل تكوين دولتهم اسطورة كما يوهم المؤلف . (وانظر في هذا الموضوع محمد فؤاد كوبريلي ، المصدر المذكور ص ١١٨ ـ ١٢٥ وانظر بالنسبة للغز بارتولد ، المصدر المذكور ص ٧٤) .

(٥٠) ويرى محمد فؤاد كوبريلي في كتابه المذكور (١٨٩) أن نظام ديوشيرمه لم يتخذ إلا في عهد مراد الثاني .

الثاني المعروف بالفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١ م) . وورث محمد امبراطورية كانت لا تزال منقسمة إلى قسمين : الأناضول ، بل الأحرى الأناضول الغربي العثماني ، الذي كان قد أصبح آنذاك بلاداً إسلامية قديمة ، اندمجت في حضارة الإسلام الناشئة في الشرق الأوسط وأخذت شكلاً جديداً على اسس تلك الحضارة ؛ والروملي ، التي كانت قد فتحت جديداً ، وحتى الآن كانت منطقة الثغور ، وتأثرت تأثراً عميقاً بنظريات وتقاليد مجاهدي الثغور الذين استوطنوها ، كما تأثرت بمعتقدات الدراويش الصوفية المطاطة الذين صحبوا هؤلاء المجاهدين . وكان الوضع يتطلب إيجاد صلة بين الاثنين ، بين العاصمة القديمة والعاصمة الجديدة ؛ اي بورصة مركز العلماء، وأدرنة مركز مجاهدي الثغور . وفي ٢٩ مايو ١٤٥٣ م أو بعد سنتين من اعتلاء السلطان (محمد) عرش الدولة ، قامت فرق الانكشارية بحملة أخيرة على أسوار القسطنطينية ، وكانت النتيجة أن قتل القسطنطين الأخير مقاتلاً مع جنوده ، ورفع الهلال فوق قبة آيا صوفيا ، واتخذ سلطان الروم الإقامة في مدينة الإمبراطورية .

ولقد لقي زائر بندقي وهو (Giacome de'Languschi) أو لنْغاستو (Langasto) السلطان محمد الفاتح حوالي الوقت الذي فتحت فيه العاصمة ، ووصفه هكذا :

> شاب في ٢٦ سنة من العمر* ، حسن البشرة ، عظيم الجثة ، وفوق المتوسط في الطول ، قوي الذراعين ، يثير مطهره الهيبة اكثر من الاحترام قليل الضحك ، متتبع المعرفة ، وموهوب بالأفكار الملكية الحرة . مصمم في أهدافه ، جريء في جميع الأمور وحريص على الشهرة كالإسكندر المقدوني . يسمع كل يوم تواريخ الرومان وغيرهم . . ومدونات الباباوات والأباطرة ، وملوك فرنسا ، والأمراء اللومبادريين . انه يتكلم ثلاث لغات : التركية ،

(*) الحقيقة أن عمره حينذاك لم يكن يتجاوز ٢٤ سنة

اليونانية والسلافية ، ويبحث بكل دقة عن المعلومات عن أوصاع ايطاليا . . وكرسي (عاصمة) البابا ، والامبراطور ، وكم ممالك هنا في اوروبا . وعنده خريطة لها ، وتظهر عليها دولها وأقاليمها لا يُعجب ولا يبتهج بأي شيء كإعجابه وابتهاجه بدراسة اوصاع العالم وعلم الحرب . باحث ، فطن للأمور ، يلتهب رغبة في الحكم . هذا هو الرجل الذي علينا معشر المسيحيين أن نواجهه . إنه شديد المراقبة والحذر ، قادر على تحمل المشقة والبرد والحرارة والعطش والجوع . . . ويقول أن الزمن تغير الآن ، إذ يسير من الشرق إلى الغرب كما سار الغربيون (فيما سلف) إلى الشرق . ويقول ان امبراطورية العالم يجب أن تكون واحدة ، دين واحد ودولة واحدة ولتحقيق هذه الوحدة ليس هناك في العالم مكان أليق من القسطنطينية

وبسقوط القسطنطينية ، سقطت القطعة الأخيرة (من الإمبراطورية البيزنطية) في موضعها اللائق . إذ أن السلطان وضع ختمه على اتحاد القارتين ، آسيا واوربا اللتين كانتا تشكلان تراثه كما وحدّ تقليدين ، الإسلام والثغور اللذين كانا قد أسهما في صهر القارتين في بوتقة واحدة . وغدت إمارة المجاهدين إمبراطورية وأميرها امبراطوراً .

وكانت بقية الفترة من حكم محمد عبارة عن سلسلة من المعارك العسكرية المتتالية ، وكان الهدف منها تحصين وتقوية امبراطوريته . وأصبحت كثيراً من المناطق التي كانت تحت حكم الأمراء المستقلين أو التابعين في السابق تحت الحكم العثماني المباشر . وهكذا أعدت الطريق لتوسع جديد في القرن التالي . ففي اوربا ، أخضع السلطان محمد (الفاتح) آخر الإمارات اليونانية المستبدة في الموره . وجعل صربيا والبوسنة مقاطعتين عثمانيتين وفتح عدداً من جزر اليونان . أما في آسيا فقد أخذ أماسره (Amasara) من الجنوبيين وسنوب) (Sınope) من أميرها المسلم ، وطرابزون[٥١] (Trebizond) من امبراطورها

---

(٥١) المدن البحرية الثلاث الكبرى في الأناضول الشمالي جنوبي البحر الأسود ، من الشرق الى الغرب على التوالي .

اليوناني . وأخيراً أخضع الإمارة الأناضولية (الكبرى) قرمان . وأياً كان الأمر فقد رفض محمد الفاتح بأن يتجه إلى الشرق اكثر من ذلك. وإنه عندما تحداه أوزون حسن حاكم تركمان الخراف البيض(٥٢) اكتفى بالقاء الهزيمة عليه قرب ارزنجان(٥٣) سنة ١٤٧٣ م دون أن يسعى في متابعة انتصاره ، مرجحاً على ذلك العودة الى الغرب حيث مصالحه الحقيقية . وفي محادثة ، ذكرها مؤرخ القرن السادس عشر ، كمال باشا زاده ، وضع السلطان خطته (بالنسبة لهذا الموضوع) قائلاً : كان عقاب أوزون حسن بالنار والحديد صحيحاً وضرورياً لتهوره وفي مصلحة الدولة، ولكن إبادة سلالته يكون خطأ وعملاً غير نبيل ، لأن « تحطيم السلالات القديمة لسلاطين الإسلام العظام ليس عملاً حسناً » . وعلاوة على ذلك فان مثل هذا العمل كان يؤدي إلى انصراف السلطان من واجبه الخطير اي الجهاد في اوربا .

ومهما كان الأمر فان التوسع الثاني العظيم ، مع آثاره البعيدة المدى ، قد حدث فيما بعد في الشرق . ويقال أن محمد الثاني نفسه كان يُعد قبيل وفاته لحملة في الشرق لا تعرف وجهتها .

لم يحدث تطور كبير في عهد خلفه بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) ، لأن بايزيد كان يميل الى حياة القناعة والزهد ، ويعرف بين الأتراك بلقب « الولي » . وإنه اشتهر كمنشىء للجوامع والزوايا . كان حكمه بوجه عام فترة توقف (في الفتوح) ، أعاد خلالها العثمانيون بناء وتطوير عاصمتهم الجديدة ، كما قاموا بتحسين أنظمة أمبراطوريتهم الجديدة . ففي أوربا انتهت الحروب المتكررة ضد البولنديين ، والمجر ، وحلفائهم البنادقة ، والباباوات في ١٥٠٣ م

---

(٥٢) وهي في اللغة التركمانية آق قيونلي ، عشيرة من عشائر التركمان تمييزاً عن عشيرة أخرى عرفت بـ « قره قيونلي » . وكانوا منتشرين حول بحر قزوين وبحر أورال .
(٥٣) مدينة شهيرة شرقي الأناضول .

ببعض مكاسب الحدود للأتراك في الموره والساحل الادرياتكي . وبالإضافة الى ذلك ، منح السلطان لحلفائه النصارى هدنة لمدة سبع سنوات ، لأنه كان مضطراً بأن يكرّس انتباهه إلى تطورات مهمة وخطيرة في الشرق .

حدث في السنوات الأولى من القرن السادس عشر تحولان عظيمان كان لهما أثر عميق ، في المدى البعيد ، في تطور الدولة العثمانية والمجتمع العثماني . الأول : كان ظهور قوة جديدة في ايران ، اي سلالة الصفويين الشيعية ، والثاني : الفتح العثماني للبلاد العربية .

كان الأناضول التركي ، وفيما بعد ، الروملّي قد أصبحا « الدنيا الجديدة » للإمبراطوريات الإسلامية ، وبمعنى آخر حدودَ المستعمرات التي رأوا نحوها كما رأت اوربا نحو امريكا . وحتى عندما أصبحت بلاد الروم مستقلة سياسياً فانها ظلت وكأنها امتداد استعماري للثقافة التركية ـ الفارسية التي كانت مراكزها في إيران وآسيا الوسطى . ففي فن الحكم والإدارة ، وفي القانون وعلوم الدين ، وفي الآداب والفنون ظل السلاجقة وبعدهم العثمانيون تلامذة الشرق ، وظلوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على المهاجرين من الشرق لشغل وظائف الحكومة ، وإدارتها . كان أدب الأناضول السلجوقي ، بأسره على التقريب ، في اللغة الفارسية . وعندما ظهر الأدب في اللغة التركية لأول مرة في حكم العثمانيين الأوائل ، استلهم من نوابغه في ايران وآسيا الوسطى .

ومن الجدير بالذكر أنه حينما أحرز مراد الثاني انتصاره الباهر على الصليبيين في وارنه سنة ١٤٤٤ م ، وأسر عدداً من النبلاء الافرنج ، أطاف بهؤلاء الأسرى الفارهين عبر إيران حتى مدينة هرات[٥٤] لاستعراض نجاحه في

---

(٥٤) احدى المدن الكبرى في جنوب افغانستان على حدود ايران الشرقية ، وكانت مركزاً علمياً وحضارياً قبل حدوث إعصار المغول ،ثم كانت عاصمة مزدهرة لبعض خلفاء تيمورلنك منذ القرن الخامس عشر الميلادي .

المراكز الشرفية القديمة والتي كان لإعجابها (بأعماله) قيمة كبرى عنده .

إن ظهور سلالة قوية منحرفة في ايران وتمركزها في المنطقة الشمالية الغربية قرب الحدود العثمانية كان بمثابة إقامة الحواجز بين البلدين ، صعبة النفاذ ـ وهي حواجز العقيدة والخوف. كان هناك ملايين من المسلمين السنيين في ايران كما كان هناك على الأقل مئات الآلاف من الشيعة المختلفي المشارب في الأناضول ، والذين كان يمكن أن يُتهموا بموالاة شاه ايران المنحرف المبتدع . كان كل من السلطان العثماني والشاه الصفوي في نظر الآخر ملحداً وغاصباً لا يُطاق .

وكان السلطان بايزيد الثاني، في عهد مبكر يرجع الى سنة١٥٠٢ م، قد أمر ، ـ بعد أن شعر بخطر الإمبراطور الشيعي الجديد ـ بنفي العناصر الشيعية من آسيا الصغرى الى الموره ، وكان قد حشد جيوشه على الحدود الإيرانية . وبان هذا الخطر بثورة شيعية في وسط الأناضول في ١٥١١ م . وفي سنة ١٥١٢ إضطر السلطان المسن ، أمام الأخطار المتزايدة ، أن يتنازل عن العرش في حق ابنه سليم الأول(١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م) الذي وقع عليه أن يقود العثمانيين في الحرب الحتمية الآن ضد الشاه اسماعيل الصفوي في ايران . وفي ٢٣ اغسطس ١٥١٤ م هزمت فرق الإنكشارية والمدفعية العثمانية جيوش الشاه في سهل جالدران (Chaldıran) قرب الحدود التركية الإيرانية . ثم في ٧ سبتمبر (من نفس العام) إحتل السلطان العاصمة الإيرانية ، تبريز . ومهما كان الأمر فكان العثمانيون رغم انتصاراتهم غير قادرين على البقاء في هضاب إيران . فانسحبوا الى الأناضول بعد أن تركوا الشاه مهزوماً ذليلاً . ولكنه ظل حتى في ذلك الحين قابضاً على زمام امبراطوريته الشيعية في ايران . وأدى اضطهاد الشيعة في تركيا واضطهاد السنيين في إيران الى الكراهية والخوف المتبادل ، وسقيت هذه الكراهية بدماء الشهداء من الطرفين .

وقامت منذ ذلك الحين بين الإمبراطوريتين ، الإيرانية والعثمانية حواجز لم تكن

تقل في الأهمية من تلك التي كانت بين العثمانيين والعالم المسيحي الغربي . وانقطعت تركيا الآن عن ايران وآسيا الوسطى اللتين كانتا قد أسهمتا في تطورها ونموّها الى حد كبير . وانها اقتصرت منذ الآن على منابعها الفكرية والدينية نفسها .

كما بدأت تستقي من منبع آخر ومختلف جداً بعد الفتح العثماني للأراضي العربية. إذ حطمت سلطنة المماليك المهزوزة بحملة سريعة في سنتي ١٥١٦ - ١٥١٧ م ، وضمت أثر ذلك سوريا ومصر إلى الإمبراطورية العثمانية. واكتسب بذلك العثمانيون نوعاً من السيادة على الجزيرة العربية، بشمول الحجاز والمدينتين المقدستين : مكة والمدينة . وامتدت السيادة العثمانية من مصر إلى شاطىء البحر الأحمر نحو الجنوب والى شواطىء الشمال الإفريقي حتى مراكش نحو الغرب . وفي اتجاه الشرق ، نجح العثمانيون في انتزاع العراق من أيدي أسياده الأيرانيين ، وتمديد الإمبراطورية العثمانية إلى شواطىء الخليج الفارسي .

كان العالم العربي كله الآن باستثناء سلطنة مراكش وبعض حصون الجبال والصحاري - حيث استمرت الدول العربية المستقلة - جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . وأدت إضافة مثل هذه الأقاليم الواسعة وسكانها ، مع تقاليدهم القديمة ، إلى تحوير في طبيعة الحكم العثماني نفسها .

والحق أن تركيا كانت قد تأثرت بتأثيرات عربية قبل هذا الفتح . فكانت العربية لغة الدين والقانون كما كانت الفارسية لغة الآداب والعلوم . وجاء عدد ملحوظ من رجال الدين العثمانيين من البلاد العربية ، أو من الذين كانوا قد تعلموا بها . ولكن الحضارة العثمانية استقت من منابع الشرق ، لا الجنوب ، من الثقافة التركية - الفارسية الجديدة الحية التي كانت قد نمت في عهد السلاجقة والمغول في آسيا الصغرى ، وليس من الثقافة العربية المتدهورة من عصر المماليك الفضي* . وإن اغلاق « باب الشرق » وضم الأراضي العربية الى

(*) أي في الدرجة الثانية أو الدنيا وذلك بمقابلته مع العصر العباسي الذهبي .

الامبراطورية في آن واحد قد فتح طريقاً للتأثيرات الجديدة من تلك الأراضي . فقراصنة الجزائر ، وتجار التوابل المصريون ، وعلماء الدين السوريون كلهم وجدوا طريقهم الى العاصمة السلطانية الجديدة ، حيث أسهم الجميع في بناء حضارتها .

ويعتبر بحق حكم سليمان (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) المعروف عند الأتراك بالقانوني وعند الأوربيين بـ « العظيم » الذروة في قوة العثمانيين ومجدهم . ووصفه السفير الإمبراطوري اوجير غيسلين دي بوسبيك(٥٥) (Ogier Ghiselin de Busbecq) في الكلمات التالية :

إذا سألتني ما هي صفات سليمان كرجل ، فأقول : أنه كرجال العهود القديمة . تقاطيع وجهه وهيكل جسمه يحملان طابع العظمة ، يليق بالعظمة السياسية التى تمتع بها .

أنه مقتصد معتدل في مأكله ومشربه ، وذلك منذ شبابه ، رغم أنه كان يمكنه أن يأخذ لنفسه حرية عظمى حسب قوانين دينهم . وفي أيام شبابه لم يكن يمس الخمر ، كما لم يكن يميل إلى المتع الشهوانية ، والتي يلذ بها الأتراك كثيراً ، بحيث لا يمكن حتى لأعدائه أن يقولوا أية كلمة ضده في هذه الأمور . ولكنه كان مغرماً بزوجته وحبه المتزايد لها جعله يرضى بقتل ابنه مصطفى . وحتى هذه النقيصة تنسب عادة الى غلبتها عليه بجمالها الخلاّب واكسير الحب . ومن المؤكد انه بعد ان اختارها لتكون زوجته الشرعية لم يلامس أية إمرأة أخرى مع أن شريعتهم لم تمنعه عن ذلك . إنه يمتثل لأوامر الدين

---

(٥٥) سفير ارشدوق النمسا ، فرديناند ، في بلاط السلطان سليمان . وقد ألف كتاباً عن الدولة العثمانية ونظمها العسكرية والسياسية في اللغة اللاتينية ، وطبع هدا الكتاب في ليدن ، سنة ١٦٣٣ م . وقد أبدى اعجابه التسديد بنظام ديوشيرمه، والعناية نتربية الإنسان بهذه الطريقة تربية جيدة بخلاف الأوربيين الذين كانت عنايتهم نتربية كلاب أو صقور للصيد أكثر من اهتمامهم نتربية الانسان وصقل ملكاته ، بصرف النظر عن الطبقة التي ينتمي إليها . (انظر تفصيل ذلك في تاريخ تويبي) A Study of History (Abridged) vol 1.P. 177 .

الإسلامي بكل دقة ، كما انه يجب تبليغ ونشر هذه الأحكام ، وذلك لتوسيع حدود امبراطوريته .

إنه يبلغ الآن من العمر ٦٠ سنة ، ويتمتع بصحة جيدة لرجل في مثل سنه . ومع ذلك فإن وجهه ينم عن أنه يحمل في جسمه مرضاً خفياً ، ويُعتقد أنه قرحة أو سرطان في فخذه . ولكنه يدهن وجهه ببعض الأدوية النباتية عند اللقاء الرسمي بالسفراء حتى يظهر صحيحاً سليماً . ويخافه بسبب ذلك أسيادهم أي الملوك الأجانب .

وامتدت رقعة الإمبراطورية في أوربا بعد انتصاورت جديدة . كما تأسست القوة البحرية العثمانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط بعد الإستيلاء على جزيرة رودس (Rhodes) في عام ١٥٢٢ م . وفتح إخضاع بلغراد في عام ١٥٢١ م والانتصار العظيم في معركة موهاكس (Mohacs) الطريق لفتح المجر ، والصراع المرير المتواصل مع آل هبسبرج[٥٦] (Hapsburgs) للسيادة على أوربا الوسطى . وفي الجنوب ، توغلت الجيوش العثمانية الى جنوب الجزيرة العربية و« قرن افريقية » . وفي الشرق كان الحكم العثماني قد استقر في بغداد ولبعض الحين في تبريز . وفي الغرب أوصلت دول القراصنة على شواطىء الشمال الإفريقي[٥٧] والتابعة حينئذ للدولة العثمانية ، القوة العثمانية الى البحر الأبيض المتوسط

---

(٥٦) حكام النمسا الذين حكموها من سنة ١٢٨٢ م إلى ١٩١٨ م . وأصبح ملوك هذه الأسرة أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ سنة ١٤٣٨ م . وقد بلغت هذه الامبراطورية غايتها من الاتساع وضمت معظم أجزاء اوربا الغربية في عهد الامبراطور شارل الخامس ، معاصر السلطان سليمان القانوني ، وكان يحكمها من مقره الجديد في اسبانيا .

(٥٧) تسمية المؤلف تونس والجزائر والمغرب الأقصى بدول القراصنة ليس إلا تعصب صليبي وعنجهية أوربية . والمعلوم أن القرصنة كانت تمارسها دول البحر الأبيض المتوسط مثل البندقية وجنوا ، الأمر الذي حمل دول شمال افريقيا او الولايات العثمانية أن ترد عليها المعاملة بالمثل .

العربي ، بل عبْر مضيق جبل طارق في بعض الحملات .

وفي سنة ١٥٢٩ م حاصر جيش عثماني مدينة ڤيينا، وفي سنة ١٥٣٧ م حاولت قوة عثمانية صغيرة طرد البرتغاليين من بحر الهند(٥٨)، وفي عام ١٥٥٣ م قاد السلطان (سليمان) جيشاً الى إيران ، وفي عام ١٥٥٥ م(٥٩) حاول اسطول عثماني الاستيلاء على مالطه . ولم يدرك أحد لزمن طويل أن كل هذه الانجازات كانت أعلى مد للتيار العثماني(٦٠) .

ورافق توسع الامبراطورية وقوتها العسكرية اقتصاد متين ، وإدارة دقيقة ، وثقافة غنية رفيعة . وأصبحت استنبول العاصمة الآخذة في التطور منذ عهد اسلاف سليمان « المدينة الأم » الواسعة المزدهرة ، وبمثابة مغناطيس لأصحاب الطموح والمواهب ، وازدحم فيها الشعراء ، والعلماء ، والفنانون والمهندسون ، والإداريون ، ورجال الدين من جميع أنحاء الإمبراطورية وما ورائها . وأسهم

---

(٥٨) وذلك بعد أن طردتهم من بحر العرب وأنقذت عدن وجزر سوقطره وقمران والسواحل الجنوبية الأخرى لليمن من الوقوع في ايديهم ، كما حالت دون وصولهم إلى البحر الأحمر بقصد الهجوم على سواحل الحجاز ، وألقت هزيمة على الأسطول البرتغالي في أولى المعارك البحرية في سنة ١٥٣٨ م في خليج بومباي حيث كان البرتغاليون قد تمركزوا في بعض الجزر مثل «دَمَن» و«دِيو» في مطلع هذا القرن . ولكن الأسطول العثماني لم يستطع طردهم من هذا البحر نهائياً، وذلك بسبب وصول إمدادات بحرية من البرتغال وضعف الاسطول العثماني. ولكنهم ظلوا يطاردون البرتغاليون في الخليج حتى سنة ١٥٥٣ م وأنقذوا مسقط في الخليج العربي من براثن هؤلاء الصليبيين الاوربيين .

(٥٩) هكذا في الأصل الانكليزي . والظاهر أنه خطأ مطبعي أو سهو من المؤلف . والصواب ان حصار مالطة وقع في سنة ١٥٦٥ م .

(٦٠) بل ظل تيار الفتح العثماني يتدفق حتى وفاة بعد السلطان سليمان ،ففتحت قبرص في عهد سليم الثاني خلف سليمان ، ثم فتحت جزيرة كريت في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، كما انهم بسطوا سيادتهم على بولندا في نهاية القرن السادس عشر في عهد مراد الثالث .

كل هؤلاء في إعطاء الحضارة العثمانية الجديدة الرائعة طابعها المتميز الخاص . وبلغت هذه الحضارة في عهد سليمان وتحت رعايته الخاصة إلى حد كبير أرقى مدارجها وتحققت أعظم إنجازاتها . فكتب الباقي شاعر السلطان مدائح سليمان وهو حيّ ، ثم رثاه بعد وفاته (بأروع قصائد الرثاء) . وزيّن سنان ، أعظم المهندسين العثمانيين ، العاصمة بالجوامع الفخمة ، وأروعها جامع السليمانية حيث يرقد السلطان نفسه في ضريحه . وكان المولى أبو السعود أشهر فقهاء العثمانيين ، مفتي العاصمة الأكبر وصديقاً مخلصاً للسلطان . وإليه كتب السلطان المسنّ من المجر في حملته الأخيرة مخاطباً إياه : « إلى صديقي في السن والألم ، وأخي في الآخرة ، ورفيقي على الصراط المستقيم » .

وفي أثناء حصار سكتوار (Szıgetvar) في المجر حانت منية السلطان في خيمته في ليلة ٦ سبتمبر سنة ١٥٦٦ م ، حينما كان الحصار ما زال مستمراً ، ووريث العرش بعيداً في الشرق . فقرر الوزير الأعظم محمد باشا صوقللي أن يبقى نبأ وفاة السلطان سرّاً . وحنّطت جثة السلطان نوعاً ما ، وحملت في محفة لثلاثة أسابيع ، حتى وصل الخبر بأن سليم الثاني اعتلى العرش في استنبول دون نزاع . والآن كشف النقاب عن السرّ ، ودفن قلب سليمان في مقبرة قرب سكتوار ، وأُخذ جثمانه الى استنبول حيث وضع نهائياً في ضريحه الذي أُعد بجامع السليمانية .

وكان السلطان الميّت ، خلف أستار محفته ، بجانب الجيوش المقاتلة تحت قيادته « المزعومة » حتى ذلك الحين نذير شؤم لمستقبل الإمبراطورية في الأيام القادمة .

وظلت الإمبراطورية العثمانية بعد وفاة سليمان بأكثر من قرن قوة جبارة . وكانت قادرة في سنة ١٦٨٣ م أن تقوم بالحملة الثانية العظيمة على ڤيينا . ولكن الحياة كانت قد خرجت منها . وكان اعتلاء الخلفاء المتحللين غير الأكفاء عرش الامبراطورية بعد سليمان يرمز الى انحطاط اعمق ، والذي لم

يكن ليشاهد ويدرك بأوضح مما كان عليه الأمر في استنبول نفسها . ولكن انحطاط القوة العثمانية كان بطيئاً بسبب المحاولات القوية لاستداركه . وتخللته (بالفعل) فترات قصيرة من الانتعاش . وكان للثقافة العثمانية مس خلال الأضواء الخافتة للذكريات الوطنية في القرنين السابع عشر والثامن عشر أن تقوم بانجاز أروع ابتكاراتها .

٣

السلاطين والحكام

كان السلطان العثماني حاكماً مطلقاً مسلماً ، والصيغ الدستورية النظرية الوحيدة التي وضعت بالنسبة لمصدر وطبيعة وحدود قوته ، ودائرة نفاذها القانوني كانت ما نص عليه الفقهاء والكتاب وتلامذتهم . وتذهب جذور النظريات العثمانية عن الدولة والسلطة الحاكمة العليا إلى النصوص الدستورية في الشريعة الإسلامية . وإن الكتابات العثمانية عن سياسة الدولة وشؤون الحكم ترجمة حرفية للكتب العربية من القرون الوسطى ، وبصورة أخص الكتب الفارسية التي تبحث في النظريات الأخلاقية والسياسة، وتأويلات قضاتهم ورسائلهم للملوك .

بدأت الدولة العثمانية كإمارة مجاهدي الثغور ، ولم يدّع رئيسها لقباً أعلى من لقب أمير الثغور (أوج بيك في التركية) أو أمير « الغازين »(٦١) ، أي

---

(٦١) « الغازي » معناها في اللغة العربية محارب أو مقاتل من كلمة الغزو . ولكن في اللغات الإسلامية كالتركية والفارسية والأردية لها معنى خاص وهو المجاهد أو المقاتل في سبيل الله . وهذا الاستعمال ناشىء عن معارك النبي صلى الله عليه وسلم التي تعرف بغزوات الرسول عليه الصلاة والسلام . =

المقاتلين في الجهاد الإسلامي ضد الكفار . وهكذا كان الحكام العثمانيون الأوائل قد قنعوا بلقب « الغازي » (المجاهد) . ففي لوحة منقوشة من سنة ١٣٣٧ م يدعو الحاكم العثماني الثاني ، اورخان ، نفسه بـ « السلطان بن السلطان ، الغازي الغازي بن الغازي ، سيد حدود الآفاق ، بطل العالم » . ويعرّف أحمدي شاعر القرن الرابع عشر الميلادي - والذي تعتبر قصته[٦٢] عن العثمانيين أقدم مصدر تاريخي عثماني مكتوب - بقوله : « إنه أداة دين الله . . . وخادم لله ، والذي يطهر الأرض من رجس الشرك . . . وسيف الله » . ويصف العثمانيين جيرانهم بلـقب - بيك أو الأمير (Beg or Emir) . وأحياناً كثيرة بأمراء الثغور أو الحدود ، اوجلر بيكي (Ujlar Begı) . وبتوسع الممتلكات العثمانية وخاصة بعد ضم جزء كبير من أراضي الأناضول الإسلامية القديمة ، بدأت الدولة العثمانية تجتاز عدة تحولات رئيسية في كيانها وأهدافها ، وغدت يوماً فيوماً أقل شبهاً بامارة رجال الثغور وأكثر تشابهاً بالإمبراطورية الإسلامية من الطراز التقليدي .

وأول السلاطين العثمانيين الـذي قام برد فعل واضح قوي أمام تحديات

= وكان لقب « غازي » اسمى الالقاب التي يلقب بها الفاتحون المسلمون فهذا السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند في أواخر القرن الرابع الهجري يذكر في المصادر الفارسية والأردية بالسلطان غازي محمود . وكان السلاطين العثمانيون الأوائل يعتزّون بهذا اللقب . وأطلق هذا اللقب على مصطفى كمال لانتصاراته على قوات الحلفاء في معارك غاليبولي والدردنيل في الحرب العالمية الأولى ، وعرف بهذا اللقب في أرجاء العالم الإسلامي ، قبل أن يستولي على زمام السلطة وينشىء الجمهورية التركية الحديثة ويتلقب بأتاتورك .

(٦٢) وهي منظومة تاريخية كبرى في التاريخ العام واسمها « اسكندرنامه » ، وفي آخرها فصل عن سلاطين آل عثمان الأوائل . ومن الجدير بالذكر أن أحمدي ليس أقدم مصدر للتاريخ العثماني ، بل هناك معاصر له باسم يخشى الفقيه مؤلف كتاب « مناقب آل عثمان » . وينتهي كتابه هذا إلى عهد بايزيد يلدرم (١٤٠٢ م) . انظر خليل ايناجق ، في Historians of the Middle East p. 52

هذه التطورات الجديدة ، كان بايزيد الملقب بـ يَلدَرم (الصاعقة) . والذي اتخذ لقب «سلطان الروم» بدعوى انه خلف السلاجقة وأنه الحاكم الأعلى لإمبراطورية إسلامية .

ولكن كان صنيع بايزيد قبل أوانه . لأن فتوحه في الأناضول قد تلاشت في ظرف سنوات قليلة كما تلاشى هو نفسه . إذ لجأ ، بعد وقوعه أسيراً في يد تيمور ، إلى الانتحار في حالة يأس . ولكن هذا الانقطاع الذي بدا كأفظع ما يتصور آنذاك ، كان مؤقتاً . إذ عادت عملية التوسع والتحول العثماني في عهد ورثته وخلفائه إلى ما كانت عليه فيما مضى ، من جديد .

وبعد خمسين سنة من فتح القسطنطينية كتب مؤرخ تركي طرسون بيك تاريخاً عن فاتحها ، وقدمه إلى ابن السلطان محمد الفاتح وخلفه ، بايزيد الثاني . وفي مقدمة هذا الكتاب ، يقدم طرسون بيك بعض الآراء حول ضرورة الملكية وطبيعتها ، فيقول :

إن الإنسان بطبيعته سياسي واجتماعي . وتقتضي منه طريقة حياته ونهج بحثه عن القوت أن يعيش في جماعات. ويدعوها العلماء بالمجتمعات المتحضرة ـ أي الجماعات التي تشترك في لغة وتعيش في القرى والمدن،أو البدويّون الرحل في الخيام.ويحتاج الناس بعضهم إلى بعض للتعاون المتبادل، ومن هنا فطروا على المعيشة في الجماعات. ومهما كان الأمر فلأنهم يختلفون فيما بينهم بالضرورة في ُميولهم وعاداتهم ورغباتهم فانهم يميلون إلى الخصام فيما بينهم ، وإذا ترك هؤلاء بدون مراقبة فان هذه المنازعات والخصومات ستقضي نهائياً على هدف التعاون والتعاضد ، وتقود الناس حقاً إلى التخريب وتحطيم بعضهم لبعض ، ولذلك فمن الواجب أن يكون هناك تنظيم ، بأي شكل كان ، لوضع كل رجل في مكانه اللائق وأيضاً للتأكد أنه قانع بحقوقه ولا يتعدى على حقوق الآخرين . وبهذه الطريق يضمن التعاون المثمر ، ويقوم كل واحد بعمله المناسب في مكانه المناسب . ويدعى مثل هذا التنظيم بنظام الحكم أو المجتمع السياسي وإذا كان مثل هذا النظام يوافق مبادىء الشرع والعقل الأساسية ، ويقود الناس إلى حالة الكمال بحيث يدرك الناس الطاقات

التي أودعت فيهم لبلوغ السعادتين (في هذه الدنيا وفي الآخرة) فانه في تلك الحال يعرف بما يدعوه الفلاسفة بالنظام الإلهي ، ويدعون الشخص الذي يفرر هذا النظام بالشارع ، ورجال الدين يدعونه بالشريعة أو القانون المقدس والشخص الذي يؤسسها ويقررها بالنبي

ومن جهة اخرى إذا كان مثل هذا النظام لا يرتفع إلى هذا المستوى بل يبدو بأنه لمجرد تنظيم الشؤون الإنسانية حسب أهواء الحاكم - كما هو مثلاً بالنسبة لجنكيزخان المغولي - فانه في ذلك الحين يدعى بنظام الحكم الملكي أو حكومة السلطان الحازم .

ومهما كان هذا النظام ، فإن وجوده واستمراره يعتمدان على أن يكون هناك حاكم أعلى . وليست ثمة ضرورة وجود النبي في كل عصر . ولكن يجب أن يوجد حاكم أعلى دائماً ، لأن بدون مثل هذا الحاكم يقلب النظام إلى الفوضى .

ولأجل ذلك وجود حاكم أعلى واجب والمصالح التي يضمنها هو يشترك فيها الجميع . وإن الامتنان والاحترام والإطاعة التي من حقه يؤكدها القرآن والتقليد الإسلامي .

وهكذا بعد أن أثبت طرسون بيك أن وجود الحاكم الأعلى ضروري وهو واجب الإطاعة ، يستمر ويناقش ، ببعض التفصيل ، الصفات التي يجب توفرها فيه ، ويبين كيف أنها متمثلة في السلطان العثماني . إنه يشترط للحاكم الأعلى أربع صفات : « العدل ، الصبر ، الاعتدال ، الحكمة . وأهم هذه الأربع العدل . فجميع الناس في حاجة إلى العدل ، حتى إن السراق وقطاع الطرق لهم زعمائهم الذين يجب عليهم أن يقوموا بالتوزيع العادل . وذلك باعطاء كل واحد (من السراق) حقه . وإن لم يفعلوا فان عصابتهم لن تعيش يوماً واحداً . والعدل يعني الحفاظ على النظام المتوازن للعالم ، وذلك بابقاء كل واحد في مكانه اللائق ، وإعطائه حقه ، ومنعه من التعدي والحيف » .

إن تأملات طرسون بيك هذه مع أصدائها من الفقه الإسلامي والفلسفة

اليونانية ، والسياسة الفارسية تمثل إلى حد كبير النظريات السياسية المتداولة في الإمبراطورية العثمانية ، بل في الواقع في الدول الإسلامية الأخرى ، وذلك منذ تحطيم الخلافة ببغداد إلى بدء تأتيرات النظريات الغربية . وإنها تعكس امتزاج كثير من الاتجاهات والتقاليد المختلفة . ومثله كثير في الثقافة العثمانية المركبة .

وأهمه إلى حد كبير التقليد السياسي الإسلامي في أشكاله المتنوعة ، إذ نشأ الإسلام في بلد صغير بين شعب خرج حديثاً من نطاق البداوة ، وكان ما زال يحكمه رؤساء القبائل ، وفي الحقيقة طبقة من الأشراف يتميزون بالنفوذ ، وشرف الولادة ، والثروة . وإن أقدم ذكرياته السياسية تتمثل في رئيس منتخب ، يحكم بالتراضي حسب العرف القبلي . وتتداخل هذه الذكريات في الصيغ التقليدية التي صاغها اوائل الفقهاء الدستوريين في الإسلام . وإنها برغم أنه قلما عمل بها ظلت منذ ذلك الحين كامنة في النظريات السياسية الإسلامية(٦٣) .

ولا يصح حسب نظريات فقهاء المسلمين المحافظة وجود أية سلطة تشريعية انسانية ، وجميع القوانين تصدر من الله الذي هو مصدر وحيد لكلا التشريع والسيادة العليا . وإن الشريعة التي نزلت عن طريق الوحي ، وفسِّرت وفصِّلت من قبل المفوض لهذا التفسير سماوية وغير قابلة للتبديل.

---

(٦٣) يُخالف هذا الكلام الواقع السياسي في صدر الإسلام ، فلم يكن النفوذ وشرف الولادة والثروة مبررات للسيادة والحكم ، بل على العكس من ذلك حارب نبي الإسلام نفس أولئك الناس الذين كانوا يرون أنفسهم أحق بالسيادة لهده الأسباب ، وهم أشراف قريش مكة . ولسنا ندري لماذا يعتبر المؤلف صيغ الفقهاء المسلمين الدستورية عن إختبار الحاكم أصداء للعرف القبلي من عصر الجاهلية ، ولا يعتبرها انصياعاً لأمر الله وتطبيقاً لشريعته المبينة في الآيات الكريمات مثل « وأمرهم شورى بينهم » و « وشاورهم في الأمر » .

فالحاكم الأعلى (الخليفة أو السلطان أو الملك أو رئيس الجمهورية) لا يضع القانون ، بل انه نفسه مقيد بالقانون ، الذي وجد قبل منصبه ، وذلك لتجنيب العالم من الخراب الذي يمكن أن يلحق به بسبب الميل الطبيعي في الإنسان إلى التخريب ، وبما أن الحاكم رقيب على القانون السماوي فان إطاعته واجب ديني ، ومن ثم فان عصيانه إثم كما هو جريمة في نفس الوقت

وإن الحاكم ليس بمطلق نظرياً ، لأنه مقيد بأن يتمسك بالشرع الذي منحه هذا المنصب ، والذي يخضع له هو كما يخضع له أحقر عبيده . وإنه لا يستطيع أن ينسخ أو يعدل هذا القانون ، لأن الله وحده يستطيع أن يشرع ، والمفسرون المؤهلون لتفسير إرادة الله ، أي الفقهاء ، هم الذين يستطيعون أن يفسروه . وإذا أمر الحاكم بشيء خلاف الشرع سقط واجب الطاعة ، لأنه كما يقول الفقهاء المسلمون : «لا طاعة في المعصية »(٦٤) و«ولا تطيعوا مخلوقاً ضد الخالق » .

والحقيقة أن هذا التقييد على سلطة الحاكم المطلقة لم يكن ذا خطر كبير . لأن القانون نفسه يمنحه سلطة مطلقة إلى حد كبير من ناحية ، ومن ناحية اخرى لم يجب القانون ولا الفقهاء ، بل ولم يطرح السؤال ، كيف يمكن لأيّ واحد ان يتأكد من شرعية أمر يصدر من الحاكم ؟ أو كيف يواجهه إذا عمل خلاف القانون ؟ ولكن أجبره قوة ما يمكن أن يسمى بالرأي العام الحاكم المسلم على احترام العقائد الأساسية وامتثال أوامر الدين الإسلامي بصفة عامة ، في الظاهر على الأقل . ولكن عرف الناس وإرادة الحاكم قد قوبلا عملياً ، وإلى حد كبير نظرياً ، كمصدر للقانون ، ومعه أدواتها الخاصة للتنفيذ(٦٥) .

---

(٦٤) هكذا في النص الانكليزي ، ولفظ الحديث النبوي المعروف : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

(٦٥) هذا الكلام بعيد عن الحقيقة ، ويخالف واقع الفقه الإسلامي والقضاء الإسلامي ، =

ولقد أخذت النظرية السياسية الإسلامية أشكالها الجديدة عندما تعمق المسلمون في النظريات السياسية اليونانية ، ونظريات أفلاطون وأرسطو بصفة خاصة . وتمّ تعديل نظريات « الجمهورية » لأفلاطون ، وتكييفها للمعتقدات الإسلامية على يد الفيلسوف التركي من القرن العاشر الميلادي ، أبي نصر الفارابي(٦٦) ، المعروف بالفارابيوس (Alpharabius) في أوربا العصور الوسطى ، والذي كان لكتابه أعمق الأثر على الكتاب الذين أتوا بعده تباعاً . ففي هذه الترجمة الإسلامية لكتاب الجمهورية بقلم الفارابي تصبح سلطة الحاكم العليا أكثر فردية وأكثر دينية واستبدادية . وتصبح « الجمهورية » « المدينة الفاضلة »* تربط فيها بينهما عقيدة مشتركة ، وتندمج الدولة في شخص الملك الفيلسوف الذي رغم كونه على غير نظام الوراثة حتى ذلك الحين يصبح رئيساً دينياً ، ويملك سلطة واسعة متزايدة تدعمها السلطة والتصديق السماويان .

بل وكان تأثير الحكمة الفارسية وفن ممارسة الحكم الفاوسي أقوى بكثير من الفلسفة اليونانية ، واللذان أصبح كلاهما معروفاً عن طريق الترجمات والمقتبسات العربية للكتابات الفارسية الأولى ، وعن طريق التأثير الشخصي للوزراء الفرس والحكام الفرس (من العهود الماضية) .

وفي رسالة قدمها كوچوبيك(٦٧) (Kochu Bey) إلى السلطان مراد الرابع

= ولم تعتبر إرادة الحاكم قط مصدراً للتشريع ، أما العرف فلا شك أنه يعتبر أحد المصادر الثانوية من مصادر التشريع في الإسلام .

(٦٦) اعتبره المؤلف تركياً لنسبته إلى « فاراب » مدينة في بلاد الترك بآسيا الوسطى والمعروف أنه عاش في بلاط بني حمدان ، وجميع مؤلفاته باللغة العربية .

(*) « الجمهورية » كتاب لأفلاطون ، و« المدينة الفاضلة » كتاب الفارابي المعروف .

(٦٧) ويعتبره مؤرخ الدولة العثمانية الألماني فان هامر « مونتسيكو الأتراك » ، وكانت رسالته في اسباب انحطاط الدولة العثمانية ، أما مراد الرابع فهو أشهر وأقوى سلاطين=

في ١٦٣٠ م يدعي الكاتب أنه منذ عهود خلفاء الإسلام الأوائل لم تكن هناك أية سلالة من الحكام اكثر ولاءاً وإخلاصاً للإسلام من السلاطين العثمانيين، ولا أبدت أية منها احترام مبادىء الشريعة الإسلامية وعلمائها كما أبدى هؤلاء السلاطين . وليست في هذه الدعوى أية مبالغة . فالاعتبار الديني العميق (لمبادئ الشريعة وعلمائها) عند السلالات التركية والمشاهد عند السلاجقة العظام فيما قبل، قد استمر وازداد في حكم العثمانيين . وسبق السلاطين العثمانيون جميع أسلافهم في جعل الشريعة القانون الفعلي للبلاد . ويُبدي سلوك أحسنهم شعوراً عميقاً بالواجب نحو أمانة دينية مقدسة . صحيح أن النظريات الإسلامية عن الحكم في عهدهم تُظهر تحولاً من المثل الإسلامي الأعلى إلى المثل العملي الأعلى ولكن إذا قورن ممارسة شؤون الحكم لدى السلاطين العثمانيين الأوائل بمثلها لدى من سبقهم، فانه يبرهن تحولاً ملحوظاً من « المثل العملي الأعلى » إلى « المثل الإسلامي الأعلى » .

إن التقليد الإسلامي عن السياسة والحكم قد وصل إلى العثمانيين في شكله المتأخر المتطور، حورته تأثيرات كثيرة وتجربة طويلة قاسية، ولعله لهذا السبب بالذات كان قادراً على أن يخدم كدليل قوي في إدارة الدولة، وذلك بمجموعة من الضوابط في فن إدارة الدولة والحكم، والتي كانت تكوّن الجانب العملي الخفي لنظريات هذا التقليد عن الواجبات والالتزامات .

وكان هذا هو المزيج الوراثي المركب من الدولة، وفن إداراتها، والإمبراطورية، الذي ورثه العثمانيون عندما ارتفعوا من مرتبة أمراء الثغور

= القرن السابع عشر، ووجّه أول ضربة قاسية على المشاغبين والمفسدين من الانكشارية، وأعاد للقانون والنظام هيبته في الدولة، كما أنه أعاد فتح بغداد واستردها بنفسه من الصفويين حكام ايران الشيعة. ولم يستطع أن يكمل اعماله في الفتح والإصلاح لموته المبكر في ١٦٤٠ م

إلى مرتبة السلاطين المسلمين. ولكنهم كانوا ايضاً سلاطين الروم بوجه خاص. وقد رأى بعضهم في استنبول العثمانية «روما» ثالثة إسلامية. هل كان السلطان في بيزانس (Byzance) كما دعاه مِلتَن* (Milton) امبراطوراً لروما التركية؟ وهل كانت امبراطوريته ومؤسسات حكمه ليست إلا إمبراطورية بيزنطية بأسماء جديدة؟ لقد راجت هذه النظرية لحين من الزمن، ولكنها لم تصمد أمام البحث العلمي النقدي. فإن الامبراطورية البيزنطية التي واجهها العثمانيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين لم تعد امبراطورية قسطنطين وجستنيان وحتى امبراطورية هرقل بل إنها كانت بقية من الماضي ضعيفة شاحبة، ـ نصف «مستغربة» في قوانينها وفي حكومتها، بل في هيئات سلطتها العليا. وأزال الانتصار العثماني النهائي في ١٤٥٣ م شبح شيء كان ميتاً من قبل. وما بقي من ذلك التراث، كان قد ادعاه وحمله معهم ورثة مختلفون منذ أمد بعيد.

وكان للأتراك نصيب من هذا التراث القديم. وإن شيئاً من اليونان، ومن روما وحتى من بيزنطة كان قد أصبح جزءاً من الإسلام التقليدي نفسه(٦٨). وكان قد أتى إلى الأتراك كعنصر غير معروف الأصل مع تراثهم الإسلامي. ومن الجدير بالذكر بهذه المناسبة أنه عندما يقتبس الكاتب طرسون بيك اقتباساً من جمهورية افلاطون في حوالي سنة ١٥٠٠ م فانه يستقي معرفته بها ليس من المصادر البيزنطية أو اليونانية بل من النصوص الفارسية والعربية

(*) الشاعر الانكليزي الشهير من القرن السابع عشر ومؤلف ديوان «الفردوس المفقود».

(٦٨) لم يكن لفلسفة اليونان، وسياسة روما. ولاهوت بيزنطة أثر يذكر في الإسلام السلفي الذي يسميه المؤلف «التقليدي»، وبقيت كل هذه المؤثرات على هامش الإسلام، ولدى طبقة محدودة جداً من المسلمين. والحركات الإصلاحية عبر العصور الإسلامية طهرته من هذه الشوائب. فدعوى المؤلف دعوى باطلة.

من القرون الوسطى . وإن تعايش اليونانيين والأتراك في الأناضول في الوقت الذي كانت تحتفظ فيه الإمبراطورية البيزنطية ببعض قوتها وحيويتها ترك بدون شك بعض تأثيراتها على الدولة السلجوقية . وعلى كل حال فانها كانت تلاحظ في المعاملات الاقتصادية والاجتماعية اليومية ، وفي العادات والتقاليد المحلية ، وليس في الحكومة ، والإدارة ، إذ أن المنظمات اليونانية في هذا المجال كانت قد حطمت ، واستؤصلت ، وحل محلها نظام الحكم الإسلامي التقليدي ، الذي كان قد تم تشكيله على نمط سلطنات المشرق، واستخدم في وظائفه رجالها . ولقد اشتق العثمانيون نظريتهم عن الحكومة وطريقة ممارسة شؤونها من « سلطان الروم » ، وليس من امبراطور روما القديمة أو الحديثة .

إن أهم جانب للقب سلطان الروم هو مدلوله عن السيادة الإقليمية المحدودة . إذ كان السلاجقة العظام سلاطين الإسلام، ويمارسون السلطة الدنيوية الواحدة ، غير القابلة للتجزئة في الدولة الإسلامية العالمية . وكان سلاجقة الروم والعثمانيون الذين أحيوا دعاويهم وألقابهم ، سلاطين الروم ، أي سلاطين بلاد محددة وشعب معين . وكانت بلاد الروم هي الأناضول . بل دعا الأتراك أنفسهم بالروم لمدة من الزمن على اسم البلاد التي عاشوا فيها ، وقوّى توسع الدولة العثمانية في أوربا هذه الدعوى ، فان بلاد الروم في الإمبراطورية البيزنطية أو بالأحرى في العالم المسيحي الأرثوذكسي اليوناني كانت تشمل الأقاليم في كل من آسيا وأوربا . وكان من الطبيعي للأسياد الجدد لقسم هام من هذه البلاد أن يحاولوا امتلاكها كلها . وهكذا فقد أضيفت إلى بلاد الروم ؛ أي الأناضول ، إقليم الروملّي الجديد ، بحيث كلاهما يشكل إرث سلطان الروم .

وفي الكتابات العثمانية من القرن الخامس عشر الميلادي ، اللقب المعروف لبلادهم هو بلاد الروم ، ولقب حاكمهم سلطان الروم . وهذا ما يميزه عن جيرانه المسلمين : سلاطين فارس ومصر ؛ كما يعبّر في نفس الوقت

عن امتداد حدود ممتلكاته . وكان فتح القسطنطينية إكمالاً اكثر من أن يكون بداية جديدة لها .

وإن حروب سليم الأول ضد جيرانه المسلمين(٦٩) بعد نصف قرن ، وضم الأراضي العربية في آسيا وإفريقيا إلى الإمبراطورية العثمانية قد قوى ذلك التقليد الإمبراطوري الإسلامي .

فلم تكن الإمبراطورية الآن مجرد امبراطورية الروم ، بل إنها شملت قلب بلاد الإسلام ـ المدن المقدسة في الجزيرة العربية ، وعواصم الخلفاء العظام : المدينة ، ودمشق ، وبغداد ، والقاهرة . ولقد قُضي على سلطان مصر ، وأُخرج شاه ايران المبتدع من الأمة الإسلامية السنية . وهكذا أصبح السلطان العثماني فقط الحاكم المستقيم للدولة الإسلامية . صحيح انه ظل هناك الحكام السنّيون في الأماكن البعيدة كمراكش ، وما وراء النهر ، والهند . ولكن كان هؤلاء بعيدين بحيث لا يمكنهم أن يؤثروا في الأحداث الكبرى في العالم . فكان ثمة سلطان مسلم سني واحد من الشمال الإفريقي إلى الشرق الأوسط ، وإنه كان يحكم على جميع مناطق الخلفاء إلا تلك التي استولى عليها الكفار الملحدون .

وفي مقدمة قانون نامه لسليمان العظيم (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) يصف السلطان نفسه بـ « سلطان العرب والعجم والروم » . فسليمان القانوني يدّعي

---

(٦٩) هذا تصوير خاطىء للواقع السياسي في ذلك العصر ومحاولة للإيقاع بين المسلمين . فلم تكن حملة سليم موجهة ضد العرب بل ضد السلاطين المماليك من الجنس التركي في مصر والشام الذين حسدوا الأتراك العثمانيين لفتوحهم في أوربا ، وخافوا من نفوذهم المتزايد وسببوا لهم المشاكل . واتحدوا مع الدولة الشيعية الصفوية الصاعدة في ايران لضرب الدولة العثمانية كما هو ثابت في جميع تواريخ المؤلفين العرب لهذه الفترة ومن المؤسف أن شاعت هذه الفكرة لدى عامة الكتاب العرب المحدثين ، وهي من دسائس المستعمرين الصليبيين .

السيادة العليا على ثلاثة من الشعوب الإسلامية الكبرى . واستُبدل لقب سلطان الروم في هذا القانون بلقب « بادشاه إسلام » اي امبراطور الإسلام . ونلاحظ في هذا اللقب الذي يستعمل عامة من قبل المؤرخين العثمانيين وغيرهم أن عجلة الزمن بدأت تدور دورتها الكاملة ، فضاعت السلطة الاقليمية مرة اخرى في دعوى بسيطة وعريضة في آن واحد ، واعترف للسلطان العثماني في الوقت ذاته بالمكانة التي كان يحتلها بالفعل ، أي وريث الإمبراطورية الإسلامية العالمية في القرون الوسطى . ولقد عُبّر عن هذا التحول في (قضايا) غير مسألة اللقب . ويمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح في العناية المتزايدة بتاريخ الإسلام والفقه ، وفي الصياغة التفصيلية لجهاز القانون الإسلامي السني ، وفي التأثير المتزايد لفقهاء المسلمين الذين كانوا مفسريه المعتمدين .

وهكذا في خلال قرنين من الزمن ، كانت مؤسسات السيادة العثمانية قد مرت من مراحل ثلاث : مرحلة أمراء الثغور ، مرحلة سلطان الروم وأخيراً مرحلة « بادشاه الإسلام » .

وإن أهم خدمة قدمها سكان الهضاب (Steppes) ـ الأتراك ـ إلى هذا الاستقرار كان مبدأ الوراثة المتين في الحكم . إن المبدأ الفقهي الإسلامي هو أن رئاسة الدولة يجب أن تتم بالاختيار والانتخاب . ولكن الحقيقة هي أن هذا المبدأ ظل مجرد نظرية[٧٠] ، وحكم في الإسلام عدد من السلالات . بدءاً بالخلفاء أنفسهم إلى ولاة الأقاليم الذين كونوا الإمارات الوراثية الصغيرة . ورغم ذلك فقد بقي مبدأ الانتخاب قوياً إلى حد انه حال دون تكوّن قاعدة للوراثة ثابتة مقبولة .

---

(٧٠) بل طُبق هذا المبدأ في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم تمسك به الخوارج . والأمير معاوية بن أبي سفيان هو الذي جعل الحكم وراثياً . وثار في وجه هذا المبدأ سيدنا حسين ثم عبد الله بن الزبير بعد عهد معاوية كما هو معروف في التاريخ .

ولقد عرف الأتراك نظرية جديدة . فاننا نجد في نقش تركي(٧١) من القرن الثامن فكرة واضحة عن اختيار الله أسرة للحكم على الأتراك ، وبصورة مبهمة ، على الآخرين من غيرهم ، وفي بلاد غير بلادهم . وتظهر نفس الفكرة في صيغة إسلامية في مراسلات السلاجقة . ويدعون فيها هؤلاء أن ملكهم منحة سماوية وراثية ، كما نجد نفس الفكرة مرة اخرى في البروتوكول السياسي لخانات المغول ، فكان الأتراك والمغول يعتبرون الحكم ملك الأسرة . وجميع اعضاء أسرة الخان أو السلطان كانوا يحتفظون بحق الاشتراك فيه . ونرى هذا المبدأ مطبقا في مملكة السلاجقة ، حيث يسمح لإخوة السلطان وأبناء عمه الاشتراك في الحكم . وفي عهد المغول كانت جميع الامبراطورية الواسعة المكوّنة عن طريق الفتح قد قسمت إلى إقطاعات الأسرة ، ووزعت بين أولاد وأحفاد جنكَيز خان . ونرى مثل هذا العمل مرة اخرى في إمارات الأناضول ، ولعل أيضاً في طريقة العثمانيين الأوائل في تعيين السلاطين أولادهم في حكم الولايات حيث كان لهؤلاء بلاط مصغر على نمط بلاط السلطان .

فكان الأمراء الصغار في عمر حوالي ١٤ سنة بعد الإحتفال ببلوغهم في طقوس الختان يبعثون لحكم المقاطعات في الأناضول ، حيث كانت تراقب كفاءاتهم ويبلغ عنها إلى السلطان . وفي خلال فترة معينة كان يختار أحدهم ليكون وريثاً في الملك . ولتجنب أخطار الصراع على تولي الحكم ، اتخذ العثمانيون ما عرف « بنظام قتل الإخوة » . ولا بد أن تكون هذه الطريقة

---

(٧١) لسنا ندري أي نقش يقصده المؤلف . وأغلب الظن أنه يعني « نقوش اورخون » ولكن هذه النقوش الهامة في تاريخ الأتراك تعود إلى القرن السابع الميلادي لا الثامن كما يذكره المؤلف . واكتشفت في النصف الثاني من القرن التاسع . وهي أقدم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم . وانظر في تفصيل ذلك ومحتويات هذه النقوش كتاب المستشرق الروسي بارتولد المذكور سابقاً ، صفحات ٢ - ١٦ .

معهودة من زمن قديم . لأنه أشار إليها الامبراطور البيزنطي يوحنا السادس كانتا كوزين المتوفى في ١٣٨٣ م كقاعدة مقررة . وفازت هذه القاعدة بتأييد دستوري في عهد السلطان محمد الفاتح بتسجيلها في القوانين الأساسية للامبراطورية في هذه الكلمات :

وأي واحد من أولادي تسلم اليه السلطنة يصح له أن يقتل إخوته ، وذلك للاحتفاظ بنظام العالم . ومعظم العلماء يجيزون ذلك . ولذا فعليهم أن يعملوا طبقه(٧٢) .

وكان الأصل لهذا القانون مبدءاً قديماً معهوداً ـ وهو أن موت واحد أو أكثر من الناس أفضل من أن يترك العالم للفوضى . وكان الفقهاء المتواطئون(٧٣) قادرين بشيء من مهارة التفسير أن يجدوا سنداً سماوياً لهذا العمل من الآية القرآنية التي تقول في سياق مختلف تماماً : « والفتنة أشد من

(٧٢) لم يصدر مثل هذا القانون عن السلطان محمد الفاتح بل، كما أثبت الباحث التركي المعاصر علي همت بركي الأقسكي (رئيس محكمة النقض سابقاً في استنبول)، نسبة مجموعة القوانين هذه المعروف بقانون نامه السلطان محمد إلى السلطان المذكور باطل ، وإنه في شكله المطبوع إما مزور أو مدسوس عليه . وهكذا ينهار هذا الكلام . والذي أشاع صدور مثل هذا القانون من السلطان الفاتح هو المؤلف النمساوي هامر في أواخر القرن الثالث عشر (وانظر في ذلك كتاب علي همت المذكور ص ١٩٩ ـ ٢٠٦) .

(٧٣) يظهر المؤلف هنا تعصبه ضد الإسلام ، فيشرك الفقهاء في أعمال السلاطين ولا يقول لنا كيف ومتى تمّ هذا التواطؤ ؟ وكان الفقهاء الأتراك أبعد من ذلك وهم الذين منعوا السلاطين في أوقات مختلفة عن التنكيل بالمسيحيين القاطنين في الأناضول لكونهم من أهل ذمة الإسلام . كما يتجاهل المؤلف عن قصد أن مثل هذه الأعمال الشنيعة في سبيل الاحتفاظ بالحكم أو استقراره ، من سمل العيون ، واستخدام الخصيان في الحريم وقتل الإخوة قد تعلمه الخلفاءالعباسيون والسلاطين العثمانيين من أباطرة بيزنطة

القتل » (سورة ٢ ، الآيتان ١٩١ و ٢١٧)[٧٤] .

وظل نظام قتل الإخوة يتبع من قبل السلاطين لمدة قرن ونصف قرن منذ فتح القسطنطينية . وعند اعتلاء كل سلطان جديد العرش ، كان إخوته الباقون يخنقون بوتر من الحرير ـ طريقة خاصة لإعدام الشخصيات الجليلة التي لا تستحسن إراقة دمائها . ـ ويتحدث زوار تركيا الأوربيون ـ العارفون للقتل الملكي وغير المدركين بتنفيذه طبق القانون ـ بفظاعة هذا القانون الذي حفظ الإمبراطورية العثمانية ، مهما كان الأمر ، من المنازعات والحروب العائلية التي كانت تسبب المشاكل الكثير في غيرها .

وفي سنة ١٥٩٥ م أمر السلطان محمد الثالث ، عند اعتلائه العرش ، بإعدام أخيه التاسع عشر ، وأيضاً ، حسبما قيل ، باعدام خمس عشرة من الجواري المملوكات . وإنه ترك عند وفاته في ١٦٠٣ م ولدين اثنين فقط ، أحمد ومصطفى . وعمرهما ١٣ و ١٢ سنة على التوالي ، وكان كلاهما من أم واحدة . وتقرر مصير السلالة هكذا على ولدين لم يتم اختبارهما ، وكان الخطر عظيماً في قتل أحدهما . فأصبح أحمد سلطاناً وأبقي على مصطفى . وعندما توفي أحمد الأول تاركاً ولداً في الثانية عشرة من عمره كأكبر أولاده . كان مصطفى هو الذي خلفه في الحكم . ومنذ ذلك الوقت اتخذت القاعدة أن وراثة العرش كانت من نصيب أكبر الأحياء من البيت العثماني . إن هذه القاعدة أفادت كثيراً رغم انها أدت في بعض الأحيان إلى صراع على البقاء في العرش مقيت . ويتميز عثمان الثاني (١٦١٨ ـ ١٦٢٢ م) ابن احمد الأول بكونه السلطان العثماني الأول الذي خلع وقتل في نتيجة ثورة جامحة .

وانتهى نظام تدريب الأمراء على الحكم كولاة المقاطعات نتيجة لقانون

---

(٧٤) ونصّ الآية الثانية : «والفتنة اكبر من القتل» من آية يسئلونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه . . الخ .

قتل الإخوة . وبدأ الأمراء العثمانيون يقضون أيامهم بدل هذا في ما يسمى بالقفص . وهو عدد من المباني في الساحة الرابعة من القصر السلطاني . وكانوا يذهبون إليه مع أمهاتهم وزوجاتهم وعبيدهم ليعيشوا بها حياة السجن الذهبي وكانوا يخرجون منها فقط ليموتوا أو يحكموا .

وليس من المستغرب أمام هذا النظام أن السلاطين الذين خرجوا ليحكموا الإمبراطورية خلال القرن السابع عشر والثامن عشر كانوا في أكثر الأحايين ضعفاء الفكر والجسم ، وبعض الأحيان فاسدين خطرين . وبتخفيف حدة هذا النظام فقط عند نهاية القرن الثامن عشر ، بدأ السلاطين الأكفاء حقيقة يظهرون من جديد . وكان هناك في نفس الوقت أناس آخرون يقومون بحكم العاصمة والإمبراطورية .

ويقول طرسون بيك ، مردداً أصداء إجماع التفكير الإسلامي المتأخر : أن الشرط الأول للملك ، العدل ، كما ينص الحديث المنسوب إلى الرسول (عليه الصلاة والسلام) « عدلُ ساعة في الحكم خير من عبادة ستين سنة » . وليس هذا تأكيداً لحقوق الرعية التي تبين وضعها قول مماثل آخر : «ستون سنة من الاستبداد خير من ساعة في عصيان الحاكم »(٧٥) . ومهما كان الأمر فان هذا القول لا يعكس الرأي المقبول عن الواجب الأساسي للحكومة . وحتى « سياست نامه »(٧٦) ، الكتاب الفارسي الشهير عن فن إدارة شؤون

---

(٧٥) لا يذكر لنا المؤلف مصدر هذا القول ، وهو كلام معارض لمبادىء الإسلام الثابتة في القرآن والسنة . والتي ذكرها المؤلف نفسه فيما سبق مثل : وأمرهم شورى بينهم (الآية) و « لا طاعة لمخلوق في معصية الخلق » (الحديث النبوي) . فالاستبداد بعيد كل البعد عن طبيعة الإسلام .

(٧٦) وهو من تأليف نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ألب ارسلان ثم ابنه جلال الدين ملكشاه ، وكان عالماً أديباً ، وهو الذي بنى عدداً من المدارس العالية في بغداد ونيسابور وهرات ، وكان أشهرها نظامية بغداد حيث درس كبار اساتذة العصر ومنهم الإمام الغزالي ، وتوفي نظام الملك في ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م .

الدولة ، المكتوب للسلاجقة العظام ، ينقل نصاً عربياً كرره كثير من الكتاب المتأخرين ، وهو أن : « العالم يمكن أن يعيش مع وجود الكفر ولكنه لا يمكن أن يعيش مع وجود الظلم » .

ولكن ما هو العدل ؟ إنه يعني عند الفقهاء المتقدمين تطبيق الشرع الإسلامي المنزّل من الله. فالإمام الغزالي حين كتابته في عصر السلاجقة العظام يجعله المحك الأول للحكم الحق او الباطل . إذ يقول: « يمكن أن يميز العدل عن الظلم بواسطة الشريعة . فيجب أن يكون دين الله وشرع رسوله غاية كل خطوة وملاذ كل رجوع » .

ومهما كان الأمر فان هذه النظرية اليهودية والمسيحية عن العدل بأنه تطبيق القانون السماوي والأخلاقي(٧٧) قد غطّتها نظرية أخرى من أصل آخر . فعند معظم كتاب السلطنات الشرقية، الذين يكتبون عن الأخلاق والسياسة ، المعنى الأساسي للعدل هو التوازن المثالي . وإن المجتمع ينقسم إلى طبقتين ، وكل طبقة لها مكان خاص ووظيفة خاصة . والواجب الأول للعدل وضع كل طبقة من طبقات المجتمع وكل فرد من أفراده في موضعه اللائق ، وهكذا يمكن الحفاظ على استقرار الدولة ونظامها . وهذه النظرية التي اقتبسها طرسون بيك من ناصر الدين الطوسي من رجال القرن الثالث عشر ترجع في أصلها إلى نظرية الفيلسوف الفارابي من القرن العاشر

---

(٧٧) ما أغرب هذا الكلام وما أبعده عن الحق ، فمتى كان القول بأن العدل هو تطبيق الشريعة او القانون السماوي نظرية يهودية ومسيحية فحسب ؟ أليس هو نظرية اسلامية أيضاً ! وما يضير الإسلام أن توجد نفس النظرية في اليهودية والمسيحية من بقايا التعاليم السماوية فيهما ، فالإسلام يشترك معهما في المثاليات الأخلاقية الكثيرة . ولكن المؤلف لغرض في نفسه حاول أن لا يذكرها إلا كنظرية يهودية ومسيحية . وينم هذا التفكير عن رواسب الفكرة الخرافية لدى المستشرقين أن الإسلام ما هو إلا صورة مشوهة لتعاليم اليهودية والمسيحية

في كتاب « المدينة الفاضلة » المقتبسة من جمهورية افلاطون ، وإنها هكذا ترجع إلى أصلها الأفلاطوني ، وكانت جد ملائمة لاحتياجات عصر كان نظامه المهلهل والمائع يخلي المكان لنظام طبقي ضيق ، كانت تتقوى فيه الحواجز الطبقية والوظيفية بسبب الاختلافات الجنسية في كثير من الأحيان(٧٨) .

كان السلاطين العثمانيون مهمتين اهتماماً بالغاً وواعياً على الدوام بالمحافظة على التوازن بين العناصر المختلفة التي كانت تتركز عليها سلطتهم . والحق أن أحد التفاسير المعقولة المقدمة من قبل أولئك الذين بحثوا في انحطاط الدولة العثمانية ومستوى كفاءتها هو الإخلال بهذا التوازن . ولكن في خلال قرون مضت حدثت ثمة تغيرات كثيرة في تركيب هذه الفئات المسيطرة وصلة بعضها ببعض .

إن هناك اختلافاً في الرأي المعاصر حول تفسير التاريخ بأنه صراع بين الطبقات ، المحددة اقتصادياً ، للسيطرة على الدولة . ومهما يكن لهذه النظرية من أهمية في تاريخ اوربا الغربية حيث كان حدوثها ونموها ، فانها لا تساعدنا

---

(٧٨) لا يليق بمؤرخ مثل برنارد لويس أن يلقي الكلام جُزافاً بهذه الطريقة . فأي نظام طبقي يقصده هو؟ وأية اختلافات جنسية أو عنصرية يريد خياله أن يخترع؟ ولعله أدرى من الآخرين أن هذا النظام الطبقي الذي يريد أن يطعن به العثمانيين زوراً وبهتاناً كان يتمثل في الحقيقة في المجتمع الأوربي عامة وفي المجتمع الانكليزي بصفة خاصة في اوربا الاقطاعية اولاً ، ثم في اوربا الصناعية ، في شكل الأرستقراطية أو طبقة النبلاء والعوام . ومن أهم المظاهر الاجتماعية والسياسية في انكلترا طبقة اللوردات (Lords) والعوام (Commoners) ، وهما تعبيران من صميم الحياة الانكليزية لم يعرفها العالم الإسلامي . وما زال هذا التقسيم الطبقي موجوداً في انكلترا ، والبرلمان الانكليزي بداريه : دار النبلاء ودار العوام لدليل ناطق على هذا . أما المجتمع العثماني فكانت فرص الرقي والتقدم فيه متاحة حتى للكثير من أولاد فلاحي البلقان حينما انصهروا في هذا المجتمع دينياً ولغوياً دون ادنى اعتبار لجنس او عنصر .

في فهم المجتمعات الشرقية . ومن الواضح انه كانت هناك طبقات اقتصادية في الإمبراطورية العثمانية ، ولكن لا توجد هناك أية إشارة عن الصراع بينها . ومهما كان الأمر فان حيازة الأملاك والتصرف فيها أمران ضعيفان وغير مضمونان إذا كانا ضد الدولة ، وإن الطبقات الاقتصادية لا تستطيع أن تلعب أي دور بارز لكونها غامضة وغير منظمة ، بل المهم في الموضوع أن الصفوة المختارة الحاكمة كانت أعظم شأناً من الطبقة الحاكمة ـ إذا استطعنا بحق تحديدها ـ وهي مجموعات صغيرة ، موصولة العلائق ، من اولئك الذين كانوا يمسكون بزمام جهاز السلطة في وظائفها اليومية بالاشتراك مع السلطة الحاكمة العليا نفسها . وكانت ثمة عدة طوائف من هذه الصفوة المختارة في مجال الإدارة المدنية والجيش لا يمكن تحديدها مبدئياً بطبقة اقتصادية ، بل بالمهارة والدور الوظيفي وطريقة التجنيد . ومعرفة تشكيلاتها ، ومنافساتها وتبادل حظوظها مهمة جداً في فهم تاريخ دولة الأتراك .

كانت الدولة العثمانية الأولى إمارة مجاهدي الثغور ، وكانت الفئة المسيطرة فيها هم أولئك المجاهدون أنفسهم . وكانت مهنة هؤلاء الذين ولدوا وتدربوا على الثغور الحرب ، ودخلهم الغنيمة ، ودينهم عقيدة الدراوشة الصوفية غير المتحجرة(٧٩) . وهم الذين كانوا المرشدين الروحيين لهؤلاء

---

(٧٩) لا ينكر انتشار بعض الأفكار الصوفية الروحانية في صفوف المجاهدين الأتراك ولكن كان دينهم الإسلام الصحيح ، إسلام الأتراك السلاجقة قبلهم بقرون في نفس الأناضول ، الإسلام الملتهب حماساًوالمفعم بالحركة والنشاط . ولو كان دينهم عقيدة الدراوشة لما قاموا بهذه الفتوح الباهرة ، وعاشوا حياة الزهد والخمول أو الفساد والتحلل والضياع .

وأين الرهبان المسيحيون القابعون في الأديرة والكنائس من أولئك المجاهدين الأبطال الذين رفعوا راية الإسلام عالية خفاقة في ربوع أوربا الشرقية . وأخرجوها من عهود الظلام . وما هو الطعام واللباس المشترك والعادات المشتركة التي يذكرها المؤلف في السطور اللاحقة ؟ أو أنه يجب أن يلقى القول جزافاً كما يشاء ! وبعض أنواع الاطعمة =

المجاهدين . ومهما كان الأمر فكان هناك شيء كثير لربط هؤلاء المجاهدين العثمانيين بالآخرين من المسيحيين المتقابلين لهم أي في المهنة وطريقة الحياة المشتركة ، والطعام المشترك ، واللباس والعادات المشتركة ، بل أحياناً صلة الدم المشترك واللغة المشتركة عن طريق الأمومة الاجبارية الناشئة عن الهجوم والأسر .

مضت قرون عديدة ، والطبقة العسكرية الإسلامية هم الأتراك . وكان المجاهدون العثمانيون على الوجه الأغلب أتراكاً في الأصل واللغة - بعضهم المغامرون وزعماء المرتزقة الذين كانوا وجدوا طريقهم نحو الحدود الغربية ، والآخرون رجال القبائل التركية المهاجرون أو المطرودون ، تحت قيادة رؤسائهم . ولكن نلاحظ بعد ذلك بقليل تطوراً هاماً ، وهو استخدام العناصر المحلية ، أي المسيحيين اليونانيين الذين اعتنقوا الإسلام وشاركوا مع المسلمين في حظوظهم . ولعب بعض هؤلاء المهتدين دوراً بارزاً بين المجاهدين[٨٠] . وكان من بين أربع أو خمس أسر النبلاء العثمانيين اثنتان على الأقل من الأصل اليوناني[٨١] .

= والألبسة والعادات مشتركة بين جميع الشعوب فهل يكون هذا دليلاً على ارتباط بعضهم ببعض ؟ !

(٨٠) ينم هذا الكلام عن تعصب ممقوت لدى المؤلف ضد المجاهدين الأتراك الأوائل ، ولقد أثبت العلامة التركي الراحل محمد فؤاد كربريلي خرافة مثل هذه الأقوال في كتابه المذكور سابقاً ، وذلك بعد دراسته القيمة للأوضاع الاجتماعية والدينية والسياسية في الأناضول قبيل قيام الدولة العثمانية ، فاكتفى بإحالة القارىء إليه . وإن ما قاله المؤلف من دور المسيحيين اليونانيين ، الذين اعتنقوا الإسلام ، في الفتوح ليس إلا ترداداً لما قاله المؤرخون الغربيون أمثال هامر وكَبِنْز (Gibbons) . وهو قول باطل كما أظهر كوبريلي بوضوح .

(٨١) هذا ما أشاعه المؤرخون الأوربيون ، ولكن يقرر فؤاد كوبريلي « أن جميع رجال الدولة البارزين في العهد الأول كانوا أتراكاً » (انظر كتابه المذكور في السابق ص ٢٢) .

وبانتشار السيادة العثمانية في البلقان ، اتصل كثير من الصقالبة والألبانيين باليونانيين ، وقرروا الدخول في خدمة العثمانيين لأسباب مختلفة . وكان المجاهدون ، بعد انتصاراتهم وفتوحهم ، أسياداً لبلاد واسعة في أوربا ، حيث كانت طبقة الأشراف المسيحية « النصف مستغربة » قد تمتعت بامتيازات تشبه الى حد كبير بامتيازات الإقطاعيين الغربيين . واستقر البعض من بين هؤلاء المجاهدين كالاقطاعيين العسكريين في الأراضي الممنوحة لهم من قبل السلاطين . ومنذ ذلك الوقت ، نلاحظ دخول عدد من الأشياء المستحدثة في النظام العسكري والاجتماعي العثماني ، والتي كانت بعضها غربية الأصل . وكان أهمها حدوث طبقة عسكرية ذات امتيازات ، المسماة عندهم بـ « عسكر » والذين كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة بفضل شرف الولادة والأصل[٨٢] .

إن المجتمع الإسلامي التقليدي رغم استبداده السياسي[٨٣]، كان يسوده مبدأ المساواة اجتماعياً . وانه لم يحدث فيه شيء قط مثل النظام الطبقي في المجتمع الهندوكي في الشرق ، أو الامتيازات الارستقراطية في المجتمع المسيحي في الغرب .

ونجد في الإمبراطورية العثمانية في عهدها الأول شيئاً مماثلا بطبقة النبلاء عن طريق الوراثة لأول مرة في تاريخ الإسلام حقاً ، اي الطبقة

---

(٨٢) انظر الهامش رقم ٨٧ فيما يأتي .

(٨٣) لا يصح تخصيص « المجتمع الإسلامي التقليدي » بهذه الصفة ، فانها تكاد تكون صفة عامة للحكم المطلق في جميع المجتمعات في تلك العصور ، وماذا يقول المؤلف عن المجتمع المسيحي في انكلترا في عهد هنري الثامن مثلاً ، بل كيف يصف المجتمعات المسيحية في كثير من دول امريكا اللاتينية حيث رأى القرن العشرين وما زال حكومات عسكرية استبدادية ؟ وماذا عن المحتمع الغربي المسيحي في ظل حكم سالازار في برتغال وجنرال فرانكو في اسبانيا ، ثم ماذا عن الحرية السياسية في دولة غربية كبرى ، اعني روسيا السوفيتية ؟

العسكرية . لا يُنكر أن العسكريين لم تكن لهم امتيازات اقطاعية او ارستقراطية في نظر القانون . إذ انهم لم تكن لهم حقوق وراثية او مستديمة في الاقطاع او الوظيفة أو المرتبة . وكان السلطان يستطيع أن يمنح أو يسحب ما يشاء ممن يشاء . ولكن كان السلاطين يمنحون ، في الحقيقة ، هذه الاقطاعات أو الوظائف عادة لأعضاء طبقة العسكريين فقط ، والذين كانوا يعتبرون من هذه الطبقة ، ولو انهم في الواقع لم يملكوا إقطاعا أو وظيفة . وكان يحافظ على تمييز واضح بين العسكريين والرعايا . فكان العسكريون المسلمون مقيدين بقوانين الشريعة كجميع الرعايا المسلمة ، ولكنهم كانوا يخضعون لسلطة قضائية خاصة ، وهي سلطة قاضي العسكر ، أي رئيس قضاة العسكريين ، وليس لسلطة القضاة العاديين . كما كانوا يخضعون في الأمور الادارية ، والمالية والتأديبية للوائح تنظيمية خاصة تصدر من السلطان(٨٤) . وضمنت لهم هذه اللوائح امتيازات وإعفاءات خاصة في مقابل الرعايا الذين كان المحظور عليهم حمل السلاح وركوب الخيل أو امتلاك الاقطاعات .

وبأن المصطلح « عسكري » كان يشير بالدرجة الأولى إلى طبقة، أكثر من الدلالة على الوظيفة يتضح بحقيقة أنه كان يشمل العسكريين المتقاعدين ، أو غير مُعينين ، ومماليك السلطان العسكريين ، وزوجات وأولاد العسكريين ، وأيضاً زوجات وأولاد أصحاب المناصب الدينية في بلاط السلطان . وكان السلطان يستطيع أن يحط بدرجة أي عسكري الى طبقة الرعية بأمره الخاص ، أو يرفع فرداً منها إلى طبقة « عسكري » كصلة لخدماته الاستثنائية . وكان كلا

---

(٨٤) لا يدل كل هذا الكلام على ما يرمي إليه المؤلف ، وهو نشوء طبقة عسكرية لا تخضع لقانون الدولة . والحقيقة أنه يوجد في كل دول حديثة أنظمة قضائية وإدارية خاصة بالجيش ولم يكن قاضي العسكر ليحكم في الجيش بغير الشريعة الإسلامية وكل ما في الأمر أنه عين للفصل في الخصومات بين أفراد الجيش بصفة دائمة ، كما هو نظام المحاكم العسكرية في الدول الحديثة .

الأمرين قليل الحدوث في الفترة الأولى . وحتى اولئك العسكريين الذين يحط من منزلتهم كانوا مع ذلك يعتبرون في مرتبة مختلفة من مرتبة الرعايا الحقيقيين . ومن ناحية أخرى كان تعيين أحد « الرعايا » في المرتبة العسكرية يعتبر مخالفاً لمنهج الامبراطورية الأساسي . وقد اعتبر التزايد في هذه الممارسة بدعة منكرة ، وانتقده كوچوبيك حين كتابته في ١٦٣٠ م كما اعتبره كتاب المذكرات العثمانيون المتأخرون أحد أسباب انحطاط العثمانيين .

وأحد الملامح البارزة للنظام ا عثماني في عهدم الأول هو أن التمييز بين العسكرية والرعية لا يقوم على مجرد أساس الجنس ولا على مجرد الأساس الديني . فكان الفلاحون المسلمون غير العسكريين وسكان المدن من آسيا الصغرى يعتبرون من « الرعية » كأمثالهم المسيحيين في أوربا تماماً . ومن ناحية أخرى كان بعض النبلاء العسكريين المسيحيين من البلقان قد سجلوا في الطبقة العسكرية العثمانية ، ومنحوا الإقطاعات من قبل السلطان . وكان هذا في أول الأمر حتى بدون اعتناق الدين الإسلامي رسمياً . وفي اوربا العثمانية في القرن الخامس عشر كانت نسبة معينة من الخيالة الاقطاعية ، ملاك الإقطاعات، تتكون من طبقة النبلاء المسيحيين . وفي القرن السادس عشر الميلادي كانوا كلهم على وجه التقريب قد انصهروا في الإسلام العثماني .

كان مجاهدو الثغور قد أسسوا دولة ، وكان الأشراف الاقطاعيون يبنون امبراطورية ، وقد أعطى نجاحهم بالذات قوة جديدة للمجتمع العثماني ، وهي قوة أولئك الذين كانوا يمثلون حضارة الإسلام العريقة . واتجه السلاطين العثمانيون إلى الشرق لمواجهة مشاكل الحكم، وإدارة الأقاليم والشعوب التي كانوا يحكمونها ، وذلك طلباً للعون والإرشاد ، كما اتجهوا الى تقاليد النهج الإسلامي القديم للحياة ، ومفسريه. وبانضمام الأقاليم الجديدة في دنيا الاسلام . هاجر رجال الدين والإدارة من الشرق إلى العاصمة الاسلامية الجديدة ، يحملون معهم المهارات والمناهج ، ومبادىء الدولة الإسلامية

القديمة . وتعبّر المدونات العثمانية القديمة ـ التي تعكّس ، بصورة عامة ، وجهة نظر مجاهدي الثغور ـ بكل وضوح الارتياب والاستياء بسبب فرض النظم السياسية والدينية القديمة تدريجياً ، فتقول مدونة تاريخية شعبية مجهولة المؤلف من القرن الخامس عشر الميلادي انه : « عندما قدم العلماء إلى الأمراء العثمانيين فانهم ملأوا الدنيا بجميع انواع الخدع . ولم يكن يعرف أحد شيئاً عن مسح الأراضي والحسابات قبل قدومهم . وعندما قدم هؤلاء فانهم نظموا الحسابات ومسحوا الأراضي ، وأيضا أدخلوا نظام إدخار المال وإنشاء الخزينة »(٨٥) .

إن الحكومة ، والقانون ، والضريبة ، والتسجيل العقاري ، والخزينة وهيئة الموظفين من أصحاب الرواتب الشهرية ، كل أنواع التدخل هذه من قبل سلطات الدولة كرهها المجاهدون الذين تعلقوا بكل شدة بحياة الفوضى

---

(٨٥) حاول المؤلف أن يطعن في المجاهدين الأتراك الأوائل ، وأتى بكلام لمؤلف مجهول كسند له ، وهو ليس إلا افتراء . وفكرة المؤلف هنا قائمة على نظرية خاطئة راجت بين المؤرخين الشرقيين والغربيين ، وهي قدوم طائفة صغيرة من الأتراك بصورة فجائية إلى الأناضول قبيل قيام دولتهم ومساعدتهم للسلطان السلجوقي في احدى المعارك ، ثم استقرارهم في بعض نواحي دولته حسب الرواية المعروفة . وإن هذه النظرية متهافتة وبعيدة عن الواقع التاريخي كما أثبته محمد فؤاد كوبريلي في بحثه القيم سبق ذكره . بل كان هؤلاء المجاهدون من اولئك الأتراك الذين قدموا مع السلاجقة في موجاتهم المتتالية منذ القرن الحادي عشر ، واستقروا في مختلف نواحي الأناضول . فلا يتصور أن يكون أمثال هؤلاء الذين عاشوا في ظل دولة منظمة تضايقوا من النظم الدينية والسياسية والمالية .

وبالاضافة إلى ذلك فان جميع المصادر تؤكد أن تنظيم الدولة العثمانية في مختلف المجالات ، المالية ، والقانونية والاجتماعية قد بدأ منذ عهد أورخان ، ثاني سلاطين آل عثمان ، في النصف الأول من القرن الرابع عشر . فكيف هذا الكلام من مؤلف مجهول بعد قرن من الزمان . ولعله من كلام بعض أولئك الدراوشة المتحللين الذين حاربهم السلطان محمد الأول ومراد الثاني ومعهما عامة الشعب التركي .

المرضية اللامبالية على مناطق الحدود ، وتوطيد دعائم الدولة الإسلامية واجههم بخطر شديد ، اي الاستقامة الدينية . فان العقيدة في الثغور كانت بسيطة غير معقدة ، ليست فيها أهمية كبيرة للمعتقدات المفروضة ، ولقانون الشريعة(٨٦) . ومن ثم كان جميع أنواع أصحاب البدع قد وجدوا ملاذاً بل ترحيباً في أراضي الثغور الحرة . وحتى كان التمييز بين المسلم والكافر قد أصبح غير واضح ، بحيث أنه قد هزّ حملة الدين الإسلاميُ القويم . إن طبقات الأشراف المسلمين والمسيحيين كانوا يخدمون في الجيش العثماني جنباً الى جنب ، وإن عقيدة صوفية غامضة خليطة أوجدت نقاط الاتصال العديدة بين الطرفين(٨٧) . ولكن مجيء العلماء والشريعة جرّ خطاً واضحاً بين دين الأسلاف القويم وبين البدع والإلحاد ، بين الإسلام وبين الكفر . وأثار هذا العمل معارضة قوية بين ضحايا تطبيقه .

إن الرواية التاريخية العثمانية تنسب دوراً خلاقاً إلى قره خليل خير الدين جندرلي(٨٨) مستشار السلطانين العثمانيين الثاني والثالث ، ومؤسس أسرة وزراء الجندرليين . . كان الجندرليون أعضاء طبقة العلماء ، وكانوا أيضاً أصحاب ثروة وراثية عظيمة مع تفهمهم لشؤون التجارة ، والسياسة ، والحكم . وبدأ هؤلاء مع الآخرين امثالهم يتّحدون في طبقة للإداريين

---

(٨٦) إن هذا الكلام ظاهر البطلان ومناقض للواقع التاريخي والمنطق ، وهو تهجم ظالم على اولئك المجاهدين الذين ما حاربوا إلا لعقيدتهم وشريعتهم ووراء سلاطينهم الذين أصبحوا حماة الدين الإسلامي أمام أطماع أوربا الصليبية .

(٨٧) إنه لاستنتاج معوج غريب لقد حارب الجنود المسلمون والهندوك والسيخ جنباً إلى جنب مع الجنود المسيحيين الانكليز في الحرب العالمية الثانية . فهل أثر ذلك في عقيدة أي واحد من هؤلاء ؟

(٨٨) جاء خير الدين هذا من الشام حسب كلام زيني دحلان في كتابه الفتوحات الإسلامية ، وعمل مستشاراً ثم وزيراً لأورخان بن عثمان . وكان عالماً فقيهاً ، كما عمل بعد ذلك لمراد الأول .

والمستشارين والقواد ، الذين كانوا يدركون المبدأ الإسلامي لدول السلالات ويخلصون له ، كما كانوا في نفس الوقت مُوالين للبيت العثماني الحاكم .

وكان أحد مظاهر الدولة الإسلامية التقليدية التي عرفها العثمانيون خدم القصر من المماليك . ولخص طبيعة هذا النظام وغايته أحد الزوار الانجليز لتركيا في القرن السابع عشر . فبعد أن وصف كيف أن الشبان المسيحيين من الأسر المسيحية « يؤخذون في الحرب أو يستقدمون من بلاد بعيدة » ، ويدربون ويثقفون « للمناصب الجليلة في الإمبراطورية » قال :

السياسة واضحة جداً . لأن أولاد المسيحيين سوف يكرهون آباءهم لكون أول الذكر تثقفوا في ظل مبادىء وتقاليد أخرى ، أو لمجيئهم من مناطق بعيدة. وهم لا يستطيعون أن يكتسبوا صداقة في وسطهم الجديد وهكذا فانهم لا يجدون أية صلة منذ دخولهم المدرسة وحتى وصولهم إلى الحكومة (بأي واحد) ، ونتيجة لذلك فسوف لا يعتمدون على مصالحهم بل على مصالح « سيدهم العظيم » الذي يربّون له وتجبرهم الضرورة أن يكونوا مخلصين له .

إن إحدى مشاكل الحاكم المطلق هي الحفاظ على سلطته المطلقة ، تجاه القيود التي تُفرض عليها ، أو الأخطار التي يمكن أن تواجهها من قبل طبقة حاكمة متمكنة تمكناً مباشراً . وحتى عندما لا توجد هناك طبقة الملاك القوية اقتصادياً ، يمكن أن تنجح صفوة مختارة من العسكريين البيروقراطية في الوصول إلى مركز الصدارة الفعلية ، وربما الوراثية . وإن منع تكوّن مثل هذه الصفوة المختارة ، أو إذا وجدت فابقائها تحت مراقبة فعلية كان هدف الكثيرين من الحكام المستبدين . ولأجل الوصول إلى هذا الهدف ، كان الحاكم المستبد يحتاج إلى طائفة من الناس ليست لهم جذور أو ولاءات خارج خدمته ، ويكون ترفيعهم إلى المكانة العليا لا لمنصبهم ولا لشرف ولادتهم ولا لمرتبتهم بل لإرادته فقط ، حسب ارتباطهم به بروابط المصلحة والولاء .

ووجد الحكام ، في مجتمعات مختلفة ، طرقاً مختلفة لتجنيد مثل هذه

الطبقة من وكلائهم والمحافظة عليها . ففي إيران القديمة ، وفي الصين ، وأحياناً في روما وبيزنطة شكل الخصيان طبقة من الإداريين ، بل وُجد الجنود الذين تمكنوا لعدم وجود الطموح العائلي عندهم ، من خدمة مثل هؤلاء الحكام ضد طبقة الأشراف العريقة دون أن يكوّنوا طبقة جديدة بأنفسهم . وفي أوربا كانت الكنيسة تهيء للملك رجالاً من أصحاب الكفاية والعلم والطموح الذين كانوا يستطيعون أن يقوموا بخدمته بعد أن جعلوا أنفسهم خصياناً في حب الربّ (حسب زعمهم) ، وهم يتمتعون بنفس المرتبة . وطريقة أخرى لذلك كان تجنيد رجال من أصل متواضع أو اجنبي في مناصب الدولة ، ومنعهم بأن يصبحوا طبقة ادارية وراثية ، وذلك عن طريق التجنيد المستمر المتجدد . وربما اتخذ نظام الامتحان الصيني الشهير لخدمة هذه الغاية لمدة ما . وأنجع مثال لهذه الطريقة ، بدون شك ، هو جيش المماليك الإسلامي ودولة المماليك الإسلامية .

إن المماليك السياسيين والعسكريين ليسوا غير معروفين في الإمبراطوريات القديمة. ويبدو أنهم كانت لهم بعض أهمية في ايران في عهد البارثيين parthıans . ومهما كان الأمر فان نظام حكومة المماليك قد اكتسب أعلى درجات التطور والامتياز في شكل دولة اسلامية في القرون الوسطى . ويعزو المؤرخون المسلمون إنشاء أول جيش للمماليك إلى الخليفة العباسي المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م/٢١٨ - ٢٣٢ هـ) بن هارون الرشيد . وقيل أنه أخذ في جمع المماليك الأتراك حينما كان أميراً ، وحصل منهم على عدد ملحوظ . وبعد اعتلائه عرش الخلافة، أضاف إليهم آخرين كثيرين ، وكـوّن منهم كتائب حرسه ، واتبع معظم خلفائه هذه الطريقة .

وفي آسيا الصغرى ، عرف نظام المماليك في عهد سلطنة السلاجقة وعهود بعض الإمارات التركية القديمة ، وفي وسطها وشرقها . ولم يوجد هذا النظام كما هو المتوقع ، بين مجاهدي الثغور الأحرار . ولا شك أن إدخال هذا

النظام في الحكومة العثمانية بدعة تنسب حسب الرواية التاريخية للمجاهدين إلى تأثير المفسرين الدينيين من الشرق . فحسب رواية أقدم المدونات التاريخية (التركية) جاء عالم من قرمان(٨٩) ، يدعى قره رستم وأشار إلى جندرلي خليل ، قاضي العسكر آنذاك ، أن نصيب السلطان يضيع ، لأن الحاكم له خمس الغنائم حسب كلام الله ، ويشمل ذلك ، الأسرى الذين يأسرهم المجاهدون . وأخبر القاضي السلطان مراد بذلك . فقال أن أمر الله يجب أن يطاع . ويصور المؤرخ استيائه الواضح بقوله : « أن هذه البدعة كانت عمل جماعة من الفقهاء » . فكان يؤخذ للسلطان واحد من كل خمسة أسرى .

جُمع كثير من الشبان وأتى بهم إلى السلطان . فقال خليل : « لنسلّمهم إلى التركمان كي يتعلموا اللغة التركية ، ثم نجعلهم جنوداً » . وهكذا فُعِل كان هناك كثيرون منهم كل يوم ، وكلهم أصبحوا مسلمين . وعلمهم التركمان لبضع سنوات ، ثم أتوا بهم إلى الباب(٩٠) . وأعطوهم الطواقي البيض(٩١) ، ودعوهم باسم يني جري(٩٢) (Yeni Cheri) أي الجند الجديد

---

(٨٩) الدولة الكبرى في جنوب وسط الأناضول في القرن الرابع عشر الميلادي . عاصمتها قونية ، وكانت وريثة لدولة سلاجقة الروم التي انهارت أمام ضربات المغول في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

(٩٠) أي مقر السلطان . وكلمة الباب تستعمل كناية في اللغة الفارسية والتركية لدار الحاكم أو الملك . ومنه استعمال « الباب العالي » . بمعنى مقر الحكومة العثمانية .

(٩١) كان هذا لباس رأس جيش المشاة الأول المعروف بـ « يايا » الذي شكل من منظمة الأخيان الدينية الاجتماعية التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته إلى تركيا في عهد أورخان .

(٩٢) وهذه الكلمة التركية مرسومة في المصادر العربية القديمة كتاريخ الاسحاقي وتاريخ ابن زنبل وزيني دحلان مرة : « يكيجرى » ، واخرى « يني جرى » حسب الرسم التركي في الأولى وحسب النطق في الأخرى . وتكون حسب الرسم العربي الحديث « يني تشرى » . ولكننا أثبتنا الرسم التركي حسب النطق . والإنكشارية محرف من هذا .

وهكذا نشأ الجيش الشهير الذي عرفته أوربا باسم Janissaries (أي الإنكشارية) .

كان المستشارون الدينيون للسلطان قد أدخلوا باسم الله القانون . ونظام الضرائب ، وخمس الحاكم الأعلى ، وفرقة مماليك السلطان . ولم يكن الأتراك حينذاك عبيداً بل مالكي العبيد . إذ أصبح أتراك الأناضول منذ زمن مضى شعباً مسلماً يحميهم القانون والتقليد من أن يُتخذوا عبيداً، ولكن بديلاً عملياً كان قريب المنال . فكما كان مجاهدو الثغور المسلمون (العرب) على الحدود الإسلامية في آسيا الوسطى قد أسروا الأتراك الوثنيين قبل قرون ، فهكذا حارب الأتراك المجاهدون على الثغور الغربية ضد أعدائهم المسيحيين ، وعاملوا أسراهم حسب الشريعة الإسلامية كما تعامل الغنائم . وشكل السلاطين العثمانيين مثل الخلفاء المسلمين وأمرائهم في بغداد وايران فرق المماليك الأجنبية ، ولكن من أسراهم المسيحيين هذه المرة .

ومهماً كان الأمر ، فكان التجنيد من الأسرى غير متواصل وغير مُرضٍ ، وكان إدخالهم في الجيش غير منظم . والجنود البالغون الذين حصل عليهم بهذه الطريقة لم يكن انصهارهم في بوتقة الجيش الإسلامي سهلاً كما كان انصهار الشباب البرابرة الذين شكلوا فرق المجندين في جيوش المماليك القديمة . وطبق العثمانيون في أواخر القرن الرابع عشر[٩٣] نظاماً جديداً ، أي نظام « ديو شيرمة » أو ضريبة الغلمان ، والتي كانت تجبى من سكان القرى المسيحية للتجنيد في الجيش العثماني وخدمات الدولة . ومهما كان الأمر ، فان هذا النظام المشكوك في شرعيته في القانون الإسلامي ، قد أصبح نظاماً عثمانياً مقبولاً ، ولم يزل يعمل به حتى القرن السابع عشر الميلادي ، وربما أطول من ذلك .

---

(٩٣) ويقرر فؤاد كوبريلي في كتابه المذكور (ص ٢٢) أن هذا النظام لم ينشأ إلا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي .

وخدم هذا النظام هدفاً مزدوجاً . فمن ناحية ضمن تزويد الدولة بالعدد الكافي من المماليك لسد حاجات جيش السلطان وقصره ، ومن ناحية أخرى استُخدمت طاقات الروملي في سبيل الدولة العثمانية . فكان الجباة الخصوصيون يسافرون كل خمس سنوات في طول الروملي وعرضها ، وفيما بعد في الأناضول ايضاً . وكانوا يختارون الأولاد لـ « ديوشيرمة » ثم كان هؤلاء الأولاد يحوّلون إلى الإسلام ، ويعلَّمون اللغة التركية . وكانت طريقة ذلك في كثير من الأحيان أنهم كانوا يوضعون تحت رعاية أعضاء طبقة الفرسان الإقطاعيين أو طبقة السباهية كحشم وضباط لهم . وكانوا يرسلون فى مرحلة مبكرة إلى نقطة التجمع حيث كانوا يعينون من قبل هيئة التعيين إلى شُعب مختلفة في خدمة القصر السلطاني ، ويصبح معظمهم ضباط الصف العسكريين ، ويترقون في النهاية إلى جيش الإنكشارية أو إلى فرع آخر للجيش النظامي الذي تصرف لجنوده رواتب منظمة .

وكان الممتازون منهم يبعثون إلى مدرسة القصر لتخريج رجال البلاط ، حيث بعد تربية طويلة ودقيقة كانوا يصبحون من رجال القصر السلطاني ومن الجديرين بالتعيين في أرفع مناصب الحكومة ، والتي كانت حاجات معظمها حتى منصب الوزارة تلبّى عادة من هذا المصدر . وبهذه الطريقة الوحيدة جندت الفرق الإنكشارية حتى القرن السادس عشر . ولم يستطيع أي مسلم حر الولادة أن يدخلها ، حتى وأولاد رجال القصر هؤلاء كانوا معدين عنها بكل شدة .

وكان السلطان بواسطة نظام « ديوشيرمه » ـ بالاضافة إلى المماليك الذين كان يحصل عليهم بالشراء أو الجزية ـ قادراً على أن يجمع لديه عدداً كبيراً من الجنود المدربين ، ومن الإداريين الذين لم يكن ولاؤهم إلا للجيش والبيت الحاكم . وكان هذا النظام يمنع في نفس الوقت تكوّن طبقة وراثية من الحكام .

وكانت مؤسسات المماليك العسكرية تعرف بـ قپوقلو (Kapi Kulu) أي عبيد الباب ، وذلك لبيان صلتهم بالسلطان ولتمييزهم من الجنود الإقطاعية الأحرار . ومن الجدير بالذكر بهذه المناسبة أن هذا الرق كان سياسياً أكثر من أن يكون قانونياً ، فإنهم رغم كونهم عبيداً في السابق كانوا يتمتعون بحقوق الرجال الأحرار في أمور الملكية والزواج والمكانة الشخصية . ولم يكونوا يعاملون كعبيد في المعنى القانوني . وعلى كل حال فانهم كانوا يعتبرون ملكاً للسلطان ، وكانوا هم أنفسهم وحياتهم وما يملكونه ، كان كله تحت تصرف السلطان .

وكان هنالك اختلاف واضح بين مصالح « عبيد الباب » ومصالح طبقة الأشراف ، وانتصر أول الذكر لمدة طويلة على الفريق الآخر ، ولكن لم تكن الطبقتان متميزتين ومتباعدتين دائماً . ففي الفترة الأولى من تاريخ العثمانيين كان كثير من السباهية (الخيالة الإقطاعية) يوظفون عندهم الحشم من هؤلاء المماليك،كما دخل الكثيرون من أفراد طبقة المماليك في سلك طبقة الأشراف الإقطاعيين ، وتمتع كلاهما بمرتبة الطبقة العسكرية . وقد عدل بمرور الزمن نظام الإقطاع بحيث قويت قبضة السلطان حتى على فرق الفرسان الإقطاعيين . وفي نهاية القرن الخامس عشر ، كانت الأسر الأرستقراطية القديمة بدأت تفقد تأثيرها ، وأصبح المماليك مسيطرين على كل من الحكومة الإقليمية والمركزية . وقد ازدادت هذه العملية تحققاً باستعمال الأسلحة النارية المتزايد الذي زاد بدوره في أهمية فرق المماليك العسكرية المحترفة النظامية ، وقلل من أهمية فرق الفرسان الاقطاعيين . وفي حكم سليمان القانوني عندما كان النظام العثماني القديم في ذروة رقيه كانت جميع العناصر المتنوعة للطبقة الحاكمة قد دُمجت في مؤسسة للحكم موحدة مركزية تحت الإشراف المطلق للحاكم الأعلى أو السلطان .

وفي نوفمبر سنة ١٥٥٣ م شاهد الرحالة الانجليزي انطوني جنكينز ـ

الذي كان آنذاك في سوريا ـ السلطان سليمان القانوني ، وهو سائر مع جيشه في كامل الأبهة في طريقه لمحاربة إيران ، فوصف دخوله في حلب بهذه الألفاظ :

وسار هناك أمام « السيد العظيم »(٩٤) (Grand Signior) المدعو بالترك العظيم ٦ آلاف سپاهي في ملابسهم الحمراء ، وهم الفرسان الخفاف الأسلحة وعظيموا الشجاعة .

ثم سار عشرة آلاف رجل يُدعون نورْتن Nortans (أورطه ؟)(٩٥) ، وهم مماليك الترك العظيم ، وكانوا في ملابس صفراء من المخمل وعلى رؤوسهم الطواقي من نفس القماش على الطراز التتري ، طولها ذراعان ، مع عباءة من نفس اللون حول أكتافهم مرصعة ترصيعاً جيداً ، وأقواسهم في أيديهم على طريقة الأتراك .

وسار بعد هؤلاء أربعة قواد يدعون في التركية بـ « سنجاق » في ملابس المخمل القرمزية ، وتحت راية كل واحد منهم اثنا عشر الف رجل مسلحون تسليحاً جيداً ، وعلى رؤوسهم خوذات ، يسيرون بأقدام منظمة ، وسلاح صغير مربوط في اوساطهم يدعى في لغتهم بـ سيميترو(٩٦) Simittero .

وجاء بعدهم ستة عشر الف إنكشارية الذين يدعون بمماليك السيد العظيم ، وهم مشاة ، وكل واحد يحمل بندقيته(٩٧) (Harquebushe) التي هي

---

(٩٤) هذا هو اللقب الذي اشتهر به السلاطين العثمانيون في الكتابات الأولى في تلك العصور ، ويبدو أن ملوك البندقية وجنوا هم الذين أطلقوا عليهم هذا اللقب .

(٩٥) لم يفهم المؤلف معنى هذه الكلمة في نص انطوني جنكنز فتركها كما هي وفسّرها بكلمة أورطة التركية على وجه الاحتمال ، وأورطة معناها الفرقة . والظاهر أن هؤلاء هم فرسان الخاصة غير فرسان الاقطاعية أو سباهية . وكانوا مرتبين في ست فصائل بأسمائهم التركية الغريبة ، وفي ملابسهم الفاخرة .

(٩٦) وأصلها كلمة « شمشير » الفارسية بمعنى السيف ، ودخلت بواسطة التركية في اللغات الأوربية وتكتب في الانكليزية الحديثة Scimitar بمعنى السيف الشرقي المعوج أو الخنجر المعوج .

(٩٧) املاؤه الانكليزي الحديث Arquebus ، وهو سلاح ناري شبيه بالبندقية وكان =

بمثابة حارسه. وكلهم في ملابس السلك البنفسجي اللون ، ولهم لباس رأس غريب يسمى كوكولْسيا[٩٨] (Cuocullcia) وهو بالشكل الآتي : الجانب الداخلي مصنوع على هيئة طاسة الرأس من المخمل الأبيض وله طرة معلقة إلى الأسفل من الطرف الخلفي على هيئة المقنعة (Hood) الفرنسية ، وهو في نفس لون الملابس ، وفي الجانب الأمامي من طاسة الرأس ، ومن وسط الجبهة تماماً قائمة عامودية (في مقياس زراع) من الفضة ، عليها ترصيعات ذهبية ، وتطعيم بالاحجار الكريمة ، وعلى رأس هذه القائمة خصلة كبيرة من الريش التي تتحرك إلى خلف وإلى أمام بكل روعة عندما يمشي صاحبه .

وبعدهم،جاء ألف من خدم الشرف، وهم في ملابسهم من القماش الذهبي نصفهم يحملون البنادق (Harquebushes) والنصف الآخر يحملون الأقواس التركية مع جعاب السهام ، وهم يسيرون بنظام بديع ثم جاء ثلاثة رجال مسلحون تسليحاً جيداً ، وفوق دروعهم جاكتات من الطراز التركي اي من جلد الفهود ، وعلى رؤوسهم الخوذات ورماحهم مشرعة وعلى أطرافها من جهة السنان ذنب حصان ، مصبوغ باللون الأحمر ، والذي هو شعارهم ، وهؤلاء هم المدافعون عن شخص الترك (السلطان) .

وجاء بعدهم سبعةمن خدمالشرف في ملابسهم من القماش الفضي على سبعة جياد بيض عليها جلال من الفضة ، مرصعة بالأحجار الكريمة كالزمرد والماس واليواقيت الغالية جداً .

ثم جاء بعدهم ستة من خدم الشرف الآخرون، لابسين الملابس الذهبية، وكل واحد منهم يحمل قوسه في يده ورمحه (Fawchine) من الطراز التركي بجانبه .

وبعد هؤلاء مباشرة جاء الترك العظيم بنفسه في فخامة وابهة عظيمتين ، تشاهد في ملامح وجهه وحركاته امارات العظمة الفائقة . وعلى جانبيه خادمان

= يركب على ثلاث قوائم صغيرة بكلاّب أو بغير ذلك . وكان من أسلحة الانكشارية الخاصة في ذلك العهد . وترجمه اسماعيل مظهر في قاموس النهضة بالمركُوب .

(٩٨) ولعله تحريف لكلمة « قلباق » في هذا النص القديم باملائه الغريب . وهو نوع من الطواقي الطوال عرف استعمالها عند الأتراك والفرس .

في الملابس الذهبية . وكان راكباً جواداً أبيض ، وعليه عباءة من القماش الذهبيْ ، مرصعة بأحجار كريمة ثمينة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء رائعة ، يقدر طولها ١٥ ياردة منسوجة من الحرير والقطن معاً ، يشبه (قماش) كاليكت(٩٩) (Callicut) ، ولكن أرق منه وأغلى بكثير. وفوق قمة عمامته خصلة بيضاء من ريش النعامـة . وكان جواده في زينة فاخرة تناسب أبهة المظهر السلطانية .

وتبعته ست فتيات جميلات، راكبات خيولاً بيضا ، في ملابس فضية من نوع ملابس الرجال ، وعلى رؤوسهن طواقي ذهبية ، تنسدل منها شعورهن الطويلة من كل جانب ، وهي مصبوغة بلون الدم القاني ، وأظفار أصابع أيديهن مصبوغة بنفس اللون ، وكل واحدة منهن لها خادمان خصيان يسيران على جانبيها ، وفي أيديهن أقواس صغيرة على طريقة قديمة .

وبعدهن سار الباشا العظيم ، القائد العام للجيش . عليه عباءة قرمزية اللون وفوقها لباس آخر صغير ثمين جداً وحواليه خمسون جندياً من الإنكشارية المشاة من حرسه الخاص . وكلهم في ملابس قرمزية ، ومسلحون بنفس الأسلحة التي يتسلح بها حرس « الترك العظيم » .

ثم تبعه ثلاثة باشاوات آخرون ، وخلفهم جنود مشاة من المماليك وعددهم ثلاثة آلاف شخص .

ثم جاءت كتيبة من الفرسان الشجعان جداً . ومسلحون تسليحاً جيداً وعددهم أربعة آلاف فارس .

وعسكر كل هذا الجيش الآنف الذكر ، البهي المنظر ، والبالغ عدده ثمانون ألف وثمانية آلاف رجل خارج مدينة حلب . ونزل « السيد العظيم » نفسه في المدينة ، في قلعة حسنة تقع فوق تل عال ، يجري تحت أسوارها نهر واسع يتفرع من نهر الفرات الشهير .

وتقدم بقية جيشه عبر سلسلة جبال ارمينا الي تدعى الآن جبال كامارى

---

(٩٩) مدينة على الساحل الغربي للهند ، واشتهرت في عهدها الإسلامي بصناعة قماش دقيق (الشاشية) من القطـن ، غاية في الجودة والرقة واشتهر باسم هذه المدينة .

(Camarye) ، وهي على مسافة أربعة أيام من حلب . وأصدرت الأوامر لبقائه هناك حتى قدوم « السيد العظيم » مع الجيش المرافق له الذي كان يتجه نحو ايران لمحاربة الصوفي الكبير(١٠٠) وهكذا فجميع جيوش «السيد العظيم» بشمول الجيش الذي عبر الجبال وعسكر هناك والجيش الذي رافقه إلى حلب ، من الفرسان والمشاة وأصحاب الجمال والمؤن كانت تبلغ ثلاثمائة ألف رجل .

وإن عدد الجمال التي كانت تحمل الذخائر والمؤن للجيش المذكور مئتين ألف .

(١٠٠) يقصد بالصوفي الكبير الشاه طهماسب الصفوي بن اسماعيل الصفوي . والشاه اسماعيل مؤسس هذه الدولة كان من اسرة صوفية وينتسب إلى جده السادس صفي الدين اسحاق الأردبيلي (المتوفى ٧٣٥ هـ) الذي كان شيخ طريقة صوفية في أذربيجان وامتزج التصوف والسياسة في حياة هذه الاسرة منذ بداية القرن الخامس عشر . وبعد صراع طويل تمكن اسماعيل من تأسيس دولة في اوائل السادس عشر ، وضم مناطق ايران كلها في دولته الفتية .

٤

القصر والحكومة

بعد ثلاثة أسابيع من سقوط القسطنطينية ، غادر السلطان محمد الفاتح عاصمته الجديدة إلى أدرنه حيث قضى بضعة أشهر في قصره الجديد بناه بها . وعاد بعد سنة إلى القسطنطينية ، واتخذ قصراً بُني على تل المدينة الثالث في وسط المدينة مقر إقامة له ، وذلك في الموقع الذي بُني فيه فيما بعد مقر نظارة الحرب (الوزارة الحربية) ، العثمانية ، وهي حالياً جامعة استنبول . وقرر السلطان بعد حوالي اثنتي عشر سنة من الفتح تشييد قصر جديد له ، في موضع منعزل ، حيث متسع من المكان لسكن الأسرة الملكية المتكاثرة ، وتوابعها المتنوعين . وقد اختار له اللسان الذي يخرج نحو البحر بين القرن الذهبي وبحر مرمرة ، موقع اكروبول البيزنطي . ومنذ ذلك الوفت عرف هذا القصر بسراي بورنو أو نقطة سراجليو (Seraglio Points) (في الاستعمال الأوربي) .

إن كلمة « سراي » فارسية الأصل وتعني المنزل أو القصر . وتعني في الاستعمال العثماني مجموعة المباني المشيدة في القصر الإمبراطوري من بلاط ومنازل لأعضاء الأسرة المالكة وموظفي شئون القصر . وتحدد الاشتقاقات الأوربية للكلمة ـ أي سراجليو ، وسرايل ـ اطلاقها في الغالب على الجزء

الذي كانت تعيش فيه الأسرة المالكة ، والذي استجلب انتباه الزوار الأوربيين بوجه خاص ، اي منازل الحريم . أما الاستعمال التركي فلا يعرف مثل هذه الحدود ، ويطلق لفظة السراي على القصر بأسره ، لا على قسم منه .

وبدأت أعمال بناء القصر في حوالي سنة ١٤٦٥ م وانتهت في سنة ١٤٧٨ م ودعي هذا القصر باسم القصر الجديد ، وذلك في مقابل القصر القديم على التل . ومهما يكن فانه عرف على وجه العموم باسم البوابة البحرية المحصنة القديمة في هذا الركن أي طوب قبو أو باب المدفع . وظل سراي طوب قبو مقر سلاطين العثمانيين حتى القرن التاسع عشر ، ثم انتقلوا الى قصور جديدة في أمكنة أخرى . ومنذ ذلك الوقت نشأ الاستعمال الخاطىء ، المؤدي الى الالتباس ، بتسمية طوب قبو أو القصر الجديد بالقصر القديم . وذلك في مقابل القصور الجديدة التي كان قد انتقل اليها السلاطين ودمّرت سلسلة من الحرائق ـ وخاصة الواقعة في عام ١٥٧٤ م و١٦٦٥ م ١٨٦٢ م ـ جزءاً كبيراً من المباني الأصلية في هذا القصر ، والتي استبدلت بمباني جديدة . وعلى كل فيبدو أن التخطيط والتقسيم الأساسي لم يطرأ عليها اي تغيير جدير بالذكر .

كان القصر العثماني محل انتباه مثير للأوربيين . ولقد كتبت أوصاف كثيرة له ، تختلف في الدقة والصحة ، لتزويد المستطلعين والفضوليين بالمعلومات . وقليل جداً منها ، يبدو مبنياً على اطلاع مباشر. وكتب أحد هذه الأوصاف شخص يسمى Domenico Gerosolomitano ، وهو حاخام من القدس اعتنق الدين المسيحي في ما بعد ، وخدم كطبيب خاص لمراد الثالث . ولعل وصفه ـ غير المطبوع الآن ـ أساس الأوصاف الكثيرة التي سطرها الكتاب الأوربيون من القرن السابع عشر . وأحد الأوصاف القديمة وأحسنها ما كتبه Ottaviano Bon سفير جمهورية البندقية في استنبول من ١٦٠٦ م إلى ١٦٠٩

م . ورسالته المعنونة بـ « وصف سيراجليو السيد العظيم » اقتبسها وترجمها إلى الإنجليزية معاصره روبرت وِدَرْز Robert Withers الذي أمضى بعض الوقت في دار السفير الانجليزي باستنبول . ويستهل الوصف ببيان تفصيلي عن الأسوار المحيطة بسيراجليو .

إن سيراجليو حيث يسكن السلطان مع حاشيته ، يحيط به سور عال قوي ، عليه عدة ابراج للمراقبة . ويقدر انه ثلاثة اميال ايطالية في محيطه . وله بوابات عدة . ولكن البوابة الرئيسية (التي فخمة بحق) هي التي تفتح نحو المدينة وهي التي تستعمل للدحول والخروج يومياً . وتظل البوابات الأخرى مغلقة إلى أن يأمر السلطان أو أحد الموظفين الرئيسيين في سيراجليو بفتح أية منها

ويحرس هذه البوابة الرئيسية للاستعمال اليومي كتيبة من القابوجية(١٠١) الذين تبدل نوباتهم ، خلال النهار ، وكذلك كتيبة اخرى في الليل . وجميع هؤلاء القابوجية تحت قيادة ضابط يسمى قبوجي باشى (رئيس القابوجية) ويقع هناك خارج البوابة على مسافة عشر أو اثني عشر قدماً بيت صغير مصنوع من الخشب على عجلات ، ويحرس منه كتيبة من جنود الإنكشارية الذين هم يكونوا مستعدين لايقاظ من هم في الداخل في أية ساسة طارئة ، وإخبارهم مما يقع في الخارج

وثمة حجرات فخمة كثيرة في هذا السيراجليو للسكن في الفصول المختلفة من السنة ومن بين هذه الحجرات والقاعات الآنفة الذكر قاعة يجلس فيها السلطان عندما يستقبل الباشوات في ايام الديوان العام(١٠٢) كما يستقبل اولئك الذين يغادرون العاصمة في أية مهمة خطيرة ، أو وظيفة ، ويأخذون الاستئذان منه ، أو أولئك الذين يعودون إلى العاصمة بعد أن تنتهي مدة

(١٠١) معناها الحرفي أصحاب الباب ، وكان يطلق على حرس الباب .

(١٠٢) ويقصد بذلك المجلس العام أو الاجتماع العام ، غير الاجتماع الخاص . وفي قصور اباطرة المغول المسلمين في الهند كانت هناك قاعتان كبيرتان تسمى واحدة الديوان العام والأخر الديوان الخاص ، وذلك للاجتماع بالعامة والخاصة من الناس

وظيفتهم في الخارج ، وذلك لتقديم بيانات عن مهماتهم في مواضعهم المختلفة .

وثمة بنايتان كبيرتان أحدهما للخزينة الخاصة ، والأخرى للملابس السلطانية ، وهما جد جميلتان، ومبيعتان لجدرانهما السميكة والشبابيك الحديدية القوية . ولكل واحدة منهما باب حديدي وكلاهما معلقان دائماً ، أما باب الخزينة فعليه ختم السلطان .

وتوجد بوابة عظيمة فخمة عند مدخل سيراجليو ، حيث يقف تحت سقفه خمسون حارساً ومعهم أسلحتهم من الحراب والأقواس والسيوف وبعد المرور من هذه البوابة (التي يجوز للباشاوات وكبار رجال الدولة الآخرين أن يمروا بها راكبي خيولهم) يوجد ثمة فناء فسيح جداً ، حوالي ربع ميل إيطالي في الطول وكذلك في العرض على وجه التقريب . وفي الحانب الشمالي لهذا الفناء ، بالقرب من البوابة يوجد مكان يستظل فيه الناس والخيول في موسم المطر . وفي الجانب الأيمن منه مستشفى لأولئك الذين يمرَضون في القصر . ويشرف عليه الطواشي ، وتحته خدم عديدون لرعاية المرضى

وبعد المرور من الفناء المذكور هناك بوابة اخرى (حيث يترجل حتى الباشوات)، وهي أقل فخامة لحد ما من السابقة ، ولكن أبدع وأعلى بنـاءاً . وتحتها أيضاً مظلة واقية حيث حرس من القاپوچية كالاول . ثم هناك فناء آخر أقل مساحة من السابق ، ولكن أكثر جمالاً منه لحد كبير ، وذلك لما يوجد فيه من نافورات بديعة ، ومنتزهات تحيط بها أشجار الصنوبر ،ومروج جميلة خضراء ترعى وتقفز فيها الغزلان . . ولا يجوز لأي واحد (باستثناء السلطان فقط) أن يسير في هذا الفناء إلا ماشياً . ويقع على جانبي البوابة المذكورة رواقان وهما قائمان على عمد فخمة حداً ، ويقف خارجهما جنود الجاووشية[١٠٣] (Chaush) والإنكشارية والسباهية (الفرسان) في صفوف على

---

(١٠٣) چاووش (بالجيم الفارسية) معناها الرسول . وهم فرقة خاصة من الجنود كانوا يوجهون بالرسائل إلى السفارات أو إلى الأقاليم . ثم اقتصرت مهمتهم في خدمة السلطان في القصر ومصاحبته عند خروجه في العاصمة كجنود التشريفاتية وانظر في ذلـك، عـلي همـت الاقسـكي، المصـدر المـذكـور ص ١٨٥، هـامش ٢ و=

حدة ، في ثيابهم الرسمية المزركشة في المناسبات الرسمية كالاحتفال بقدوم سفير جديد لتقبيل يد السلطان .

ومن الجانب الأيمن لهذا الفناء الآنف الذكر توجد جميع مطابخ القصر ، وعددها تسعة . ولكل منها مشرفون خصوصيون مع عدد من الموظفين لمساعدتهم .

ومن الجانب الأيسر للفناء اسطبل السلطان ، حيث ثلاثون أو خمسة وثلاثون جياداً ممتازة ، يحتفظ بها جلالته للرياضة ، إذا أراد أن يسابق أو يلعب مع نبلائه من الآغاوات في سيراجليو .

وبالقرب من الاسطبل المذكور عدة مباني لإيواء موظفي الديوان . وبعد مرور مسافة ثلثي الفناء تقع القاعة حيث تعقد جلسات الديوان ، ويلاصقها بناء الخزينة المسماة بالخزينة الخارجية ، والتي تختم بختم الوزير الأعظم عند نهاية جلسة الديوان . وبجوار قاعة الديوان أيضاً ولكن من جانبها الخلفي نحو الجهة الشمالية تقع البوابة التي تؤدي الى منازل النساء ، وتدعى هذه البوابة ببوابة الملكة وتحرسها كتيبة من الطواشي السود .

وينتهي الفناء الثالث الآنف الذكر عند بوابة ثالثة تدعى بباب السلطان . ويؤدي هذا الباب الى الحجرات والقاعات المخصوصة لاستعماله الشخصي ولأولئك السادة الأشراف الذين يلازمونه ويخدمونه دائماً . ولا يجوز لأي واحد أن يدخل فيها إلا باذن خاص من السلطان (المقصود منهم كبار الشخصيات) ، ولكن اولئك الدين يخدمون في المطبخ والمشربية ، وكذلك الأطباء ، والتشريفاتية ، والخياطون فانهم يجوز لهم أن يدخلوا ويخرجوا باذن قبو آغا (رئيس الباب) الذي هو رئيس حجاب سيراجليو ، وهو المسئول عن مراقبة هذا الباب . إنه موجود هناك دائماً (لأن سكنه قريب منه) مع كتيبة من الطواشي البيض مثله حواليه ومن ثم فكل ما يقال عن الأشياء داخل هذا الباب فان معظمها بالتناقل ، وذلك لأنه لا يمكن لأحد أن يشاهدها ، أو اذا استطاع أن يشاهدها فيكون في حالة غياب السلطان عن القصر .

Gibb and Bowen: Islamic Society and the West vol 1 part ii, pp. 83. 86.

وبعد المرور من البوابة الثالثة (التي لها أيضاً مطلة واقية جميلة) تشاهد القاعة المذكورة المخصصة للمجلس العام.

وإن هذه القاعة التي تسمى بـ «الديوان العام»، قد شيدت في السنوات الأخيرة. إنها مربعة الشكل، وأربعون أو خمس واربعون ذراعاً من جانب إلى اخر، وخلفها غرفة أخرى للخدمة هناك، وأخرى عند مدخل الديوان من الجهة اليمنى، ويفصلها حاجز خشبي فقط. وثمة حجرات اخرى كثيرة غير بعيدة عنها تستعمل للأغراض الشتى. ويسمى هذا الديوان بالديوان العام، لأنه يستطيع أي شخص (يكون من أهالي البلاد أو من الأجانب) بوجه عام وبدون تمييز أن يدخله لطلب الإنصاف، أو للحصول على منحة أو للفصل في خصوماتهم ومنازعاتهم أياً كانت طبيعتها ونوعيتها وأهميتها.

إن البوابات الثلاثة التي وصفها بون (Bon) والتي تؤدي إلى المباني داخل القصر هي: الباب السلطاني، والباب الأوسط وباب السعادة. وكانت المساحة الواقعة بين الباب الأول والثاني تعرف بـ «بيرون» أي الخارج، وتشغلها ما تعرفه بالخدمة الخارجية للقصر السلطاني، وهي تنقسم إلى ست فئات رئيسية:

وكانت أولاها تتكون من رجال كانوا لثقافتهم ومرتبتهم ينتسبون إلى طبقة العلماء ورجال الدين المتخصصين. وكان من بينهم مربي السلطان ومؤدبه - وهو رجل دين يتمتع بوجاهة وتوقير فائقين -، وأئمة القصر، ورئيس المنجمين. وبما أن تعليم الطب كان أيضاً من دائرة اختصاص العلماء، فرئيس الأطباء، ورئيس الجراحين ورئيس امراض العيون لسكان القصر. وكان رئيس الاطباء أرفع مكانة من زميليه، فكان يرأس هيئة أطباء القصر، وفيهم بعض الأطباء اليهود مع الأطباء المسلمين.

وكانت الفئة الثانية تتكون من أربعة من كبار الموظفين الخصوصيين يسمون بـ «أمين»(١٠٤)، وكان كل واحد منهم، مع جهازه الإداري

---

(١٠٤) وهم حسب كلام گب (Gibb) في كتابه الآنف الذكر (part 1, pp. 84-5 Vol. 1,) خمسة =

الخاص ، مسئولاً عن مصلحة من مصالح القصر السلطاني . فكان أمين العاصمة المدعو في التركية بـ « أمين شهر » مسئولاً عن تشييد ومحافظة وصيانة المنشآت السلطانية في العاصمة ، كما كان أيضاً يقوم بوظيفة مدير القصور ويشرف على شؤونها المختلفة من صرف المرتبات ونفقات القصر ، وتوفير الطعام واللباس والحاجات الأخرى لاستهلاك من فيها . وكان جهازه الإداري يتكون من رئيس المهندسين ، ومفتش المياه ، ومدير المخازن ، والموظفين الآخرين المختصين بشؤون التموين والصيانة .

وكان ثمة أمين أخر ، يعتبر بسبب نوع عمله موظفاً في القصر والحكومة معاً . وهو « ضربخانة أمين » أي مدير دار الضرب ، والتي نقلت في القرن السابع عشر إلى بناء في ميدان القصر ، قرب الباب السلطاني . وكان الأمينان الآخران يقومان بالاشراف على مطابخ القصر وإصطبلاته .

وكانت أكبر وأهم فئة الموظفين في الخدمة الخارجية تتكون من آغاوات الركاب السلطاني (في التركية : آغايانِ ركابِ همايوني) . وكان الركاب علامة للسلطة العليا بين الأتراك منذ العصر السلجوقي . ويرجع تلقيبهم بهذا اللقب لملازمتهم للقصر السلطاني ، وللميزة التي كان يتمتع بها بعضهم ، وهي إمساك الركاب والعنان عند ركوب السلطان جواده . وكان عددهم ومكانتهم تتبدل في فترات مختلفة . وكما كان الأمر بالنسبة للأمناء فكذلك كانت وظائف بعضهم تشمل شؤوناً أخرى غير شؤون القصر .

وكان يشمل هؤلاء الآغاوات ، كما جاء في قانون نامه محمد الفاتح ، آغا الانكشارية ، وآغوات ست كتائب فرسان القصر ، وآغاوات فرق المدفعية والمدرعة . وآغاوات الركاب الآخرون الذين كانت لهم صلة مباشرة بشؤون

= أمناء ، الأربعة المذكورون هنا وآخر للمصروفات السلطانية ومنصبه « مصرف شهرياري كاتبي » .

القصر كانوا : حامل العلم (مِير علم) . رئيس حراس الباب (قابوجية) ومساعده ، مدير الاصطبلات (مير آخور) ، رئيس التدريب العسكري (چاؤوش باش) ، رئيس الذائقين (چاشنگير باش) ورئيس مدربي الصقور (چاكر باشي)(١٠٥) .

وكان هناك فئتان أخريانٌ في الخدمة الخارجية ، ولو انهما لم يكونا يشكلان عنصراً من عناصر «آغوات الركاب » وهما « متفرقة » و« بلطجية » وكانوا أول الذكر نوعاً من الحرس المختار الذين جندوا من أولاد كبار الأعيان ، وشكلوا طائفة المرافقين الشخصيين للسلطان . وهم راكبون صهوات جيادهم ومسلحون تسليحاً جيداً في كثير من الأناقة والروعة ، ولكل منهم حاشية خاصة من المماليك . وكان هؤلاء يُرسلون في كثير من الأحيان في مهمات خاصة . أما « بلطجية » (أي أصحاب الفؤوس لغةً) ، فكانوا في الأصل نوعاً من فرقة الطليعة في الجيش . وبعد فتح القسطنطينة أصبح هؤلاء حرس القصر ووضع عدد منهم في السراي القديم وعدد آخر في السراي الجديد . وشكل بلطجية طوبقبو سراي فرقة ذات امتيازات وكانت وظيفتهم تنحصر ، بوجه خاص ، في حماية الحريم ، ومنعهن من أن يُلقين نظرات غير المسموحة لهن في المجالات المحظورة عليهن . وكان هؤلاء البلطجية يلبسون طواقي خاصة ، لها « تعليقة » من كلتا الجهتين . تصنع من قماش الدنتله الذهبي ، تبدو في ظاهرها كأنها « خصلات الحب » . ومن ثم كان يُعرف هؤلاء بـ « زُلفْلُو بلطجية » ،اي رجال الفؤوس ذوي الخصلات والغمزات . وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، كان هؤلاء تحت قيادة رئيس الطواشي البيض .

---

(١٠٥) لم يكن المؤلف دقيقاً في دكر هده المناصب وترتيبه . وانظر للدقة والتفصيل ، علي همت الاقسكي ، المصدر المذكور ص ١٧٨ و ١٧٩ . و Gibb and Bowen op cit. Part II,P. 346

والبقية من رجال الخدمة الخارجية ، كانوا يتكونون من عديد من الفرق الصغيرة المتخصصة ، وبعض أصحاب الحرف . فكان بين أول الذكَر : الرماة ، وحرس المناسبات الرسمية كالاحتفالات والمواكب ، وحرس الحاشية ، والمدربون العسكريون ، والسعاة ، والمناولون ، ورجال الفرقة الموسيقية ، وحملة الرايات . وأصحاب الحرف وهم : الطباخون ، والخبازون ، والخياطون ، والإسكافيون ، والقصارون ، والصباغون ، وعدد لا يحصى من ذوي المهن ، والمتخصصين الذين يُحتاج اليهم في مختلف خدمات القصر .

وكان في الفناء الأول بين الباب السلطاني والباب الأوسط مجموعات عديدة من المباني : حجرات الحرس ومساكنهم ، حجرات الذخائر والمخازن ، وفي الزمن الأخير دار الضرب . كان هذا القسم من القصر مفتوحاً لعامة الناس . وكان مزدحماً بالناس دائماً بوجه عام . أما الفناء الثاني بين الباب الأوسط وباب السعادة فكان مفتوحاً فقط لأولئك الذين يخدمون في القصر . وكانت ساحته الواسعة المستطيلة ١٥٠ × ١٢٠ ياردة تستعمل في أغراض الاستعراض العسكري ، والمناسبات الرسمية . وكانت أهم مبانيها الخزينة وديوان خانه* حيث كان ينعقد اجتماعات المجلس السلطاني وحيث كان يستقبل سفراء الدول الاجنبية . وإن الاحتفالات التي أقيمت في مثل تلك المناسات الدبلوماسية وصفها الكثيرون ، ويمكن أن نقدم استقبال ادْوَرْد بارتون (Edward Barton) السفير الانجليزي الثاني(١٠٦) في استنبول كمثال لهذه الاحتفالات .

(*) خانة كلمة فارسية معناها ، الدار والديوان معروف ، فاصبح المعنى دار مجلس الديوان

(١٠٦) جاء هذا السمير من قبل الملكة اليزابيت في ١٥٩٣ م في عهد مراد الثالث ، وكان قبل ذلك قد شغل منصب سكرتير السفارة في عهد السمير الأول William Horborne ١٥٨٣ - ١٥٨٨ م وانظر للتفصيل Skilliter. Three letters from Ottoman sultana Safiya to Elizabeth 1, in Islamic Chanceries, edited by S M Stern PP 143-4 .

وركب سفيرنا، وهو لابس بذلة من قماش الفضة وفوقها عباءة من قماش الذهب ، يرافقه سبعة اشراف في بذل الساتان الثمينة ، وأربعون آخرون من رجاله . . . وعند نزوله من الباخرة ، اطلقت جميع مدافعها . وحضر هناك باشاوان مع أربعين أو خمسين من (حرس) الجاووشية لمرافقة السفير الى البلاط، كما (أحضرت) له وللأشراف المرافقين له الخيول المعَدة في أروع زينتها مع الخدم الأتراك ، المقررين لإمساكها حيث ينبغي النزول لهؤلاء . وسار موكب السفير ، ترافقه نخبة الشرف ، على النحو الآتي : كتيبة الجاووشية في الأول ، ثم رجال السفير ماشين على أقدامهم ، وكلهم في صفوف ، اثنين اثنين ، وأخيراً السفير بنفسه مع قائد الجاووشيه ، والترجمان ، وأربعة من جنود الانكشارية ، الذين يستخدمهم في داره عادة ليرافقوه في الخارج دائماً ووصل الى سيراجليو (على مسافة) حوالي ميل انجليزي من الشاطىء حيث مرّ أولاً من البوابة الكبيرة الى صحن واسع (يشبه الى حد كبير بالساحة أمام باب (قصر) وايت هول (White Hall) وهنا نزل مع بلائه ، وتركوا خيولهم . ومن ثم مرّ هؤلاء إلى صحن فخم آخر . . حيث كان رجال البلاط كلهم قد اصطفوا بترتيب وابهة عظيمة لاستقبال سفيرنا . وكان في الجانب الأيمن للصحن على طول امتداده رواق ذي أقواس ، يقوم على عواميد حجرية ، ويشبه الى حد كبير بالصرافة الملكية (Roiall Exchange) ، وهناك وقف معظم حرسه في صفوف من طرف إلى آخر في ملابسهم العالية ، وعلى رؤوسهم خوذات من النحاس المذهب ، تعلوها حزمة من الريش كأنها فرشاة منصوبة الى الأعلى(١٠٧) ، ووقف في الجانب الأيسر ، قاپوچية أو حرس البابا والجاووشية ، وكان عدد جميع هؤلاء حوالي ٢٠٠٠ حسب تقديري الجيد . وكان معظمهم يلبسون ملابس ذهبية وفضية ومخملية وملابس الساتان الأحمر ، ورؤوسهم مائلة نحو صدورهم مع قليل من انحناء الجسم حسب الطريقة المؤدية لتقديم التحية للسفير الذي ردّ تحيتهم بنفس الطريقة ماراً بينهم وملتفتاً إلى اليمين مرة وإلى اليسار مرة اخرى . وقاده ، بعد مروره هكذا ، بعض حرس الجاووشية إلى الديوان الذي هو كرسي العدل ، وهو في الجانب الأيسر لهذا الصحن العظيم ، حيث قدم

---

(١٠٧) في شكل خوذات الجنود اليونان والرومان قديماً .

السفير مع نبلائه ووجد فيه الوزير الذي استقبله بكثير من مظاهر المجاملة . وبعد استلامه رسالة جلالة الملكة لدولة انجلترا ، والكلام في مثل تلك الأمور التي لها علاقة بمرورنا في تلك المناطق بأمن وسلام ، أعدت المائدة في قاعة ملاصقة أخرى وأحضر خدم الحاشية طعام الغداء ، وكان يتكون من حوالي مائة صنف ، معظمه مسلوق أو مشوي . وبينما توجه السفير في رفقة الوزير إلى تلك القاعة لتناول الغداء ، تناول نبلاؤه كذلك غداءهم ، مع بقية رجال السفير من هذه الأصناف ذاتها في نفس الناحية للصحن . وكان يشرف على خدمتهم اربعون أو خمسون من الجاووشية . وهم واقفون في الطرف الآخر للتأكد من أن النبلاء يُخدمون بطريقة جيدة . وكان شرابهم الماء الممزوج بماء الورد والسكر الذي كان يحضر في القِرب من جلد الماعز ، يحملها الرجال فوق ظهورهم ويصبون منها من تحت ذراعهم بأفواهها في الأكواب حسب طلب الناس ولكن الغداء الذي أحضر بهذه الطريقة المنظمة واستمر لمدة نصف ساعة في وقار وصمت عظيمين لم يرفع بنفس التنظيم . فإن بعض مغلانس Mughlans (عجم أوغلان) من رجال المطبخ (مثل الحرس السود لجلالة الملكة) جاؤوا بطريقة غير منظمة ، واختطفوا الأطباق ، والذي لم يكف عينه الحريصة طبق واحد أخذ اثنين أو ثلاثة وجعلها في واحد . وهكذا احتطف كل شيء ونظفت المائدة مما كان عليها فجأة .

كانت قاعة الديوان أقصى ما يسمح للزائر الأجنبي دخوله في القصر باستثناء السفراء الذين كانوا يستقبلون استقبالاً رسمياً . وعبر باب السعادة كان يقع ما يسمى بـ « اندرون » اي المساكن الداخلية ، وكان أحد أقسامها يعرف « بحريم همايون » اي جناح سيدات القصر . وأحد الأجانب القلائل الذين يدعون دخول المساكن الداخلية بحيث يمكن تصديقه كان طوماس دَلـم (Thomas Dallam) الذي ذهب إلى استنبول في سنة ١٥٩٩ م لتقديم أرغون كان قد صنعه ليكون هدية من الملكة اليزابث إلى السلطان[١٠٨] .

---

(١٠٨) وهو السلطان محمد الثالث . ونجحت الملكة اليزابيث بأن تقيم علاقات ودية مع السلطانة صفية والدة هذا السلطان بواسطة وصيفة يهودية في الحريم ، وتبودلت بينهما =

دعيت في ١٢ (اكتوبر) يوم الجمعة إلى القصر ، وكذلك يومي الأحد والاثنين التاليين ، وذلك بقصد أن يطلعوني على المساكن المختصة « بالسيد العظيم » ، وذهبه وفضته وكراسيه السلطانية . وسمح لي الشخص الذي أرانيها بأن أجلس على واحد منها ، ثم سلّ ذلك السيف من غمده الذي « يتوج » به السيد العظيم ، ملكه(١٠٩) .

وبعد أن أراني أشياء كثيرة اخرى أعجبت بها ، أشار إليّ ـ بعد عبور صحن صغير مبلط بالرخام ـ بالذهاب إلى نافذة في الجدار ، ولكن لمح لي باشارته أنه لا يستطيع الذهاب داخله بنفسه . وعندما جئت هناك ، وجدت الجدار سميكاً جداً وكان فيه نافذة من الحديد قوية جداً من الجهتين ورأيت من خلال تلك النافذة ثلاثين جارية من جواري السيد العظيم ، اللائي كن يلعبن بالكرة في صحن آخر . وفكّرت عند نظرتي الأولى أنهن كن شباناً ، ولكن عندما رأيت شعورهن المعلقة على ظهورهن وفيها عقود من اللؤلؤ الصغير ، وعلامات أخرى واضحة عرفت أنهن كن نساءاً وجدّ جميلات حقاً

ولم يكن يلبسن على رؤوسهن غير كوفية من قماش الذهب ، والتي كانت لا تغطي إلا الجزء الأعلى من الرأس . ولم يكن حول عنقهن أي ربطة أو أي شيء آخر غير عقد من اللؤلؤ جميل ، وماسة معلقة على صدر كل واحدة ، وماسات في آذانهن وكانت قمصانهن شبيهة بجاكيتات الجنود ، بعضها من الساتان الأحمر ، وبعضها من الأزرق وبعضها من ألوان أخرى وكانت مربوطة بمناطق شبيهة بدنتله ، وكن يلبسن سراويل من القماطى(؟) قماش ممتاز من القطن ، أبيض كالثلج ورقيق كالماء لأنني استطعت أن أرى سيقانهن من خلالها . وكانت تصل هذه السراويل إلى منتصف سيقانهن وبعضهن كن

= الرسائل . وكان هذا هو السبب في أن تمكن صانع الأرغون هذا من زيارة قصر السلطان .

(١٠٩) النص الانكليزي هنا غير واضح : « ومعناه الحرفي السيف الذي يتوج به ملوكه » والظاهر أنه عنى ذلك السيف المتوارث عن عثمان الأول مؤسس الدولة الذي كان يربَط في وسط السلطان الجديد في احتفال رسمي في جامع أبي أيوب الانصاري عندما يرتقي العرش . وكان هذا بمثابة احتفال التتويج عند آل عثمان .

لابسات الأحذية العالية من الجلد القرطبي ، وكانت سيقان بعض الأخريات عارية، مع خلخال من الذهب في أسفل الساق ، وفي أرجلهن خفاف من المخمل في علو خمس أو ست بوصات (Inches) . وبقيت واقفاً أنظر إليهن لمدة طويلة ، بحيث أن الشخص الذي كان عاملني بكل هذا اللطف بدأ يغضب علي غضباً شديداً إذ قطب جبينه ، وضرب برجله على الأرض لكي أترك النظر إليهن ، الأمر الذي كرهته أنا ، لأن هذا المشهد قد أبهجني ، إلى حد كبير .

وخلف باب السعادة ، كان الفناء الثالث والرابع ، وفيهما عدد من الأفنية الجانبية ، ومجموعات من المباني . وحتى القرن السادس عشر الميلادي . كان يقوم بوظائف « الخدمة الداخلية » الطواشية . وكان هؤلاء فريقان : الطواشية السود ، والطواشية البيض . ولكلا الفريقين نظامه الخاص بالنسبة للأقدمية والترقية . وكان رئيس الطواشية السود يدعى بـ « قزلر آغاسي » أي آغا البنات ؛ ورئيس الطواشية البيض بـ « قپو آغاسي » ، أي آغا الباب ، ويقصد به « باب السعادة » . وكانت السيطرة والسيادة في الأول لآغاوات الطواشية البيض ، ولكنهم فقدوا هذا الامتياز منذ نهاية القرن السادس عشر ، وعانوا من الانحطاط في عددهم ومراتبهم . ففي (قسم) الحريم ، أسندت وظيفة المراقبة إلى الطواشي السود ، وفي الأقسام الأخرى « للخدمة الداخلية » أعطيت الوظائف لمن كانوا يسمون بالوصفاء . الذين شكلوا الجزء الأكبر من هيئة الموظفين بها .

وكان هؤلاء غلماناً من أصل مسيحي ، جندوا في خدمة العثمانيين بواسطة نظام « ديوشيرمة » ، وكان يطلق عليهم اسم « عجم او غلان » (أي الصبية الغرباء) . ومن المحتمل أنه كان يعني المستجدين أو « المجندين الجدد » . والذين كانوا يُختارون للخدمة في القصر يدعون بـ « ايج او غلان » (Ich Ọghlans) أي غلمان الداخلية ، وكانوا يسمون بالآغاوات عندما يصبحون كاملين لهيئة رجال القصر . وكان ايج اوغلان يعينون ، بعد فترة

من التدريب والتعليم في إحدى مدارس القصر[١١٠] ، في وظائف الخدمة الداخلية .

كان هناك ست[١١١] فئات (من الخدم) هامة ، وتعرف هذه الفئات بـ « الحجرات » (أوده) وكان ترتيبهم من الأسفل إلى الأعلى كالآتي : حجرتان ، الكبيرة والصغيرة ، حيث كان يتلقى ضباط الصف تدريباً أعلى . وحجرة مدربي الصقور ، وحجرة الحملة (أنشئت في القرن السابع عشر) ، وحجرة المؤن . وحجرة الخزينة .

وكانت الأخيرة المسماة في التركية بـ « خاص أوده » أعلاها مرتبة وأقربها إلى السلطان . وكان عدد رجالها يختلف من ثلاثين إلى اربعين ، وكان يشمل عدة شخصيات كبيرة مثل « سلحدار آغا » أي حامل السيف ، وحملة ركاب (فرس السلطان) ، وآغاوات العمة ، والمفتاح والمنديل والعطر . وكان يطلق

---

(١١٠) وكانت هذه المدارس في كل من استنبول وأدرنه بورصه .

(١١١) لقد حدد الاستاذ گِب (Gibb) ، وهو أحسن وأوسع من كتب في موضوع نظم الدولة العثمانية . هذه الفئات بأربع وهي :

١ ـ الحجرتان الصغيرة الكبيرة (بيوك وكچوك أوده لر)

٢ ـ حجرة الطعام والشراب (كيلاري خاص) .

٣ ـ الخزينة السلطانية الخاصة (خزينة همايون) .

٤ ـ الحجرة الخاصة (خاص أوده) .

وهكذا فلم تكن من بين هذه الفئآت أو الحجرات حجرة مدربي الصقور كما يذكر المؤلف وكانت الحجرتان الكبيرة والصغيرة تعتبران فئة واحدة من ناحية المرتبة وسلم الصعود والترقي ، وكانتا لمجرد التعليم والتربية . بل كانت فئة مدربي الصقور أو بالأحرى مدربي الطيور الجوارح للصيد السلطاني ، من الخدمة الخارجية وليس من الداخلية كما يذكر المؤلف . وكان رئيسهم يعرف بـ « چاكر باشي » وكان من آغاوات الركاب . (وانظر لتفصيل ذلك كتاب Gibb and Bowen المذكور Vol 1 part 1 pp. 77- 82,333- 346 .

على الأربعة الأوائل المقدمون في الرتبة لقب « آغاوات الحضرة »(١١٢) .

ووصفاء « خاص أوده » (الحجرة الخاصة) نخبة مختارة(١١٣) على رأس القمة لمنظمة واسعة ذات نظام معقد للتدريب والترقية . وكان يختار السلطان من بين هؤلاء رجالاً للتعيين في المناصب العليا في الحكومة المركزية وحكومة الولايات(١١٤) .

ويمكن أن نأخذ فكرة عن تعليم وتربية ضباط القصر هؤلاء والفرص المتاحة لهم في الحياة العملية من كلام أوتافيانو بون (Ottaviano Bon) :

> وبقي أن أقول شيئاً عن اولئك الشباب الذين يعيشون عيشة حسنة في القصر لخدمة الملك والبلاد ، والذين ينشّأون تنشئة علمية ، مع دراسة للقوانين ، وتدريبات عسكرية ، بحيث يكونون قادرين على القيام بتحمل أعباء حكم جميع الامبراطورية . ومعظمهم ، على وجه العموم ، الأسرى المسيحيون والمرتدون من المسيحية إلى الإسلام ، ويكون بينهم بعض الأتراك أيضاً .

---

(١١٢) وكان هؤلاء الأغاوات أو السادة الرؤساء حسبما جاء في القانون المنسوب إلى السلطان محمد الفاتح خمسة . وهم : قبو آغا سي ، اوطه باشي ، خزينة دار باشي ، كيلارجي باشي وآغا سراي العامرة ، وكانوا يستطيعون أن يعرضوا الأمور على السلطان شفاهياً .

وازداد عددهم فيما بعد ، وأصبحوا تسعة كما يذكره Gibb في كتابه المذكور سابقاً ، وانظر اسماؤهم هناك Vol. i part 1, pp. 339- 42 .

(١١٣) وكان عددهم أربعين ، وهم من آغاوات الحضرة وآغاوات الركاب وعدد آخر من مساعديهم أو الأغاوات الصغار .

(١١٤) ولا يظن أحد أن مثل هذه المناصب الادارية والقيادية العليا كانت تعطى للخدم والجهلاء من حملة الركاب والسيف والمفتاح والمنديل وغير ذلك . بل كان هؤلاء الرجال أكفأ الناس وأرقاهم ثقافة وتدريباً ولو عرفوا بمثل هذه الأسماء كما يدل على ذلك كلام السفير البندقي الآتي مباشرة . وانما كانت الاسماء لمجرد التشريف واظهار العلاقة داخل القصر السلطاني .

ولهم حجرات خاصة ، يدعوها الأتراك « أوده » ، ولكن يمكننا بالأحرى أن نسميها بالمدارس من حيث ما تستعمل له . وهي أربع ، تعلو الواحدة عن الأخرى بدرجة ويأتي كلهم إلى الأولى في سن الطفولة ، حيث المبدأ الأول الذي يتعلمونه هو الصمت ، ثم (يتعلمون) بالعناية أوضاع وقوفهم أمام الملك بالاحترام البالغ ، وهي : عليهم أن يحنوا رؤوسهم ، ويغضوا أبصارهم ، واضعين أيديهم مشبكة أمامهم

ثم يُبدأ بتعليمهم (ويقوم به أحد الطواشي البيض ، رئيس جميع الآغاوات والحجاب) ، فيتعلمون القراءة ، والكتابة ، والمحادثة في اللغة التركية ، كما يتعلمون الصلاة في اللغة العربية .. ويبقى هؤلاء هكذا لمدة خمس أو ست سنوات في أغلب الأحوال في هذه المدرسة ، ويظل أولئك الذين أقل ذكاءاً وأبطأ فهماً لمدة أطول .

ثم ينقل هؤلاء من هذه الأودة إلى أخرى حيث يعلمهم الأساتذة المتخصصون اللغات الفارسية ، والعربية ، والمغولية (التترية) ، كما يجتهدون في قراءة المصنفين المتنوعين ، لكي يتمكنوا من التحدث في اللغة التركية باتقان . والحقيقة أنه يوجد ثمة فرق كبير بين حديثهم وبين حديث عامة الناس .

ويبدأ هؤلاء في هذه المرحلة تعلّم المصارعة ، والرماية بالقوس ، وقذف الحربة ، والطعن بالرمح ، واستعمال الأسلحة بصورة عامة والجري وغير ذلك أيضاً .

فيقضون خمس أو ست سنوات أخرى في مثل هذا التعليم ، ثم ينقلون منها إلى « الأودة » الثالثة ، بعد أن اصبحوا رجالاً أقوياء ، ذوي كفاءة لأي عمل وفيها يتعلمون ـ دون أن ينسوا ما كانوا قد تعلموه من قبل بل بتحسينه على الاستمرار ـ ركوب الخيل ، والهجوم ، والدفاع في الحروب وأكثر من ذلك ، يتعلم كل واحد ، حسب اتجاهه ، فناً أو عملاً من باب الضرورة لخدمة الملك الشخصية .

ويقوم معلموهم الطواشي هنا بامتحانهم الدقيق في تمسكهم بالدين أيضاً . ويفحصون ، إلى حد الامكان ، دخائل قلوبهم ، ليروا إلى أي مدى

تأثر هؤلاء بدين الأتراك (الإسلام) . فانه قد يكون حان الوقت الآن ليمرّوا إلى « الأودة » الرابعة ، التي أهم الحجرات وآخرها ، والتي يُدعون فيها للقيام بواجبات عظيمة الخطر ولأجل ذلك ينبغي أن لا يترك لهم أي مجال لتذكر أنهم كانوا مسيحيين في السابق ، لكي لا يكونوا موضع خطر للامبراطورية التركية بسبب أية دسيسة أو نظرة سياسية (خاصة) .

ومن ثم يسمح لهم ، بعد جميع الفحوص الممكنة للتأكد من إيمانهم المخلص بصدق هذا الدين ، بالدخول إلى « الأودة » الرابعة ، حيث يسجلون من جديد . فجميع من في « الأودة » لا ينقلون إلى الرابعة مرة واحدة في وقت واحد . ولكن (ينقل) فقط أولئك الذين مروا من جميع الدرجات الثلاث الأول ، وأصبحوا مؤهلين للخدمة ويحفظ هناك تقارير عن كل واحد على حدة ، ترسل إلى هذه الأودة الرابعة ، لأنهم يسجلون لخدمة « السيد العظيم » مباشرة ، وتزداد مرتباتهم إلى حد ثماني آقجة (Asper) يومياً ، وتستبدل (ثيابهم) من ملابس القطن إلى ملابس الحرير ، والقماش الذهبي الغالي

والآن من بين هؤلاء الشباب من الأودة الرابعة (بعد أن يكونوا قد أتموا المدة المعينة من سني الدراسة ، وأتقنوا جميع ما ذكر من العلوم والفنون والآداب) ، يختار « السيد العظيم » آغاواته ، الذين هم « أشرافه » ويخدمونه هو فقط .

وبعد أن يمنحهم « السيد العظيم » رتباً مختلفة ، يغادرون سيراجليو ويحملون معهم جميع امتعتهم ونقدهم وأثاثهم ، ويأخذ معهم ، في كثير من الأحيان ، الشبان الآخرين من « الأود » الأخرى ، والذين يسمح لهم بالذهاب لاستعجالهم أنفسهم ولإلحاحهم الزائد ، ولعدم رغبتهم في إكمال مدتهم ، فانهم يضيعون فرصة اللطف الملكي ، ويقنعون بمرتب قليل ، وشهرة أقل لكي يذهبوا في معية هؤلاء الآغاوات .

وإن أولئك الذين يفوزون بالاختيار ، أي الذين يغادرون سيراجليو على التعيينات الآنفة الذكر ، هم يأتون حسب التقليد في الدرجة الثانية ممن سبقوهم ، فكانوا أطول مدة ولا يمكن تغيير هذا النظام إلا لحادث مشين أو بسبب سلوك سيىء يثبت عدم نجاحهم . وهكذا فهم يعرفون دائماً من هو الثاني في الترتيب ، الجدير بتحمل أعباء وظيفة عامة . بل يجري الأمر بمثل

هذا التنظيم الدقيق والتتابع المنتظم ، بحيث يعرف رجال « الأودة » الثالثة ماذا سيكون مستقبلهم لو عاشوا للاستمتاع به . والحقيقة انهم جميعاً يعيشون في الأمل ، ويرغبون في أن « السيد العظيم » ربما يتفضل عليهم بانتدابهم في الخارج ، لكي يخرجوا بأسرع ما يمكن من الخدمة الشاقة في « سيراجليو » ويدخلوا في ساحة الحكم الواسعة . . . فليس من الغريب اذن أن الموظفين الأتراك يستبدلون بسرعة زائدة ، نظراً إلى أن كل سلطان له من العدد الكبير من خدمه الخاص من يطلبون الترقية .

وكلهم يحاولون جهدهم نيل رضا « قبو آغا » لكي يكون ظهيراً ومعيناً لهم ، ولكي يستطيع ، حتى في حالة غيابهم ، بحمل « السيد العظيم » على تكوين رأي حسن عنهم ، فانهم يعرفون أن له نفوذاً كبيراً عنده ، لكونه أعلى الناس مرتبة في « سيراجليو » ، وتقربه دائماً من الملك .

وبين الباب الأوسط وباب السعادة ، كان يقع « ديوان خانه » أي دار المجلس الحكومي حيث كان يجتمع المجلس السلطاني (ديوان همايون) في قاعة القبة الشهيرة. ويصف اوتاڤيانو بون (Ottaviano Bon) هذا المجلس في الكلمات التالية :

أيام الديوان أربعة في الأسبوع : السبت والأحد والاثنين والثلاثاء . ويجتمع في تلك الايام رئيس الوزراء، والوزراء الآخرون، وكلا قاضي عسكر الأناضول واليونان (أي الروملي) ، (واللذان هما رئيسا جميع القضاة الآخرين في هاتين المقاطعتين) ، والدفتر دارون الثلاث (الذين مهمتهم جباية أموال الملك ، وكذلك دفع المرتبات إلى جميع الجنود ، والآخرين الذين لهم أية مرتبات واجبة الأداء) ، ورئيس الكتاب (الذي هو السكرتير الأول) ، ونشانجي (اي الذي يختم المراسيم والمكاتيب بختم « السيد العظيم » ، وكتاب جميع الباشوات والشخصيات الكبيرة الأخرى ، وعدد كبير من المحررين أو الناسخين ، الذين يكونون حاضرين على باب الديوان دائماً ؛ وچاووش باشى ، الذي يحمل في يده عصا فضية دائماً حال وجوده في « سيراجليو » ؛ وعدد من الچاووشية الآخرون للخدمة ، بحيث يكونوا مستعدين عند أمر الوزير لحمل أية أوامر يرسلها الوزير ، إلى أي مكان أو أي شخص ؛ لأنهم

اولئك الذين يقومون بحمل الرسائل إلى السفارات والرسائل العادية لاستدعاء رجال يطلب حضورهم أمام المحكمة ، وبحراسة المسجونين في حبسهم ، وبالاختصار تأدية جميع المهمات من هذا القبيل . ويجب أن يكون جميع هؤلاء الموظفين الآنفي الذكر من الأعلى إلى الأدنى حاضرين في الديوان عند طلوع الشمس .

وبعد أن يصل الوزير ، يجلس في صدر الديوان ، مع الآخرين ، ووجهوهم نحو الباب ، على دكة ملاصقة للجدار . وكل واحد (من الأعضاء) في موضعه حسب مرتبته يجلس من يمين الوزير الأعظم (وذلك لأن عند العامة اليسار هو المحل الأرفع . ولكن عند رجال الدين اليمين) . ومن جانبه الأيسر على نفس الدكة يجلس قاضياً عسكر ، أولاً قاضي عسكر الروملي (Gracia) لكونها أشرف وأشهر مقاطعة ، ثم قاضي عسكر الأناضول (Natolıa). وفي الجانب الأيمن من داخل الباب، يجلس الدفتردارون الثلاثة ويكون خلفهم (في الحجرة الآنفة الذكر التي يفصلها حاجز خشبي) جميع الكتبة أو المحررون الذين يجلسون على الأرض ، وأقلامهم وأوراقهم بين أيديهم . وفي الجانب الآخر (في مواجهة الدفتردارين يجلس « نشانجي » وقلمه في يده ، وأتباعه من الموظفين حواليه . وأما رئيس الكتاب ، فيقف بجانب الوزير معظم الوقت ، لأنه يأخذ منه التوجيهات في كثير من الوقائع . ويقف في وسط القاعة جميع أولئك الذين تدعوهم الحاجة المثول بين يدي هذا المجلس .

والآن ، بعد أن يجتمع الجميع ، ويأخذ كل رجل مكانه (في الديوان) يبدأ أصحاب المطالب عرض قضاياهم ، واحداً بعد الآخر (لأنهم لا يحتاجون إلى المحامين ، إذ كل واحد يستطيع أن يتكلم بنفسه ، ومع ذلك فانهم في كثير من الأحيان يطلبون مساعدة بعض الجاووشية) ، تاركين الحكم من جزاء أو عقاب للوزير الأعظم ، الذي يستطيع (إذا أراد) إنهاء كل شيء ، لأن الباشوات الآخرين لا يتكلمون بل يستمعون فقط ، إلا أن يحيل هو قضيته إليهم ليعطوا فيها حكمهم ، كما يفعل (في الواقع) كثيراً إذ أنه بعد أن يفهم جوهر القضية فقط (لإراحة نفسه من التعب الزائد) يترك القرار في معظم القضايا للآخرين . فمثلاً ، إذا كان الموضوع متعلقاً بالقانون المدني فانه يحيله إلى قضاة العسكر ؛ وإذا كان متعلقاً بالحسابات فإلى دفتردارين ، وإذا كان

عن الاحتيال (كتقليد الختم وما شابه ذلك) فإلى « نشانجي » ، وإذا كان متصلاً بالتجار والبضائع التجارية (حيث تكون ثمة مشكلة كبرى) فإلى بعض الباشوات الآخرين ، من الذين يجلسون بجانبه ، وهكذا فإنه يخفف عن نفسه بعض العبء ، وإلا فيضطر أن يتحمل كله بنفسه ، ويبقي لنفسه تلك المسائل فقط التي يراها أعظم أهمية وأثراً ، ويفعل «القائمقام» مثل ذلك تماماً في حالة غياب الوزير . ويقضون وقتهم على هذا المنوال حتى الظهر . وعند ذلك يأمر الوزير (أحد السفرجية المعين حضوره هناك) بأعداد المائدة وإحضار الغداء ، فيغادر عامة الناس في الفور .

وبعد أن ينتهي الغداء ، يقضي الوزير الأعظم بعض الوقت في البحث في الشؤون العامة ، ويتشاور (اذا تفضل ورآه مناسباً) مع الباشوات الآخرين. وأخيراً يقرر ويبتّ في جميع القضايا بنفسه ، ويستعد للمثول أمام « الملك » . وكان المتبع أن يكون هذا (المثول أمامه) في يومين (في الاسبوع) ، الأحد والثلاثاء ، وذلك لإعطاء تقرير إلى جلالته عن جميع تلك المسائل التي اتخذ القرار فيها . وعند نهاية ذلك ، يأتي « السيد العظيم » (بعد أن يكون قد تغذى أيضاً) إلى قاعة الزيارة ، وبعد جلوسه على أحد المقاعد ، يرسل « قپو آغا » (الذي يحمل في يده عصا فضية) لاستدعاء «قاضيي عسكر » أولاً ، اللذان يقومان في الفور من مكانهما ، وبعد الانحناء أمام رئيس الوزراء يغادران في صحبته « قپو آغا » المذكور ورئيس الجاووشية اللذين يمشيان أمامهما بعصيهما الفضية ، ويدخلان هكذا على الملك، ليعطياه التفصيلات عما قرراه ، ويعرفاه ما يتعلق بوظيفتهما . وبعد أن يؤذنا بالمغادرة (في ذلك اليوم) يذهبان رأساً إلى بيوتهما .

ويدعى بعدهم مباشرة الدفتردارون ، الذين يحضرون بنفس الطريقة إلى الملك ، ولكن يُسمح بالحديث لرئيس الدفتردارين فقط . وبعد أن ينتهي من الكلام ، يغادر هؤلاء ويعطى المجال للوزراء الذين يُستدعون آخر الجميع ، ويحضرون معاً في صف ، الواحد إثر الواحد ، ورئيس الوزراء على رأسهم . فيدخلون في معية صاحبي العصى الفضية المذكورين ، وبعد القدوم إلى حضرة « السيد العظيم » يمثلون كلهم في جانب من القاعة ، وأيديهم ورؤوسهم إلى الأسفل كعلامة للاحترام . ولا يتكلم أحد غير الوزير الأعظم ، الذي يعطي بياناً عما يراه مناسباً ، ويعرض مذكراته أو عرائضه

واحداً واحداً ، وبعد أن يقرأها الملك يأخذها الوزير ، وبعد وضعها في حقيبة من الساتان القرمزي يضعها مرة اخرى أمام جلالته . الذي يأمر بعد ذلك بكتابة الخط الهمايوني (اي المرسوم السلطاني) لتنفيذ ما تقتضيه تلك العرائض . وإذا لم يحتج إلى أكثر من ذلك (ولم يتكلم الباشوات الآخرون كلمة واحدة طوال هذا الوقت) ، غادر كلهم ، ويركبون خيولهم عند الباب الثاني ويذهب كل واحد إلى بيته في معية اناس من طبقات مختلفة (الذين يخدمونهم لاستدرار عطفهم) وعدد كبير من رجاله هو . وللوزير الأعظم ، بسبب مرتبته وشرفه العظيمين ، حوالي مائة چاووشية من الفرسان عادة ، واللذين يسيرون في ركابه عند عودته إلى البيت . وهكذا ينتهي الديوان لذلك اليوم . ويكون الوقت قد بلغ الساعة الثالثة بعد الظهر . ولكنهم يغادرون قبل (هذا الوقت) في الأيام التي ليس فيها موعد المثول أمام الملك . وما قيل عن رئيس الوزراء، ينبغي أن يعتبر من شأن « القائمقام » في حالة غيابه .

ومن الجدير بالملاحظة ان بعض الأحيان ، يأتي كل من آغا الإنكشارية وقبودان باشا في مجلس الديوان عندما يكونان في استنبول لتأدية بعض المهمات ولكن قبودان باشا هو الذي يذهب فقط إلى السلطان (ولا يكون هذا إلا في معية بعض الباشاوات الآخرين لإطلاع جلالته على أحوال الترسانة والأسطول ومكانه في الديوان في نفس المقعد (أي مقعد الوزراء او الباشاوات) ولكنه يجلس آخر كل الباشاوات إلا أن يكون من الوزراء ، كما هو الحال بالفعل في معظم الأحيان . ففي هذه الحال يجلس في الموضع الثالث أو الرابع حسب مرتبته في الأنتخاب . ولكن آغا الانكشارية لا يجلس في الديوان ، بل يجلس في الرواق المكشوف في الجانب الأيمن داخل الباب الثاني (للقصر) . وإذا لزم الأمر في حال مهمة غير عادية أن يدخل على الملك ، فإنه يكون أول الجميع ، وبعد عودته يجلس مرة اخرى في مكانه حتى ينتهي مجلس الديوان . وهو آخر من يغادر (القصر) من بين رجالات الدولة ، ويسير في ركابه عدد كبير من الأنكشارية و « الشوربجية »(١١٥) إلى سرايته (أي داره) حيث يسكن هو ، والكثيرون منهم معاً .

وكان أسلاف السلطان يحبون دائماً أن يحضروا (هذا المجلس) ، ولكن

---

(١١٥) طائفة من الجنود الملقبين بهذا الإسم الغريب .

هذا الرجل* يأتي أحياناً سرّاً من طريق في الطابق العلوي إلى نافذة صغيرة تطل على الديوان ، وبالتحديد على رأس الوزير الأعظم ، ويجلس هناك خلف ستارة حتى لا يراه أحد . وذلك لكي يسمع ويشاهد ما يدور في الديوان . وخاصة في مثل تلك الأوقات التي يؤذن فيها لسفير من قبل ملك كبير بالمثول في القصر ، ليراه يأكل ويناقش مع الباشوات . وكان قدومه هذا إلى النافذة يجعل الوزير الأعظم (الذي يواجه دائماً خطر قطع رقبته في حال غضب السلطان) أن يقوم بإدارة شؤون الدولة بكل عناية ونزاهة عندما يجلس في الديوان ، ولو ان يده مكشوفة لقبول الرشوة ، والعمل كما يشاء في أحيان أخرى .

وفي العهود الأولى، كان السلاطين أنفسهم يترأسون مجالس الديوان . . ولكنهم امتنعوا عن ذلك عندما بدءوا يقلدون البلاطات الملكية الإسلامية الأولى في مظاهر الأبهة وآداب الرسوم. وكان محمد الثاني أول من تخلى عن هذا الواجب ، تاركاً إياه للوزير الأعظم . وكان سبب ذلك حسب قصة يرويها المؤرخون العثمانيون المتأخرون أنه دخل أحد الفلاحين من المتظلمين يوماً إلى مجلس الديوان المنعقد ، وسأل: « من منكم السلطان ؟ عندي شكوى» وكان في هذا السؤال تقليل من شأن السلطان . فانتهز الوزير الأعظم كَديك احمد باشا الفرصة لكي يقترح على السلطان أنه يمكنه تجنبه مثل هذا الإحراج بعدم حضوره في الديوان شخصياً . ويستطيع بدل هذا أن يراقب الإجراءات من وراء ستارة أو حاجز . وبالفعل اتبع هذا النظام حتى عهد سليمان القانوني ، الذي امتنع عن حضور مجالس الديوان حتى على هذا النحو ، ومنذ ذلك الوقت ترك السلاطين هذا الأمر للوزير الأعظم الذي كان قد برز كشخصية مسيطرة على الحكومة في الإمبراطورية العثمانية ، يرأس كلا الفرعين للادارة الحكومية ، اي المدنية والعسكرية ، ولكن ليس الإدارة الدينية .

إن لقب وظيفة الوزير (العربي الأصل) له تاريخ طويل في العالم

(*) يقصد السلطان في عصره ، وهو السلطان احمد الاول (١٦٠٣ - ١٦١٧ م) .

الإسلامي ، ويرجع إلى العهود السالفة في أيام خلفاء بغداد . أما في الدولة العثمانية ، فكان لقب الوزير في الأصل لقباً عسكرياً ، يمنح للقواد العسكريين ، كما كان يمنح (في نفس الوقت) لكبار موظفي الدولة التابعين للسلطان . فكان هناك عدة وزراء ، وأولهم الوزير الأعظم الذي أصبح بالفعل رئيس وزراء الدولة . وسبق أن أطلق عليه لقب « الوكيل المطلق » للسلطان في قانون محمد الفاتح ، وكان يلقب الوزراء الأقل مرتبة « بوزراء القبة » ، لأنهم كانت لهم ميزة حضور مجالس الديوان السلطاني في قاعة القبة .

وإلى عهد الفتح*، كان رئيس الوزراء عادة من الأحرار ، يختار من طبقة الأشراف المسلمين . وأول من أصبح وزيراً من مماليك القصر كان محمود باشا ، أحد المسيحيين في السابق من البلقان . وبقي في منصبه من **١٤٥٣** م الى **١٤٦٦** م . ومنذ ذلك الوقت ، كان رؤساء الوزراء ، بدون استثناء تقريباً ، من أصل مسيحي ، جنّدوا عن طريق نظام (ديوشيرمه) ودّربوا في المدارس السلطانية والقصر .

وكانت إحدى الشخصيات الممتازة التي شغلت هذه الوظيفة في القرن السادس عشر الميلادي ، لطفي باشا ، السياسي ، الإداري ، المؤرخ الذي خدم في منصب كبير الوزراء للسلطان سليمان القانوني . وكان له ، بالإضافة إلى منصبه الرفيع في الدولة ، ميزة خاصة ذات اعتبار ، وهي كونه صهر السلطان (اي زوج اخته) .كان لطفي باشا من أصل ألباني غير معروف ، وجنّد في الخدمة العثمانية عن طريق نظام (ديوشيرمه) »،وتخرج من مدرسة القصر إلى خدمة القصر ، حيث كان على التوالي « جوقة دار » ، و« متفرقة » ، و « رئيس الذائقين » ، ورئيس حراس الباب وحامل الراية السلطانية(١١٦) .تم عينّ والي سنجاق قسطموني في آسيا الصغرى ، وترقى في

(*) يعني فتح القسطنطينية

(١١٦) كل هذه الوظائف من المناصب العليا في الخدمة الداخلية اي داخل قصر=

« الخدمة الإقليمية » إلى منصب الوالي العام لقَرمان . كما اشترك في عدة حملات عسكرية رئيسية في جيش سليم الأول بالشرق ، وفي جيش سليمان بأوربا . وعين « وزير القبة » في ١٥٣٤ م ، والوزير الأعظم في ١٥٣٩ م . وظل في منصبه هذا حتى عام ١٥٤١ م عندما أقيل منه فجأة لمحادثته زوجته « أخت السلطان » بفظاظة . وأحيل منذ ذلك الحين إلى المعاش . واستقر في ضيعته قرب ديميتوقة* حيث كرّس بقية حياته للبحث وكتابة التاريخ .

وكتب لطفي باشا عدداً من المؤلفات . منها تاريخ للإمبراطورية العثمانية إلى أيامه . وكتاب صغير آخر بعنوان « آصف نامه » اي كتاب آصف ، على اسم شخصية « العهد العتيق » (التوراة) ، الذي كان حسب الرواية الإسلامية

= السلطان . و « جوقة دار » معناه اللفظي حامل الملابس . وكانوا ٤٠ موظفاً عليهم رئيس ، وكانوا مسئولين عن ملابس السلطان ، وبالاضافة إلى ذلك يتجولون في الليل بالعاصمة وهم متنكرون ، وذلك للتجسس على العابثين والمخلين بالنظام والأوامر الدينية (وانظر عنه كتاب Gibb المذكور Vol 1, part 1, pp 334- 242 وعلي همت ، المصدر المذكور ص ١٨٩)

أما « متفرقة » فهم كبار الضباط من أبناء أولئك المماليك الذين تخرجوا في مدارس القصر بعد اتخاذ نظام ديوشيرمة . ولم تكن لهم وظائف خاصة . وإنما كان المفروض أن يكونوا في معية السلطان إذا خرج للتفتيش في العاصمة ويسيروا أمامه ، وكذلك كانوا يرافقونه في السفر . (وانظر عنهم Gibb ، المصدر الأنف الذكر PP. 87- 88 وعلي همت ص ١٨٧) .

أما رئيس الذائقين (جاشنگير باشي) فهو الموظف المسئول عن طعام السلطان ، وكان يذوقه بنفسه قبل تقديمه إلى السلطان ، وكان من آغاوات الركاب السلطاني . وكذلك رئيس حراس الباب(قبوجي باشي) من هؤلاء الآغاوات أو حاشية السلطان . وحامل الراية هو في التركية (مير عَلَم) وكان ايضاً من آغاوات الركاب أو من رجال الحاشية .

(*) مدينة في روملي قرب أدرنة ، وهي لا تزال في الجمهورية التركية : في ذلك القسم الأوربي منها .

وزيراً للملك سليمان (عليه السلام) ، ومثالاً للوزير العاقل الوفّي . وحينما أصبح لطفي باشا كبير الوزراء ، وجد حسب قوله شؤون الديوان السلطاني في فوضى وعدم تنظيـم ، فبذل جهده لإصلاحها خلال السنوات السبع التي قضاها في الوزارة . وانعزل بعد ذلك ليعيش حياة العلم والتأمل :

إن مملكة هذا الدنيا الفانية سريعة الزوال ونهايتها الفناء فمن المستحسن أن يبحث المرء عن عزلة حكيمة ولكن ليس غير واعية في ركن الفراغ والاستمتاع بالحدائق والمروج . أدعو أن يحفظ الله الذي نستعينه ونتوكل عليه نظم ودعائم آل عثمان من عوادي الزمن ومن عين العدو الحسود . آمين .

وأحس لطفي باشا ، بدافع تسهيل الأمور على خلفائه (في منصب الوزارة العظمى) ، أنه من واجبه ان يضع بعض النصائح والتوجيهات المبنية على تجاربه الشخصية للقيام بواجبات هذا المنصب العظيم ، وهو أرفع ما يطمح إليه أحد من الرعايا . وفعل ذلك في أربعة أبواب (من كتاب آصف نامه) . ويبحث أول هذه الأبواب وأهمها في الصفات المطلوبة في الوزير الأعظم ، وفيما يجب اتباعه من النهج السليم في معاملاته مع السلطان من جهة ومع الشعب من جهة اخرى :

من المهم قبل كل شيء أنه ينبغي أن لا تكون للوزير الأعظم أهداف وغايات شخصية ، ويجب أن يكون كل ما يفعله لله ، وفي الله ، ولوجه الله ، لأنه ليس فوق هذا (أي رضا الله) منصب يطمح اليه . كما ينبغي له أن يصدُق السلطان دون خوف أو تستر . . . وإن الأسرار التي يشترك فيها الوزير الأعظم مع السلطان ، يجب أن تحفظ ليس من الرجال من الخارج فحسب بل من الوزراء الآخرين أيضاً .

وينبغي للوزير الأعظم أن يخاطب السلطان دون تردد فيما يجب اتخاذه من القرارات في شؤون كل من الدين والدولة . ولا ينبغي أن يمنعه عن ذلك خوف العزل عن منصبه . . ومن الأفضل أن يُعزل ويحترم بين الناس ولا يخون واجب المنصب .

ويجب على الوزير أن يقوم بتحديد مطالب الدولة على الشعب ، ويحرص على وقاية السلطان من الطمع في المال ، ومن النتائج السيئة التي يقود إليها مثل هذا الطمع . ويجب أن تحترم ملكية الشعب « لأن ضم ممتلكات الشعب اعتباطاً إلى ممتلكات السلطان من علامات الانحطاط في الدولة » ، كما ينبغي أن يكون الوزير الأعظم في شخصه تقياً ، سهل المنال ، وأميناً للغاية :

يجب أن يقوم الوزير الأعظم بأداء الصلوات الخمس جماعة مع أصحابه في بيته . ويجب أن يكون بابه مفتوحاً (للجميع) بحيث يسهل على الناس مقابلته . وعليه أن يرضيهم ـ دون إخلال بالشرف ـ في حدود الإمكان وينبغي الانتباه إلى أنه لا يجوز له أن يسمح للمحتالين ، والسارقين بأن يشترواطرقهم (لإرضائه) بالهدايا ، لأن الفساد في موظفي الدولة داء ليس له دواء ، حذار ! حذار ! من الفساد ، حفظنا الله منه .

وبعد هذه النبرة العاطفية الفجائية ، ينبه لطفي باشا من الناحية العملية بأن مرتب الوزير الأعظم كاف ، بحيث يمنعه عن الوضوع في هذا الخطر :

إن القائم بمنصب الوزير الأعظم يملك إقطاعاً يدرّ عليه دخل ١,٢٠٠,٠٠٠ آقجة ، وله ثياب وخيول بقيمة مئتين الف أو ثلاثمائة الف آقجة من قبل الأمراء الأكراد ، وغيرهم من الأمراء الأقوياء . وهكذا فلا بد أن يكون دخله السنوي المجموعي حوالي مليونين وأربعمائة ألف قجة . وهذا بفضل الله العلي القدير منحة كافية في الدولة العثمانية . وكنت أنفق أنا شخصياً مليون ونصف مليون آقجة سنوياً على حاجات مطبخي وموظفيّ ، ونصف مليون في الصدقات ، وأوفر أربعمائة ألف أو خمس مائة ألف الأخرى في خزينتي . إن الطمع طريق الشر ، ولا نهاية لها . والقناعة كنز لا يفنى .

وليس عند الوزير الأعظم وقت للمتعة والمباهج ، بل ينبغي أن يكرس حياته كلها لخدمة الدولة :

وما يحسن به بعد نيله هذا المنصب هو العلم والزهد ، وينبغي أن يعمل جاهداً لتطهير وإنقاذ نفسه وتحسين أحوال العالم .

كان لطفي باشا قلقاً أيضاً حول تكاليف المعيشة وأدواء النفعية والانتهازية :

> إن مراقبة الاسعار مسئولية عامة خطيرة ، وينبغي للوزير الأعظم أن يُعني بها عناية خاصة . فليس من الصحيح أن يكون واحد من الموظفين الكبار تاجراً للرز ، وآخر صاحب مخزن الأدوية ، وإن تحديد الأسعار فيه مصلحة الفقراء .

ومن واجبات الوزير الأعظم المراقبة الدقيقة فيما يتعلق بالتعيينات والترقيات في وظائف الحكومة ، والتي يجب أن تكون على أساس الاستحقاق فقط . كما ينبغي أن يصون النظام ، ويحترم قانون الأسبقية والأقدمية ، كما ينبغي له أن لا يخضع للتأثير والضغط من الخارج ، بل يجب أن يتبع ما يراه صحيحاً ، ولو أن المسؤولية الأخيرة بدون شك تقع على السلطان ، ويجب تذكيره بهذه الحقيقة من حين لحين :

> وينبغي للوزير الأعظم في مخاطبته للسلطان ، حامي العالم أن يقول مكرراً: سلطاني إنني قد برئت من الذمة ، فأنتم تجيبون بعد ذلك في يوم الحساب .

وتبحث بقية الأبواب الثلاثة (للكتاب) في موضوعات القوات المسلحة ، والخزانة ، وطبقة الفلاحين . « إن السلطنة تعتمد على خزينتها ، والخزينة تعتمد على الإدارة الحسنة . وبالإستبداد هي تنهار » .

وكان يترأس الوزير الأعظم على طبقة منظمة في الدرجات من الموظفين المدنيين ، موزعين في فرعين هامين : مكتب الشؤون الخارجية ، والخزينة . وكان هؤلاء في أغلب الأحوال من المسلمين ، الحرّ الولادة ، وعادة من الأتراك . وشكلوا بمرور الوقت طبقة شبه وراثية . لهم مهاراتهم وأسرار مهنتهم الخاصة ، وقد جنّد هؤلاء من الأسر البيروقراطية العريقة ، ويبدو انه كانت لهم صلات واسعة مع الطبقات الدينية ، الذين كانوا مسؤولين عن تعليمهم . إذ أنهم كانوا يذهبون إلى المدارس الابتدائية بالجوامع . والمعاهد الدينية الإسلامية حتى السن السادس عشر أو السابع عشر. ومن ثم كانوا يوضعون عادة ، من

قبل أحد الأقارب ، في مكتب حكومي كموظفين تحت التمرين ، لكي يتعلموا طريق العمل ، ويندرجوا في سلم الترقية . ووجد كثير من الأبناء المسلمي الولادة لـ « عبيد الباب » ـ الذين يحظر عليهم الخدمة الحكومية ـ فرصة العمل في سلك البيوروقراطية . إن الوظائف الكبرى في البيوروقراطية ،كان يشغلها ، في أكثر الأحيان ، أفراد الطبقات الدينية ، وبدت المناصب البيروقراطية والدينية العالية أحياناً كجزء من نفس نظام الطبقة الممتازة .

وكان الموظف المسؤول عن الشؤون المالية تحت الإشراف العام للوزير الأعظم يدعى بـ « دفتر دار الكبير » أي صاحب السجل المالي . وجاء اسمه في قانون محمد الفاتح بعد اسم الوزير الأعظم مباشرة ، وكان تاليه في المرتبة . وكان له حق الدخول شخصياً إلى السلطان ، الذي كان يقف على قدميه ليحييه حسب القانون . وكان الدفتر دار الكبير يرأس عدداً من صغار الدفتر دارين ، وله سلّم للترقية معهود ومعترف به . ومنذ عهد بايزيد الثاني ، كان رئيس الدفتر دارين مسؤولاً عن الروملي ، وعين دفتر دار آخر للاناضول ، وأضيف إليهما ثالث في القرن السادس عشر . وكل هؤلاء الثلاثة كانوا أعضاء الديوان وكانوا يؤخذون عادة من طبقة العلماء .

ولم يكن يحضر رئيس طائفة العلماء ، أي مفتي العاصمة الأكبر مجالس الديوان . ولكن كان يحضرها ، على كل حال ، الآخرون من العلماء من الطبقة العليا . وكان يتلو المفتي الأكبر في المرتبة مباشرة قاضيا عسكر للأناضول والروملي . وهما أعلى المراجع القضائية في الامبراطورية ، وكان كلاهما عضواً كاملاً في الديوان .

وهكذا كان « نشانجي » الذي كانت وظيفته الرئيسية ختم الأوراق الرسمية بطغراء(١١٧) السلطان ، والذي كان أيضاً في الحقيقة نوعاً من كبار

---

(١١٧) هو علامة التوقيع السلطاني وكانت توقيعات السلاطين العثمانيين من أجمل =

قضاة الدولة . وفي يده سلطة قانونية هامة . كان « نشانجي » يصادق على الصفة القانونية للوثائق قبل ختمها بالطغراء ، كما كان مرجعاً للقوانين القديمة للامبراطورية ، ومسؤولاً عن صياغة قوانين جديدة . وحتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي كان « نشانجي » يختار دائما من طبقة العلماء ، وأصبح هؤلاء منذ ذلك الوقت يكونون سكرتارية الديوان ، وعانوا من استصغار مرتبتهم وضعف سلطتهم .

وخلال القرن السادس عشر ، ظهر موظف آخر ، وهو رئيس الكتاب المدعو عادة بـ « رئيس أفندي » ، وكان هو السكرتير الرئيسي ، ورئيس مكتب الخارجية تحت السلطة العامة للوزير الأعظم . وكانت واجباته تشمل ادارة العلاقات الخارجية مع الدول الاجنبية ، ويساعده فيها رئيس المترجمين في الديوان ، المدعو بـ « ترجمان باشي » . وكان هؤلاء المترجمون بدون استثناء تقريباً من المسيحيين ، ومن الأصل الأوربيّ عادة في الفترة الأولى ، ولعبوا دوراً عظيم الأهمية . وكانت تحتكر هذه الوظيفة فيما بعد فئة من الاسر الارستقراطية اليونانية ، تعيش في حيّ الفنار(١١٨) في استنبول .

ولم يكن أي من السكرتير الرئيسي ورئيس المترجين من الأعضاء الكاملين في الديوان ، وإنما كانا يحضران مع بعض الموظفين الآخرين من نفس المرتبة كرئيس التدريب العسكري ، ورئيس الحجاب ، وكانا يجلسان في حجرة الانتظار ، ويشتركان (في جلسة الديوان) حينما يُدعوان .

= التوقيعات ، وكانت ترسم فوق الرسائل والمراسيم ، ويختم بها هذا الموظف في آخر هذه الأوراق .

(١١٨) وكانوا يعرفون بالفناريين . ومعظمهم من اليونانيين من سكان العاصمة ، وكانوا يحيكون المؤامرات ضد الدولة بالاتصال مع السفارات الأجنبية . وتخلص منهم السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ م) بعد انفصال اليونان عن الدولة . وحل محلهم المترجمون الأتراك الذين تعلموا اللغات الأجنبية .

وكان يمثل القوات المسلحة شخصان : -آغا الإنكشارية عن الجيش وأميرال البحرية الكبير (قيودان باشا) عن الاسطول . وعلى أية حال ، كان يمكنهما أن يصبحا من أعضاء الديوان إذا نالا مرتبة الوزير . وعن الأقاليم ، كان ثمة واليان عامان (بيكلربك)* للأناضول والروملي ، اللذان كانا يحضران جلسة الديوان في حالة وجودهما في العاصمة . وكان أصحاب هاتين الوظيفتين (وهما أعلى الوظائف في الإدارة الاقليمية) سابقا من أعضاء الديوان .

وحتى منتصف القرن السابع عشر كان الديوان السلطاني مركز حكومة الامبراطورية العثمانية . وكان يجتمع أعضاؤها الذين يمثلون العلاقات الخارجية ، والشؤون المالية، والقانون ، والشؤون الدينية ، والقوات المسلحة بصورة دائمة منظمة . وكانوا يتخذون القررات في جميع القضايا الهامة للدولة . وكان عندهم لتنفيذ قراراتهم جهاز اداري مدني واسع ، منظم للغاية ، وينقسم إلى قسمين ، ولكل منه طبقة من الموظفين وراثية خاصة ، وسلّم للترقية خاص . وكان لرؤساء مصالح الجيش ، والمالية ، والشؤون الدينية هيئآتهم الخاصة بهم . وتشكل البقيةسكرتاريـة الديوان التي كان يرأسها رئيس الوزراء أو الوزير الأعظم . وكانت بدورها مقسمة إلى عدد من الدوائر التي تدير الفروع المختلفة للحكومتين المركزية والاقليمية .

وفي العهد العثماني المبكر ، لم يكن للوزير الأعظم مقر رسمي . بل كان يستأجر منزلاً كبيراً بجوار القصر السلطاني ، حيث كان يدير فيه بعض شؤون الدولة ويستقبل بعض الزوار ، وعرف قسم الاستقبال من هذا المنزل باسم « باشا قپوسي » أي باب الباشا في مقابل استعمال الباب السلطاني لقصر السلطان . وأصبح يعقد في منزل الوزير مجلس بعد الظهر للنظر في المسائل التي لم تبحث ولم يتم البت فيها في جلسة الديوان . وكان هذا الاجتماع يعقد بعد

(*) ترسم هذه الكلمة هكذا في التركية وتنطق « بيلربى » .

« إقندي » اي صلاة العصر ، فأصبح هذا المجلس المعروف بـ « إقندي ديوان » يعقد بصفة دائمة خمس مرات في الأسبوع ، وتسلّم تدريجياً قسماً كبيراً من مسائل الديوان السلطاني .

ثم تّم نقل مقّر الحكومة رسمياً من الديوان السلطاني الى منزل الوزير الأعظم في ١٦٥٤ م ، وذلك عندما قدم السلطان محمد الرابع الى وزيره المنزل الكبير الذي استخدم كمقر رسمي له ولمكتبه . وأطلق اسم « باشا قپوسي » على هذا المنزل . وإن استعمال المصطلحات كالبوابة ، والباب ، والعتبة لإبراز معنى كرسي الحكومة قديم جداً في الشرق الأوسط ، ويصدقه الاستعمال في الدولة العثمانية في زمن مبكر . وحتى القرن السابع عشر، كان مصطلح « الباب » ومترادفاته تستعمل لقصر السلطان أو ديوانه . وبعد هذا التاريخ أصبح هذا المصطلح يستعمل في أغلب الأحيان لمكتب كبير الوزراء ، واعترف به على وجه العموم في الدولة وفي الخارج ككرسي الحكومة الحقيقي . وفي القرن الثامن عشر ، أصبحت الحكومة العثمانية تعرف بـ « الباب العالي » الذي ترجم في اللغات الأوروبية عادة بـ (Sublime Port) .

٥

العَاصِمَة

يقول لنا مؤرخ تركي أنه عندما عاد السفير العثماني من بلاد المُغَل في دهلي إلى استنبول في سنة ١٦٥٩ م(١١٩) ، سأله السلطان : ما هو أهم شيء رآه في سفره إلى

---

(١١٩) لم يذكر لنا المؤلف اسم المُغَل وبالأحرى الامبراطور المغولي في الهند الإسلامية ولا اسم السلطان العثماني ، ولا المؤرخ التركي الذي ذكر هذه القصة . ومن المؤكد أن التاريخ المذكور في النص خطأ . وذلك لأن المصادر الهندية المعاصرة تذكر جميع السفارات ، بتواريخها ، التي تبودلت بين الدولتين في هذه الفترة ، ولا تذكر أية سفارة في هذه السنة أو قريباً منها . والتاريخ الصحيح هو ١٦٥٤ م كما يتأكد مما يأتي .

والمُغَل هو امبـراطـور شاه جهان (١٦٢٧ - ١٦٥٨ م) باني ضريح «تاج محل» الشهير ، وأما السلطان فهو محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧ م) .

والحقيقة أن العلاقات الدبلوماسية قامت بين الدولين في ١٦٣٧ م في عهد مراد الرابع عندما جاءه سفير هندي من قبل شاه جهان يحمل معه بعض الهدايا الغالية . وأرسل معه سفير تركي في رحلة عودته ، والذي وصل إلى الهند في ١٦٤٠ ، ثم جاء بعد عشر سنين سفير تركي آخر إلى دهلي في ١٦٥٠ م من قبل السلطان محمد الرابع ، وذلك في موضوع حملة شاه جهان على مدينة بلخ في خراسان . وكان السفير التركي الثالث . ذو الفقار آغا وهو المقصود هنا ، والذي صحب السفير الهندي العائد حاجي احمد سعيد ، وقابله الأمبراطور شاه جهان في مارس ١٦٥٤ م . ويتأكد هذاالأسم =

بلاد الهند العظيمة ؟ فأجاب السفير أن مغادرته المصحوبة بالسلامة من هناك وعودته إلى هذا البلد الذي هو كالفردوس كان أروع تجاربه .

ولا شك أن هذه الإجابة التي سرّت السلطان كثيراً كانت من باب المجاملة حسب آداب البلاط . ولكنها في الحقيقة تعكس عاطفة صادقة من الفخار والحب ، التي كان يشعر بها العثمانيون نحو عاصمتهم العظيمة . وإن شاعراً من القرن السابع عشر الميلادي وهو نابي(١٢٠) يدمج في مجموعة من النصائح القيمة المنظومة الموجهة إلى ابنه مديحاً لاستنبول الذي يعبّر عن بعض هذه العواطف :

ليس ثمة مكان تجد فيه المعرفة والعلم
ترحيباً حاراً كما تجد في استنبول .
لم تجن أية مدينة ثمار حديقة الفن
كما جنتها مدينة استنبول .
رعى الله استنبول وازدهارها
فانها مسرح أعظم الانجازات .
وموطن ومدرسة مشاهير الرجال

= والتاريخ مما رواه في آخر الفصل السادس من هذا الكتاب . والعلاقات قد ساءت بين الطرفين عند هذه المرحلة ، وذلك بسبب لهجة خطاب السلطان العثماني الشديدة المتعالية فرد عليه شاه جُهان بنفس اللهجة في الرسالة التي بعثها مع آخر سفير هندي ، وهو قائم بيك الذي صحب ذو الفقار آغا في عودته إلى استنبول. ولم يرد بعد ذلك أي سفير من السلطان العثماني إلا في ١٦٩٠ م في بلاط ارنكزيب(محيي الدين)ابن شاه جهان . انظر History of Shahjehan, by B P. Saksena, PP. 299- 301 . وكتاب The Muslim Rule in India, by V. D Mahajan p. 136

(١٢٠) وهو من شعراء القرن السابع عشر الميلادي (توفي في عام ١٧١٢ م) . وهذه المنظومة عنوانها « خيرية » على اسم ولده أبي الخير (صلات العرب بين الفرس والترك لحسين مجيب المصري ص ٣٣٧) .

وروضة التربية لعديد من الأمم .
جميع أصحاب الكفاءات كائناً من كان
يجدون حظوتهم من الشهرة في استنبول .
لكل مهارة فيها قيمة
ولكل موهبة فيها تقدير
فيها مناصب المجد والشرف
وأي مكان آخر فالحياة فيه ضياع .

* * *

لتدر الأفلاك حول الأرض كما تشاء
فانها لن تجد مدينة مثل استنبول
الرسم والكتابة والتصوير والترصيع
يكسبن الجمال والبهاء في استنبول .
ومهما كانت ثمة أنواع للفنون
فكلها تحظى بالتألق والازدهار في استنبول .
ولجمالها الأخاذ النادر المثال
احتضنها البحر في عناق مستديم .
الفنون والحرف بأسرها
يجدن الرفعة والمجد في استنبول .

وبعد الانتهاء من مديح استنبول والإشادة بها كموضع للفرص المتنوعة ومركز للفن والعلم ، يستمر نابي في الحديث عن المتع والتسلية البريئة في البحر حول المدينة :

هذا ، وما أمتع وأبهج
الإبحار على سطح البحر ،
واعتلاء الناس العرش مثل سليمان (النبي)

والتحكم في البحر والهواء ،
متكئين إلى المساند
ناظرين في مرآة من الفضة .
وحيث ترتفع في تنسيق بديع
أصوات الموسيقى وأناشيد السرور .

ومُبحراً هكذا بدون عناء مع مداعبة النسيم ، يبصر الشاعر إلى سماء المدينة الرائع :

آيا صوفيا ، معجزة الدهور !
قبته ، هي الثامن من دوائر الأفلاك .
لم نرَ له نظيراً على وجه البسيطة
والحق ليس له نظير، وإذا كان فلعله في الجنة فقط .
عتبة السلطنة العثمانية
وبهجة الحكم السلطاني .
في هذا المكان الواهب الحياة
كل ما تتمناه قريب المنال .
كل ما يدور في خلدك من أشياء
فأروعها وأبدعها هنا .
بك ، باشا ، أفندي وچلبي*
صفوتهم المختارة ها هنا .
الجنود ، والعلماء والنبلاء
ها هنا نوابغهم جميعاً .
هنا كل معضلة العالم تجد الحل

(*) النبيل ، الشريف والزعيم الروحي في التركية .

وهنا كل مسعى ينال الهدف .

ثم بذلك الشعور العام العملي الذي قلما يفارق الأتراك ، يبدي نابي ملاحظته :

لو لم يكن لأنواع من الأمراض
ولو لم يكن للطاعون الملعون .
فمن يرغب في أن يترك هذا المكان الشبيه بالجنة
وهذه المدينة المُبعدة للأحزان ؟
ولو كان جوّه أكثر اعتدالاً
فمن الذي يتجه إلى أي مكان آخر ؟

وعلى الرغم من كل ذلك :

ليس ثمة بلد أو مدينة مثلها
وليس ثمة موضع للعيش يضارعها .

وعندما دخل السلطان محمد مدينة القسطنطينية المفتوحة لم تكن إلا خرائب ، أو أحسن حالاً منها قليلاً . وكانت عوامل الانحطاط والفساد التي تعمل عملها منذ مدة قد بلغت منتهاها بكارثة الحرب(١٢١) والاستيلاء العاجل . وأصبح الناجون من الخمسين ألف أو نحوه من سكان العاصمة البيزنطية الباقين ، أرقاء للمنتصرين بعد المعركة ، وأخذوا طريقهم إلى أدرنة ، إلى أسواق الرقيق في هذه العاصمة التركية ، وتركت القسطنطينية خاليةٍ مقفرة .

---

(١٢١) لم تؤثر كارثة الحرب إلا في سور المدينة الجبار . ولم تدمر أية مباني داخل المدينة . بل كانت فيها خرائب في ضواحي المدينة كما يذكره الرحالة المعاصرون وجميع المؤرخين . ويعارض كلام المؤلف هنا من إفقار المدينة ما يأتيه بعده مباشرة من سياسة السلطان الفاتح في إعمار المدينة .

ولكن الأسياد الجدد لم يكونوا قانعين بأن يحكموا مدينة للخرائب والأماكن الخاوية ، وفي كلمات مدون السجل المجاهد عاشق باشا زاده :

عندما استولى السلطان محمد خان الغازي على استنبول جعل سليمان بك قائد المدينة . ثم أرسل رجاله إلى جميع البلاد ليعلنوا : « ليأت كل من يرغب ، وليصبحوا مالكين للدور ، والكروم ، والبساتين في استنبول » فأعطوها لجميع من أتوا إليها .

وعلى أية حال . فان هذا لم يكن كافياً لإسكان المدينة من جديد . ولذلك أمر السلطان هذه المرة بارسال العائلات الغنية والفقيرة على السواء من كل مقاطعة (إلى استنبول) . وكان رجال السلطان قد ارسلوا باوامر إلى القضاة والولاة في كل مقاطعة . وأرغم هؤلاء حسب أوامر السلطان ، كثيراً من العائلات وأرسلوها إلى استنبول . ولقد أعطيت لهؤلاء القادمين الجدد المنازل أيضاً ، وبدأت المدينة في هذه المرة تعمّر من جديد .

وشرع هؤلاء في بناء المساجد كما أنشأ بعضهم زوايا الدراوشة ، وبعضهم البيوت لأنفسهم ، و (هكذا) عادت المدينة إلى حالتها الأولى .

وأنشأ السلطان ثماني مدارس (١٢٢) مع جامع عظيم في وسطها ، وفي مواجهة الجامع دار إقامة للفقراء ، ومستشفى . وفي جانبي المدارس الثمان ثمانية مباني أخرى لإقامة الطلاب . وبالإضافة إلى ذلك بنى ضريحاً جميلاً فوق قبر (أبي) أيوب الأنصاري المقدس ، ومعه دار الإقامة للفقراء ، ومدرسة وجامعاً بجواره .

إن وصف عاشق باشازاده لسياسة محمد الفاتح الإعمارية ، تؤيدها مصادر ووثائق كثيرة أخرى . وإنها لم تكن مقصورة على الأتراك أو المسلمين . فقد سمح لليونانيين وغيرهم من المسيحيين - وفي بعض الأحوال قد شُجع هؤلاء - ليتوطنوا في المدينة ، كما دُعي اليهود أو وجهوا من البلاد العثمانية الأخرى إلى استنبول ، وغلطه

---

(١٢٢) كانت تعرف هذه المدارس بمدارس الصحن الثمان وهي للتعليم العالي وانظر عنها كتاب الاقسكي المذكور ص ٨٠- ٩٠) .

(Galata) وغيرها . وتعطينا وثيقة من ١٤٧٨ م ، التي تحتوي على كشف للأسرات الموجودة في استنبول وغلطه ، بعض المجال لتقدير التقدم الذي تمّ في هذه الفترة .

إنها تسجل ٨,٩٥١ أسرة مسلمة ، و٣,١٥١ يونانية ، و١,٦٤٧ يهودية ، و٢٦٧ أسرة من شبه جزيرة القرم ، و٣٧٢ أسرة ارمنية و٣٨٤ قَرَمنلية ، و٣١ أسرة من النور في استنبول ؛ و١٥٣٥ أسرة مسلمة ، و٥٩٢ يونانية ، و٢٣٢ فرنجية و١٦٢ أسرة أرمنية في غلطه ـ ويحتمل أن مجموع السكان كان بين ٧٠ و ٨٠ ألف(١٢٣) نسمة . وعُشر هؤلاء كانوا يسكنون في الحيّ المسيحي « غلطه » ، والبقية في مدينة استنبول القديمة . وارتفع عدد السكان في عهد سليمان القانوني إلى ما لا يقل عن نصف مليون نسمة . ويقتبس رحالة انجليزي ، وهو جان سيندرسون (John Sanderson) في ١٥٩٣ م من مصدر محلي مطلع ، ويعطي عدد السكان ٢٠٧ و ٢٣١ و ١ وذلك على النحو التالي :

يسكن في القسطنطينية :

الوزراء (أنا أقول نواب الملك) ٦

---

(١٢٣) يبدو هذا التقدير غير دقيق ، وذلك لأن مجموع الأسر حسب الأحصاء الآنف الذكر ١٧,٤٢٤ أسرة ، ومعنى ذلك أن المؤلف قدر عدد أفراد كل أسرة بين ٤ و ٥ أشخاص وهو تقدير ينطبق على الوضع الاجتماعي الحالي في أوربا ، ولا ينطبق على المجتمع الإسلامي الشرقي في القرون الوسطى ، وذلك إذا نظرنا بعين الاعتبار تعدد الزوجات . فعلى هذا إذا قدرنا متوسط عدد أفراد الأسرة بين ٧ و ٨ أشخاص كان عدد السكان حوالي ١٤٠ ألف نسمة .

وكذلك يقال بالنسبة لتقديره عدد السكان في عهد سليمان ، فحسب تقدير سانْدرَسَن الدقيق بعد سطر واحد كان عدد سكان العاصمة اكثر من مليون وربع مليون نسمة في ١٥٩٣ م . فهل من المعقول ان ارتفع عدد السكان في ظرف ٢٧ سنة (توفي سليمان القانوني في ١٥٦٦ م) إلى ثلاثة أرباع مليون نسمة والدولة في عهد سليمان كانت في قمة الازدهار السياسي والاقتصادي . ولذلك فنحن نرى أن عددهم لا بد أن يكون زهاء مليون نسمة .

وكل وزير له مرتب ١,٠٠٠ آقجة (١٢٤) يومياً .

ويسمح الترك العظيم (أي السلطان) لنفسه ١,٠٠١ آقجة (١٢٥) فقط

القضاة ، وهم من علماء دينهم .	٤
وهؤلاء العشرة يحضرون مجلس الديوان للفصل في جميع القضايا	
المفتي ، وهو رئيس القضاة وكبير رجال دينهم	١
دفتردار، وهو رئيس الخزينة، مير آخور باشي (Emrahy Bassie) أي رئيس الاصطبلات ، آغا الإنكشارية ، اي قائد الإنكشارية ، چاووش آغا (Chaus Aga) قپوجي آغا (Capijie Aga) آغا السباهية ، بستانجي باشى ، قبودان باشا (Captain Bashause) ، قپو آغا ، الرسل البّيك (Peyks) ، وهم أصحاب الوظائف في خدمته الشخصية	٣٠٠
صولاق ، أي خدمه	٣٠٠
مدربو الصقور ، والأقزام ، والطرشان	٣٠٠
البغايا من جميع الأصناف	١,٠٠٠
چاووشية ، أي الضباط المعينون في بلاطه	١,٦٠٠
قاپوچية ، أي المباشرون ، أو السعاة بأبوابه (ويخدم ٧٠ منهم في كل الأيام العادية)	٧٠٠
السباهية ، وهم أشرافه ، أنا أقول الفرسان	٣٠,٠٠٠
الانكشارية ، ويمكن أن يُدعوا بالمشاة أو الجنود العاديون	٢٤,٠٠٠
طوپچية ، أي رجال المدفعية ، على سلاح مدفعيته الضخمة	٣,٠٠٠
عجم اوغلان (Jamoglains) ، أي الغلمان لتكوين جيش الانكشارية	٢٠,٠٠٠
الأتراك الآخرون ، من سكان المدينة (علاوة على النساء والأولاد).	٢٠٠,٠٠٠
المسيحيون من جميع الطوائف والبلاد . على الاقل	٢٠٠,٠٠٠
اليهود في المدينة وحواليها . على الأقل .	١٥٠,٠٠٠
النساء والأولاد من جميع الطوائف ، المسيحيين واليهود والترك	٦٠٠,٠٠
	١,٢٣١,٢٠٧

---

(١٢٤) عملة فضية مثل درهم .

(١٢٥) وهو جدير بالملاحظة. والتقدير ، فان مرتب السلطان لم يكن يزيد عن مرتبات الوزراء إلا بمقدار درهم واحد

كانت استنبول العثمانية مدينة عظيمة مزدهرة بسكانها المتنوعين النشطين، وكان معظم اليونانيين الذين كانوا غادروا المدينة قبيل الفتح قد عادوا إليها إلا القليل منهم، وجاء الآخرون من جميع أنحاء الإمبراطورية ليشاركوهم. وشكل هؤلاء جالية غنية تحت زعامة بِطريركهم. وقد ازداد عدد اليهود أيضاً، والذين كانوا موجودين من قبل في العاصمة البيزنطية. وازدادا هؤلاء في استنبول منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بصورة خاصة. إذ جاء الكثيرون منهم من اسبانيا، وبرتغال، والبلاد الأوربية الأخرى، باحثين عن مكان اللجوء ازاء اضطهاد المسيحيين لهم إلى حكم السلاطين العثمانيين المتسامح. وتمتع اليهود والمسيحيون على السواء بحرية العبادة في استنبول في ظل واقع التاريخ الإسلامي والعثماني بهذا الخصوص، ومُنحوا قدراً كبيراً من الحرية القومية (الطائفية). ولقد أسس الإيطاليون، وفيها بعد التجار الأوربيون الآخرون، متاجرهم، ومكاتبهم، ومنازلهم في الحيّ الأوربي على الشاطىء الشرقي للقرن الذهبي. وكا ن أهم عناصر السكان الأغلبية الإسلامية الناطقة بالتركية، المتزايدة باستمرار بواسطة التبشير الإسلامي والانصهار في البوتقة الإسلامية، وفوق ذلك كله عن طريق الاستيطان.

إن الاتراك الذين دخلوا القسطنطينية فاتحين، لم يكونوا **المتوحشين البدائيين كما يصورهم بعض كتاب الغرب. بل كانوا ورثة وحاملي حضارة قديمة ورفيعة ـ أي حضارة الإسلام القديمة**، والتي هم أنفسهم أضافوا إليها قدراً غير يسير. فكان الفن المعماري السلجوقي والعثماني يمتاز بتقليد رفيع قديم, وكان يملك أسياد آيا صوفيا الجدد، من حسن حظ الأجيال اللاحقة، المهارة والمصادر لصيانتها وتحسينها. إن الإسلام يحرم رسم الصور الإنسانية (في مساجده)، ولأجل ذلك ستر الأتراك فسيفساء آيا صوفيا الشهير بطبقة من الجص الرمادي اللون ـ ولكن يبدو أنه لم يتم ذلك إلا بعد الفتح بقرون. فظل يعمل الأتراك لصيانة هيكل البناء وتقويته باستمرار. وأضاف اليه محمد الفاتح مئذنة، وقوّى الجدار الجنوبي ببناء دعامة له. وأضاف سليم الثاني مئذنتين أخريين، ودعامتين في الجدار الشمالي. وأكمل ابنه مراد الثالث أربع مآذن، التي تقف في الأطراف الأربعة له، كما قام بترميم واسع النطاق وتجديد في جميع البناء.

وكان أهم بناء جديد، باستثناء القصر، شيده محمد الفاتح في المدينة الجامع المعروف باسمه. وبُني على التل الرابع للمدينة. بين سنوات ١٤٦٢ - ١٤٧٠ م مع مجموعة من المباني التعلمية وغيرها الملحقة به ، ولقد تهدم بزلزال في سنة ١٧٦٦ م . وكان من الطبيعي أن يسعى الإمبراطور الجديد (محمد الفاتح) في المدينة في منافسة آيا صوفيا بتشييد بناء جديد لعقيدته المنتصرة . ولكن جامع الفاتح هذا لم يكن مجرد مكان للعبادة ، بل كان أيضاً مركزاً للتعليم العالي . إن المدارس الثمان مع مباني السكن الثمانية شكلت نوعاً من المدينة الجامعية، حيث كانت تدرس علوم العقائد، والفقه ، والطب وغيرها من العلوم الإسلامية التقليدية . وكانت تعرف بسبب طراز بناءها باسم « صحن ثمان »(١٢٧) أي فناء الثمانية . وظلت هذه المجموعة من المدارس أحد المراكز الرئيسية للتعليم رغم إنشاء المدارس الكثيرة الأخرى على التعاقب . ولقد تنافس السلاطين ، والوزراء ، والأخرون من رجال الثروة والتقى في تشييد الجوامع والمدارس وحبس « الوقوف » لها .

وأسس في عهد محمد الفاتح عدد من رؤساء وزرائه عدة جوامع في المدينة وما زال بعضها وخاصة جامع الوزير الأعظم محمود باشا (١٤٦٤ م)، وجامع وزير آخر المسمَّى بمراد باشا (١٤٦٦ م) باقيان للآن . واتبع خلفاء السلطان الأول في استنبول سنته من بعده . فأنشأ بايزيد الثاني جامعاً كبيراً قرب السوق في (١٥٠١ - ١٥٠٦ م) ، وجامع آخر على التل الخامس فوق الحي اليوناني المسمى بـ « فنار » (Phanar) يحمل اسم سليم الأول .

وأسهم السلاطين الثلاثة الأول (بعد فتح القسطنطينية) في تطوير العاصمة وتنميتها . وعلى أية حال ، كان ذلك في عهد سليمان العظيم (القانوني) أن بلغت العاصمة قمتها من المجد . فانها لكونها مركزاً لإمبراطورية واسعة غنية مترامية

---

(١٢٦) لم تكن تسمى هكذا بل مدارس الصحن . الثمان أو المدارس الصحن وانظر الهامش ١٢٢

الأطراف ، كانت تهيء الوسائل والفرص للفنانين والكتاب ، والعلماء ، والجنود ، ورجال الحكم ، والتجار والمتحكمين في العمليات التجارية . فهرع كل هؤلاء إلى العاصمة السلطانية الجديدة من جميع أنحاء الإمبراطورية ، الواسعة الأرجاء ، بل من بلاد وراء حدودها .

ولعل أروع العمائر العثمانية في المدينة جامع السليمانية الذي يتّوج قمة لأعلى تلالها . كان هذا الجامع مع المدرسة والمباني الأخرى الملحقة بها ، وضريح سليمان في صحنه ، قد شيّد في سنوات (١٥٥٠ - ١٥٥٦ م) ، ويعتبر أجمل الروائع الفنية لسنان (عاش حوالي ١٤٨٩ - ١٥٨٨ م) . ويُعدّ سنان باتفاق الجميع أعظم المعماريين . .

لقد ولد سنان من أبوين مسيحيين في قيسارية في وسط الأناضول . ودخل في الخدمة السلطانية بواسطة نظام (ديوشيرمه) في سنة ١٥١٢م . وبعد تعليمه وتدريبه في مدرسة القصر باستنبول التحق بجيش الانكشارية ، وشارك في المعارك الحربية في الجبهات الأوربية والإيرانية ، وارتقى سريعاً إلى المناصب المختلفة ، فأصبح أولاً ضابطاً في فرقة المشاة ، ثم في سلاح الهندسة ، وأظهر تفوقه في بناء الجسور وغيرها من الهندسة العسكرية . وكان في حكم سليمان وسليم الثاني مشغولاً طوال الوقت في المهمات الرسمية من قبلهما ومن كبار أعيان الإمبراطورية ، ومنح في سنة ١٥٣٩ م لقب « معمار باشى » أي رئيس المهندسين والمعماريين . وتسجل قطعة من سيرته الشخصية التي كان قد أملاها بنفسه أنه بنى ٣١٢ عمارة . ويشمل هذا العدد الجوامع الكبيرة والصغيرة ، والمدارس ، والكليات ، والقباب ، والأضرحة ، والقصور والمستشفيات ، والملاجىء ، والخانات[١٢٨] ، والجسور ، والقنوات المغطاة ، ومخازن الأسلحة والحمامات العامة .

---

(١٢٧) جمع « خانه » الفارسية بمعنى الدار . وهو فندق (حسب الاستعمال في الشمال الأفريقي) حيث ينزل التجار ببضائعهم كما ينزل فيه المسافرون . وأصبحت الكلمة في اللغة العربية « خان » ومنها كلمة « حان الخليلي » . فيما أظن ، في القاهرة .

إن جامع السليمانية الذي شيّد بعد قرن من فتح استنبول، يصور هيكل بنائه وطريقة زخرفته مدى تأثر الإسلام التركي بينابيع التقليد الإسلامي الأولى ، وأصالة حياته الدينية والجمالية في جوهرها وتميّزها في آن واحد . وبالرغم من أن هذا الجامع يعكس التقاء كل من التأثيرات الفارسية والبيزنطية فيه . فان ثمة شيئاً جديداً مختلفاً ، عثمانياً يلاحظ فيه بصورة واضحة ، وذلك في التباين المنسجم بين مآذنها وقبابها ، وفي خفة اللمس في بناء القبة ، وفي المساحة الداخلية الفسيحة الأنيقة .

وإن أروع ملامحه أي القبة الوسطى العظيمة تدين بصورة واضحة لمثال آيا صوفيا إلى حد كبير . ولكن المهندس العثماني قام بادخال عدة تغييرات هامة . وتوضيح ذلك ان صلاة الجماعة في الإسلام يقف فيها المصلون جنباً إلى جنب في صفوف طويلة، متوجهين نحو القبلة التي تحدد وجهة مكة ، ويؤمهم الإمام الذي يجب عليهم أن يتابعوه بكل دقة . وهناك درجة خصوصية (في الثواب) لمن يكون في الصف الأول . ولأجل ذلك يخطط المسجد عادة في العرض خلافاً للكنيسة المسيحية ، ومحاريبه متوازية لجدار القبلة . وفي جوامع العرب الأولى كانت ثمة قاعة واسعة تفتح على فناء مكشوف عظيم ، ولكن في جو تركيا القارس البرد ، كانت الحاجة تقتضي إلى موضع محوط مسقوف ، ليقي المصلين من الريح والمطر ، ويسمح في نفس الوقت الامتداد المطلوب للصفوف من الجانبين في الصلاة .

إن القبة المركزية في هذا الجامع يسندها اثنان من أنصاف القباب كما في آيا صوفيا ، ولكنها لا تدعمها الأقواس النصف الدائرية الكبيرة كما في هذه الأخيرة . بايجاد حل لمشكلة تقوية القبة المركزية وتوازنها ، كان سنان قادراً على إزاحة العواميد والعوائق الأخرى من وسط الساحة في الداخل . وهكذا فان التخطيط الهندسي للبناء في العرض ، وإزالة العواميد من الوسط ، أعطى المجال لصفوف المصلين العريضة ، مع منظر الإمام والقبلة الواضح ، بحيث لا يحجزه شيء .

ويصف كاتب من القرن السابع عشر وهو أولياء چلبي تشييد جامع السليمانية ومنظره في هذه الكلمات :

وبعد أن جمع سليمان آلافاً من المهرة في فن هندسة المعمار والبناء . وتقطيع الأحجار ، ونحت الرخام من الذين وجدوا في بلاد آل عثمان ، استغرقت ثلاثة أعوام كاملة في وضع القواعد . ولقد نفذ العمال إلى أعماق الأرض لحد أن أصوات معاولهم كان يسمعها الثور الذي يحمل الدنيا (على قرنيه) في قاع الأرض ، وفي ثلاث سنوات اخرى ارتفعت القواعد إلى سطح الأرض . وفي السنة التالية أوقفت أعمال البناء ، وشُغل العمال في تقطيع ونحت أنواع مس الأحجار الملونه لهيكل البناء فوق القواعد . وفي السنة اللاحقة بُني المحراب . . . والجدران التي بلغت قبة السماء وعلى تلك القواعد الأربعة المتينة بنوا قبته الرفيعة وهناك بجانب الأقواس الزوايا الأربعة التي تسند هذه القبة أربعة عواميد ضخمة من الحجر المصري في جانبيه الأيمن والأيسر ، وكل واحدة منها تساوي خراج مصر عشر مرات. . ومن الجانب المحاور والمقابل للمحراب تتصل بالقبة اثنتان من أنصاف القباب ، وهما لا تعتمدان على أية أحوال ، على تلك العواميد ، لأن المهندس كان خائفاً من الثقل الزائد عليها وفتح سنان الشبابيك في كل جانب لإدخال الضوء في الجامع . وثمة اسطوانتان حلزونيتان في طرفي الأيسر والأيمن للمحراب واللتان تبدوان كأنهما من أعمال السحر . وهناك أيضاً شمعدانات ضخمة بقياس قامة الرجل من النحاس الأصفر الأصلي ، ومذهبة بالذهب الخالص ، وتشعل فيها الشموع من شمع النحل الممزوج بالكافور . وكل واحد منها يزن ٢٠ قنطاراً ، وفي جانبي الجامع مصاطب على القوائم الحجرية ، يشرف بعضها على البحر وأخرى على السوق ، وحينما يكون الجامع مليئاً تماماً . يؤدي كثير من الناس صلاتهم على هذه المصاطب. وحول سقف القبة في الداخل صفان من الرواق قائماً على عواميد ويضاءان بالمصابيح في الليالي المباركة . ومجموع المصابيح بالجامع ٢٢,٠٠٠ مصباح . وفيه كذلك عدة آلاف من قطع الزينة معلقة بالسقف ، وثمة نوافذ في الجدران الأربعة يدخل فيها النسيم الرطب ، وينعش المصلين ، فكأنهم يستمتعون بالحياة الخالدة في الجنة .

ولفناء الجامع ثلاثة أبواب ، لها ثلاث درجات من السلم للصعود والنزول . وإنه مبلط بالرخام الأبيض ، وناعم سهل كالسجاد . . . وفوق شبابيك هذا الفناء من كل جانب نصوص من القرآن منقوشة بالخط الأبيض على بلاطات القاشاني الأزرق . والباب المواجه للقبلة (أي الباب الشمالي) أكبر أبواب الجامع جميعاً . إنه من المرمر الأبيض ، وليس له نظير على وجه الأرض في جماله ، وفي المهارة الفنية التي تتجلى في طريقة نحته وزخرفته وفي الجانب العلوي المشرف منه ازهار منحوتة وزخرفه

من الأغصان المشجرة المحفورة تتشابك بعضها ببعض بمهارة تنافس فنّ جمشيد* ومن جانبي هذا الباب مباني في علو أربعة طوابق تحتوي على حجرات للمؤذنين والفراشين وحفاري القبور . وعلى مدخله أسطوانة ضخمة من الرخام المصري البراق الأحمر التي لا نظير لضخامتها وروعة بريقها .

وعلى قواعد العواميد المنصوبة في أربع جهات هذا الفناء لوحات من النحاس نقشت فيها تواريخ الأحداث الجديرة بالذكر ، كالحرائق الكبرى والزلازل والثورات والفتن . ولهذا الجامع أربع مآذن ، وطوابقها عشرة في المجموع ، وذلك تسجيلاً للحقيقة التاريخية ، وهي أن السلطان سليمان كان العاشر بين سلاطين آل عثمان . فالمئذنتان المتصلتان بعمارة الجامع لكل منها ثلاثة طوابق ، ويُصعد إليها بدرج من ٢٠٠ درجة ، والمئذنتان الأخريان في زاويتي الفناء من الداخل أقل ارتفاعاً ولهما طابقان فقط .

وإن الحرم الخارجي للجامع سهل واسع رملي ، زرعت فيه أشجار الصنوبر ، والسرو ، والصفصاف والليمون وشجر الدردار ، وهو يحيط الجامع من ثلاث جهات ، وله عشرة أبواب . ولكنه غير محوط بأي جدار من الجانب الشرقي ، وإنما بمجرد حاجز منيع منخفض لكي لا يحتجب منظر مدينة استنبول . وتستمتع الجموع من البشر من هنا بالمنظر الكامل للقصر السلطاني وسكودار ، وحصن البوسفور ، وبشكطاش ، وتوپخانة (دار المدفعية) ، وحي غلطة وقاسم باشا (١٢٨) ، وآق ميدان (١٢٩) ، والقرن الذهبي والبوسفور اللذان تمرّ فيهما آلاف من القوارب ، والبوارج ، وأنواع أخرى من السفن جيئة وذهاباً ـ منظر لا نظير له في أي مكان آخر من الدنيا . ومساحة هذا الحرم الف ذراع ، وهناك صحن آخر يسمى «بهلوان دمير

(*) ملك ايران الشهير من أسرة البيشداديين في العصور السحيقة والذي حيكت عنه اساطير كثيرة

(١٢٨) كل هذه الأحياء والمباني الكبرى في استنبول وضواحيها ، واسكودار ميناء في البرّ الأسيوي لاستنبول ، وحصن البوسفور هو المعروف بروملّي حصار على الشاطىء الأوربي لهذا المضيق .

(١٢٩) هكذا بالقاف في النص . وهو بالتاء هكذا : « آت » في معظم المصادر الشرقية والغربية . والسبب في هذا الاختلاف كما يبدو نطق الأتراك للتاء قريبة من القاف ، ومعناه ميدان السباق . وهو هيبودروم في العهد البيزنطي ، ويواجه آيا صوفيا .

ميداني (حلبة المصارعين الحديدية) بين الجامع وبين أسوار القصر القديم ، وفي هذا الميدان يمارس المصارعون من جميع المعاهد الدينية والمدارس رياضة المصارعة بعد صلاة العصر

وفي جهتي الجامع من اليمين واليسار ، أربع كليات لتعليم الفقه في المذاهب الأربعة . يدرس فيها نوابغ العلماء . وتوجد كذلك مدرسة لتعليم القانون العرفي ، ومدرسة اخرى لتعليم تجويد وترتيل القرآن ، وكلية لدراسة الطب ، ومدرسة للأطفال ، ومستشفى ، ومطعم مجاني ، ومسكن للفقراء ، ومستشفى آخر للغرباء ، ونزل للمسافرين ، وسوق للصياغة ومجلدي الكتب وصانعي الأزارير ، وحمام فيه غرف للطلبة ، وآلاف الحجرات لخدم الجامع ، وهكذا توجد في المنطقة المحيطة بالجامع ما لا يقل عن ١٠٠١ قبة(كبيرة وصغيرة) ، ويبدو حي السليمانية عندما ينظر إليه المرء من غَلطه كأنه ميدان واسع يعطيه الرصاص* .

وعدد الخدم المعينين لخدمة الجامع ثلاثة آلاف شخص . ويعيش هؤلاء من أوقاف مستديمة سخية ، وهي جميع جزر بحر إيجه ، نحو كوس (Cos) وخيوس (Chios) ورودس (Rhodes)، والتي وقفها عليها السلطان سليمان . ويجمع دخل هذه الأوقاف خمس مئة شخص تحت إشراف مدير مخصوص لها .

وعندما انتهى بناء هذا الجامع قال سنان للسلطان : « إنني بنيت لك أيها الإمبراطور جامعاً يبقى على وجه الأرض إلى يوم القيامة . وعندما يأتي المنصور الحلاج** ويستأصل جبل دَماوَند(١٣٠) من أساسه ، فانه يلعب تنس (Tennis) به وبقبة الجامع » . ورأى كاتب هذه السطور بنفسه عشرة من الإفرنج الكافرين المهرة في علم الهندسة وفن المعمار الذين ـ بعد أن غير البواب أحذيتهم بالخفاف ، وأدخلهم في الجامع بقصد الزيارة ـ وضعوا أصابعهم على أفواههم وعضوا أناملهم من الإعجاب والاستغراب حينما رأوا مآذنها ، ولكن عندما رأوا القبة رفعوا بقبعاتهم

(*) وذلك نظراً لتغطية القباب وأنصاف القباب في الجامع وقباب اروقة وقباب المحلات الأخرى المذكورة في النص بطبقته من الرصاص. وتغيّرت الآن كثير من هذه المعالم .

(**) إشارة إلى الصوفي الشهير من القرن الثالث الهجري . اشتهر بخوارقه في الآداب الفارسية والتركية واسمه الصحيح حسين بن منصور الحلاج .

(١٣٠) أعلى قمة من سلسلة جبال البُرزْ في ايران .

إلى العُلا ، وهتفوا قائلين : ماريا ! ماريا ![131] . ولم يستطع هؤلاء حين رؤيتهم للأقواس الأربعة التي تدعم القبة المنقوش عليها تاريخ ٩٤٤*هـ (١٥٣٧ م) أن يجدوا كلمات للتعبير عن إعجابهم ، وظل العشرة ـ وكل واحد إصبعه على فمه ـ يشخصون إلى الأقواس الأربعة ساعة كاملة في الاستعجاب ، ورفعوا قبعاتهم مرة اخرى حين زيارتهم الفاحصة للقسم الخارجي ، أي الصحن ، والمآذن الأربعة ، وأبوابه الستة ،وعواميده ، وعقوده ، والقباب وتجولوا حول المسجد حاسري الرؤوس . وهي طريقتهم في تصديق أعظم محيّرات العقول فسألت ترجمانهم ما رأيهم فيه ؟ فأجاب أحدهم الذي كان قادراً على الإجابة : بأنه لا يوجد في أي مكان مثل هذا الجمال الرائع المنسجم في الداخل والخارج ، وليس للفرنجة بأسرهم بناء واحد يضارع هذا البناء

إن أبرز العلامات الخارجية للجامع مئذنته ، وهي عادة بناء مستقل ، ومن أعلاها يدعو المؤذن المؤمنين للصلاة . وأنشأ محمد الفاتح مئذنة في آيا صوفيا ، وخلال جيل واحد بعد ذلك كانت الأصابع المميّزة المستدقة الأطراف (المآذن التركية) تشير نحو السماء من كل حي من أحياء المدينة وهي ترتفع عالية في الأزقة والأسواق المزدحمة ، وكأنها بشارة ونذير للمؤمنين .

إن أقوى العمارات التي شيدها الأتراك في استنبول كانت تلك التي بنيت للأغراض الدينية ، كالجوامع والمدارس وزوايا الدراوشة الصوفية ، فاستعملوا فيها أحسن مواد البناء وأروع المهارة الفنية . وأما المباني التي أُنشئت للأغراض الدنيوية ـ حتى القصور الملكية ـ فاستعمل فيها المواد القابلة للزوال سريعاً، وعادة الخشب . فكانت كثيراً ما تنهدم بسبب الحوادث المختلفة ، أو تهدم عن قصد وتنشأ محلها مبانٍ أخرى . وكانت هناك بعض المنشآت للاستعمال العمومي ، وهي أكثر متانة في البناء ، وأبقى على الزمن . ومنها على سبيل المثال ، الأسواق المسقوفة حيث دكاكين التجار ومخازنهم ، والخانات الكبيرة أو الفنادق ، وهي عبارة عن حجرات

---

(١٣١) قالوها استحساناً واعجاباً كما يقول العرب : الله ! الله ! وهي السيدة مريم العذراء .

(*) هكذا في الأصل الانجليزي ، والصواب فيما يبدو ٩٦٤ هـ والذي يوافق ١٥٥٦ هـ وهو تاريخ انتهاء البناء كما ذكره المؤلف نفسه سابقا . والخطأ في قراءة النقش .

السكن ، وفي نفس الوقت المتاجر والأسواق ، فيستطيع التجار الزائرون أن ينزلوا بها ، ويخزنوا بضائعهم فيها ، ويعرضوها للبيع ، ومنها الحمامات والتي عد منها أحد الزوار ١٣٠ حماماً في استنبول في القرن الثامن عشر ، والمستشفيات وملاجىء الفقراء والرباطات ودور الخير ، والمدارس والكليات والمكتبات .

وكانت منازل الأغنياء والوجهاء على ثلاثة أنماط . فكان المنزل المسمى بـ « قَوْنَق » - ومعناه حسب الاستعمال التركي القديم المحطة أو محل الوقوف - يستعمل للمنازل القائمة في المدينة . وهي تشمل استراحة الوجهاء الكبار كما تشمل مساكنهم . وكانت المنازل المسماة بـ«يالي» و«كشك» من المساكن الريفية المبنية من الخشب، الأول فيلاً أو منزل كبير على البحر، كشواطىء البوسفور، والثاني مسكن صيفي مبني وسط البساتين والكلمة الانجليزية Kiosk مشتقة من هذا الأخير .

ويقول لنا أولياء أفندي(١٣٢) أنه في عام ١٦٣٨ م أصدر للسلطان مراد الرابع أوامره لإعداد وصف شامل لمدينة استنبول . وكان الهدف منه الحصول على مساعدة (من أفراد الشعب عامة) في الحرب ضد ايران :

أريد أن تجتمع جميع نقابات استنبول الكبيرة منها والصغيرة في معسكري السلطاني وذلك لأجل مساعدتي في هذه الحملة العظيمة . وعليهم أن يعرضوا عدد رجالهم ودكاكينهم ، ومهنهم حسب نظمهم القديمة المعهودة . وعليهم أن يمرّوا مع جميع شيوخهم ،ونقبائهم ومرشديهم الروحيين ، وآغاواتهم وكيخياواتهم(١٣٣) ومع

---

(١٣٢) وهو نفس الشخص الذي ذكره المؤلف فيما سبق بأولياء چلبي ، وهو أحد أبرز الشخصيات التركية في القرن السابع عشر ، محارب وسائح ومؤلف . وهو معاصر لمؤلف آخر معروف في الثقافة العربية الإسلامية أي كاتب چلبي المعروف لدى العرب بحاجي خليفة. وتوفي اولياء افندي او أولياء چلبي في ١٦٧٩ م . وله كتاب «سياحت نامه » عن سياحته وملاحظاته في أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وترجم بعض أجزائها إلى الانكليزية والفرنسية والعربية .

(١٣٣) جمع كيخيا وهي تتريك لكلمة فارسية « كَدْخُدا » معناها رب الدار . واستعملت هذه الكلمة في التركية بمعنى القيم على الشؤون المالية بصفة خاصة فكان القيم على=

«يجيت باشيه »[١٣٤] و«الجاووشية[١٣٥] » ماشين على الأقدام ، أو راكبين الخيول مع كامل موسيقاهم من ثماني قطع أمام كشك الاستعراض ، حتى يتسنى لي أن أرى كم ألف هناك من رجل وكم نقابة . وإنه سيكون استعراضاً لم يحدث مثله قط فيما مضى .

ويجب إعداد وصف عام لجميع الجوامع السلطانية ، وجوامع الـوزراء ، والمساجد ، والكليات ، ودور تحفيظ القرآن ، ودور الحديث ، والمدارس ، والمعاهد الدينية ، والنزل ، والحمامات ، والمتاجر ، والفنادق ، وقصور الوزراء ، والوجهاء ، والنافورات ، والمؤسسات لتوزيع المياه ، والقنوات ، والصهاريج ، وأحياء المسلمين والمسيحيين واليهود ، والكنائس ، والبِيَع (معابد اليهود) ، والمخابز للخبز والبسكويت ، والمعامل التي تدار بالماء والهواء ، والخيول ، والقاعات العامة ، والاستراحات ، وجميع الدور ، والبساتين ، والأكشاك و« ياليات » وجميع المباني التذكارية التي توجد في أقسام المدينـة الأربعة التي يحكمها قضاة استنبول الأربعة الكبار (مُلّايان)[١٣٦] .

وعلى سكان كافة الأحياء ، وأعضاء النقابات ، والأئمة ، والخطباء ، وكيخياوات جميع الأحياء أن يجتمعوا ويسجلوا كل شيء ، ثم يرسلوا الوصف الكامل إلى بابي العالي[١٣٧] . والذين يُعدون الوصف يجب أن يكونوا ممن يتمتعون

= الخزينة السلطانية يعرف بكيخيا آغا كما كان هناك كيخياوات في مختلف المصالح والنقابات .

(١٣٤) هكذا في النص الانكليزي . وتقابل كلمة « يجيت » في التركية كلمةُ الفتى في العربية . وهذا الاستعمال ناشىء من منظمة الفتوة القديمة في العراق في اواخر عهد الخلافة العباسية (عهد الناصر لدين الله) . وكان أعضاء النقاباتِ المهنية في تركيا في ذلك العصر يسمون بـ « يجيت » ، وباشى معناها في التركية الرئيس . وعلى هذا فمعنى الكلمة رؤساء النقابات المهنية

(١٣٥) وهم السعـاة والحراس . وانظر عنهم الهامش السابق .

(١٣٦) جمع « مُلّا » . وهي تحريف لكلمة « المولى » العربية بمعنى السيد . ويطلق هذا اللقب على علماء الدين الإسلامي في الأقطار غير العربية مثل تركيا وايران وباكستان وافغانستان . كما كان يطلق على قصاة استنبول الأربعة

(١٣٧) ومعناه الحضرة أو مقام السلطان تشريفاً وتعظيماً . ويتبين من هذا النص ان=

بصفة عدم المحاباة . وإذا وجد خلاف ذلك فانني سوف آمر بتقطيع أوصالهم .

ولقد صدر أمره بأن تمرّ نقابة صانعي البوظة (أي البيرة) آخر الجميع كما أنه ينبغي أن لا يوجد أي صاحب « خان »(١٣٨) في المعسكر السلطاني . وعليهم أن يساعدوا صانعي « البوظة » ويخدموهم كـ « ياماك » أو الزملاء المساعدين في الاستعراض ، كما يجوز لهم أن يلعبوا موسيقاهم ذات ثماني قطع كالنقابات الأخرى ، ولكنهم سوف يمرون مع طبولهم وصنجاتهم فقط . وينبغي بهذه المناسبة أن يجري إحصاء لبيوت صانعي البوظة والخمر وأصحاب « الخانات »

ولقد أصدر السلطان بهذا الخصوص الخط الشريف (أي المرسوم السلطاني) موجهاً إلى الوزير الأعظم بيرم باشا . وإلى المفتي يحيى أفندي وملّايان (قضاة) استنبول وأيوب(١٣٩) وغلطه واسكدار ، يأمرهم جميعاً باعداد وصف لكافة النقابات والمهن مع ذكر رؤسائهم ومؤسساتهم وللآثار الفنية ومنشآت الوقف . فقبلوا الأرض (أمام السلطان) وأعدوا وصفاً شاملاً للدكاكين ، والنقابات ، والمؤسسات ، والمنشآت الموجودة في كل حي تنفيذاً لأوامره فجاء هذا الوصف مائة الف مرة أكمل من الوصف الذي أعده مُلّا زكريا أفندي في عهد السلطان سليم ، لأن القسطنطينية ، منذ ذلك الوقت إلى عهد السلطان مراد قد تضخمت

= استعمال مصطلح « الباب العالي » للتعبير عن الحكومة العثمانية لم ينشأ في ١٦٥٤ م في عهد السلطان محمد الرابع عندما منح هذا السلطان لوزيره داراً عظيمة كمقره الرسمي كما يقول مؤلف الكتاب في الصفحة ٩٥ من النص الانكليزي ، أو كما قال Gibb في كتابه المذكور عن النظم العثمانية . وهكذا فيصح ما قاله هامر أن هذا المصطلح كان يطلق أولاً على ديوان السلطان ، ثم عندما تخلى السلاطين عن الأشراف على شؤون الحكم ، وتركوا حرية التصرف لرؤساء الوزراء أطلق على دواوينهم ومقرهم الرسمي أو على الحكومة العثمانية .

(١٣٨) « الخان » هنا بمعنى محلات الغناء أو بيوت الدعارة . ومنه الاستعمال العامي في العربية« كارخانة » بهذا المعنى . والظاهر أن هذه البيوت كان يديرها الأجانب من اليونانيين وغيرهم في العاصمة العثمانية .

(١٣٩) يسمي الأتراك حي الاصحابي ابي ايوب الأنصاري هكذا دون ذكر « أبي » . ويأتي الكلام على هذه الصواحي الأربعة لاستنبول الكبرى بعد قليل .

بحيث لم يبق فيها موضع لأي مبنى آخر . ولقد اكتمل وصفها ووصف جميع ضواحيها، وقراها على شواطىء البوسفور في ثلاثة اشهر. وشكل كتاباً جامعاً يحمل عنوان: «وصف القسطنطينية »، وقرأه المؤرخ صولاق زاده[١٤٠] ليل نهار في حضرة السلطان ،فهتف :«يا إلهي ! ارع هذه المدينة الى الابد » .

وفيما يلي وصف مدينة القسطنطينية الرائعة المعد حسب المرسوم السلطاني حفظها الله من الضعف والانحطاط .

محاكم العدل ، تحت أربعة مُلّايان (قضاة) للقسطنطينية ، وغلطه ، وأيوب ، واسكدار	٦٧٠
جوامع السلاطين الكبرى	٧٤
جوامع الوزراء الكبرى	١,٩٨٥
الجوامع الأخرى في « أرباع » المدينة	٦,٩٩٠
المساجد الكبيرة والصغيرة الأخرى	٦,٦٦٥
المطاعم الحكومية للفقراء	١٩
المستشفيات	٩
المدارس الابتدائية	١,٩٩٣
مدارس تحفيظ القرآن	٥٥
دور الحديث النبوي	١٣٥
الزوايا أو التكايا الكبرى	٥٥٧
حجرات وقاعات لسكن الصوفية الدراويش	٦,٠٠٠
دور المرضى للغرباء	٩١
النُزُل (كاروان سراي)	٩٩٧
فنادق للتجار	٥٦٥
فنادق للعزاب	٦٧٦
أحياء المسلمين	٩٩٠
أحياء اليونانيين	٣٥٤
أحياء اليهود	٦٥٧

(١٤٠) وهو مؤرخ رسمي للدولة ، توفي في ١٦٥٧ م . وتاريخه عن الدولة العثمانية في اللغة التركية معروف بتاريخ صولاق زاده ومطبوع .

أحياء الإفرنج (١٤١)	١٧
أحياء الأرمن	٢٧
قصور الوزراء	٦,٨٩٠ (١٤٢)
الحمامات العمومية والخاصة	١٤,٥٣٦
النافورات العمومية والخاصة	٩,٩٩٥
حنفيات المياه	٩٨٩
مؤسسات توزيع المياه	٢٠٠
النافورات المسماة بـ « آيازما » الحلو والمالح	١٠٠
الآبار	٦٠,٠٠٠
الصهاريج	٥٥
مخازن المياه	٣,٠٠٠
الأسواق المسقوفة	٣
المطاحن الكبرى	٣٧
القبابين السلطانية	٣٥
مطاحن البُن (القهوة)	٢
معمل الحرير	١
معمل الشمع	١
معمل الأسلاك الذهبية	١
مخزن الجمارك	١
مخزن الجمارك البريّة	١
معمل الزيت	١
معمل السمك (المجفف)	١
معمل الملح	١
معمل البسكويت	١

(١٤١) وهم الجنويّون والبنادقة والفرنسيين والانكليز وغيرهم من سكان أوربا غير اليونانيين .

(١٤٢) يبدو أن هذا العدد مبالغ فيه ، أو أنه بالأحرى يشمل قصور الوجهاء والأعيان وذلك لأن الأمر السلطاني قد صدر باحصاء قصور الوزراء والوجهاء والأعيان » .

مصنع الخمر	١
مصنع البارود	١
مصنع السجن	١
دار الضرب السلطاني	١
مغازة الأقمشة	١
مغازة الذرة	١
مغازة الشعير	١
مغازات بايزيد وسليمان للخشب ، والخيول ، والدقيق والدريس	٤
اصطبلات القصر وعند وفا (١٤٣) (Vefa)	١
دار الأسلحة (ترسانة ؟)	١
سجون الدولة (١٤٤)	١
سجون المجرمين	٤
الأفران	٦٠٠
المعامل الهوائية	٦٠٠
المعامل التي تدار بالمياه	٢٨
دور مفتشي المواد التموينية ، والخضار ، واللحوم ، ومفتش المدينة ومفتش المطابخ ، واللحم المملح ، والمدابح ، وثكنات الإنكشارية القديمة والجديدة وفرقة سكبان (١٤٥) .	١٦٢

---

(١٤٣) اسم ميدان في استنبول . كما جاء في التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية لمحمد بك حليم ، ص ٦٤ (القاهرة ١٩٠٥ م) .

(١٤٤) ولعله للمجرمين السياسيين او سحن « يدي قوله » (الأبراج السبعة) غير سجون المحرمين الآتي ذكرها .

(١٤٥) لفظة فارسية مستعملة في التركية معناها حارس أو مدرب الكلاب . وكانت فرقة من الجيش الانكشاري (Gibb المصدر المذكور part II, p 59 vol I وبروكلمن تاريخ الشعوب الإسلامية . الترجمة العربية ٥/١٤٠) .

وعند علي همت الأقسكي (المصدر المذكور ص ١٦٤) « هم المتطوعون الذين يقدمون أنفسهم للجندية بمحض اختيارهم وقت الحاجة الشديدة إلى الجند ، ويؤلفون قسماً خاصاً من خمسة أقسام جنود الأيالات عزب ، سكبان ، تفنكچي ، إحاره لي ، ومسلم » .

ثكنات عجم اوغلان وثكنات الفرق المدرعة وعمال البحرية ، الترسانة ، وثكنات رمـاة القدائف (١٤٦) .	ـ
دور المولوية (١٤٧) .	٤
دار اللبن الرائب (يوغرت)	١
مصنع ورق البطال (١٤٨)	١
دار الأسود السلطانية	١
دور الصباغة	٧٠
دور أواني الفضة	١٠
مصنع البنادق	١
مخزن الرصاص	١
دار الموسيقى	١
دار الخيامين	١
دار الفراشين	١
دار الرسامين	١
دار السقائين	١
دار رجال المدفعية (طوبچية)	١
دار السباكين	١
دار الخياطين (١٤٩)	١
دار عمال العربات	١

(١٤٦) وهم غير رجال المدفعية الذين يأتي ذكرهم فيما بعد . والظاهر أنهم أولئك الذين كانوا يرمون الكرات الحجرية أو الحديدية بالمقلاع المركب في عربة . ولم يُذكر عددها .

(١٤٧) الطائفة الصوفية المعروفة في تركيا والشام . وهم أتباع مولانا جلال الدين الرومي وانظر عنه الهامش السابق رقم ٢٩ .

(١٤٨) يبدو أنه اسم شخص أو نوع الورق المصنوع في هذا المصنع .

(١٤٩) قارن ذلك بما جاء في وصف نقابة الخياطين (ص ١٥٨) وهنا ذكرت مؤسستان (داران) عظيمتان للخياطة من بناء محمد الفاتح وسليمان القانوني ، وكان يعمل فيها ألف رجل . وذلك غير ٣ آلاف دكاكين للخياطة التي كان يعمل فيها ٥ آلاف خياط .

دار صناع الألعاب النارية	١
دار تدريب الإنكشارية	١
دار « سمسونجي » أو (محافظو الكلاب الضخمة)	١
دار « الزغرجية » أو (محافظوا كلاب الصيد)	١
دار البُستانجية (١٥٠)	١
دار مدربي الصقور	١
دار رئيس الصاغة	١
دار صانعي السماور	١
دار صانعي الخل	١
دار صانعي الأزارير	١
دار صانعي السروج	١
دار صانعي الزجاج	١
دار رئيس التجار	١
دار حلواني الفواكه أو الفاكهة الحمضية (١٥١) .	١

سأعطي أنا الفقير أولياء تفاصيل عن الدكاكين والنقابات المختلفة للمهن اليدوية الموجودة في القسطنطينية .

إن وصف نقابات استنبول البالغ عدة مئات من الصفحات ليعطي صورة حية زاهية لحياة المدينة المختلفة الألوان . وتنقسم هذه النقابات إلى ٥٧ قسماً ، وتحتوي على ألف نقابة ونقابة . ومن المحتمل أن لا يعني هذا الرقم إلا العدد الضخم ، لأنه

---

(١٥٠) وهم الذين كانوا يجدفون القوارب السلطانية بالاضافة إلى عملهم في حدائق القصور السلطانية (من بوستان الفارسية بمعنى الحديقة) . وتحولت هذه الفرقة إلى منظمة عسكرية بحرية فيما بعد .

(١٥١) لم يرد في هذا الكشف ذكر دور الدباغة ، التي ذكر منها نفس المؤلف التركي ١٢ مدبغة كبيرة عند ذكره للنقابات المهنية فيما يأتي من الكلام - وجميعها ٧٠٠ مدبغة كـان يعمل فيها ٣ آلاف رجل . كما لم يرد هنا ذكر صانعي الأحذية . وانظر وصفهم عند ذكر النقابات فيما يأتي حيث ذكر أنهم كان لهم سبعة مصانع و ٣٤٠ دكاناً .

لم تذكر فيه غير سبع مئة ونيف نقابة . ويشتمل القسم الاول على المعلمين ، وضباط الشرطة ، والوصفاء في البلاط ، وضباط الصف (عجم أو غلان) ، وكناسي الشوارع ، وحفّاري القبور ، وجنود الطلائع ، وعمال الألغام ، والحجارين .

ويمرّ الحفارون مع معاولهم والحجارون بفئوسهم ، وهم يحملون معهم غيرها من أدواتهم كالمجارف والأمخال والبلطات ويصرخون : «حيّ ، هو» ومهمتهم تسوية الأراضي التي يمكن أن تعوق مسير الجيش . وتقويض الحيطان وإزالتها .

والطائفة الثانية تحت الرئاسة العامة لرئيس الشرطة تشمل نقابات الجلادين ، وجنود الشرطة ، ورجال الشنق ، والسراق[١٥٢] ، وقطاع الطرق ، والمضائقين للتجنيد في البحرية[١٥٣](Press- gang men) ، والسائسين ، وسماسرة الخيول ، والخفراء . ويعقب أولياء جلبي على نقابات السراق وغيرهم من الأفراد السفلة الذين لا حصر لهم في الكلمات التالية :

إنهم لا يظهرون في الأستعراضات العامة ، وغير معروفين فرداً فرداً . ولكن السراق يدفعون ضريبة لضابطين من الشرطة : (الصوباشي ، وعسس باشي) ، ويجدون قوتهم باختلاطهم في زحام القسطنطينية ، وبغشهم للأجانب .

ويصف حيل « المضايقين للتجنيد » بطريقة تذكر ببلاد أخرى وعهود أخرى :

و « مضايقي » الترسانة (أي البحرية) ليس لهم رئيس مخصوص ، وهم طائفة لا مبادىء لهم ، ويخضعون لكيخيا (اي مدير) الترسانة . وعندما يكون الأسطول راسياً في القسطنطينية فانهم يصطادون اناساً بسطاء ليأخذوهم إلى السفن في مخازن الخمر والبيرة، ويضعون في جيوبهم بضع مئات من آقجات (دراهم). وعندما يسكر هؤلاء يربطونهم بالسلاسل في السفن بحجة انهم قد نذروا النقود السلطانية ولا يطلقونهم إلا بعد انتهاء العمليات الحربية ، وذلك بدفع ألف آقجة وهكذا

---

(١٥٢) إن المؤلف استعمل كلمة (Thieves) الانكليزية بمعنى السارق . ولكن يبدو من وصف هؤلاء في السطور التالية أنهم كانوا نشّالون (Pick- pokets) والمحتالون لأجل الحصول على المال بطريق غير مشروع . وهذه من اغرب النقابات كما يلاحظ .

(١٥٣) وهم طائفة غريبة من المحتالين في مختلف الدول البحرية .

فهم طائفة من المحتالين غريبة . تقود الأناس الطيبين إلى مثل هذه المآزق .

ولكل قسم من الأقسام المذكورة رئيس ، ويكون عادة زعيم النقابة الرئيسية في ذلك القسم . وتتبع النقابات بعضها لبعض حسب « جدول الأسبقية » وكان هناك منازعات بعض الأحيان .

ولقد أصدر الإمبراطور (كذا) أوامره أن يتبع الجزارون قبطانات البحر الأبيض المتوسط مباشرة . واجتمع عند ذلك جميع كبار التجار المصريين للرز ، والقنب ، والقهوة ، والسكر ، وبدأوا يخاصمون الجزارين وأخيراً ذهبوّا إلى حضرة الإمبراطور وخاطبوه في الكلمات التالية : « أيها الإمبراطور العظيم ! إن بواخرنا تحمل الأرز والعدس ، والقهوة والسكر من مصر إلى القسطنطينية ، ولا يمكن لقواد (السفن) أن يقوموا بأعمالهم بدوننا ، كما لا يمكن أن نعيش بدونهم . وكيف يُدخل هؤلاء الجزارون السافكو الدم أنفسهم بيننا وبينهم . وكان سفك الجزارين للدماء سبب الطاعون أكثر من مرة ، ولتفادي هذا الخطر أقيمت دكاكينهم في منطقة محددة خارج المدينة . إنهم شرذمة ، وذية ويعملون في الدم ، بينما نحن نوفر للعاصمة مواد التموين من الحبوب والخضار دائماً » . وكان الجزارون مستعدين للرد عليهم ، والدم الذي يسفكونه بدأ يصعد إلى عيونهم ، فقالوا : « مولانا العظيم ! رئيسنا هو الجزار جَومَرْد ، ومهنتنا رعايتنـا للغنم ، الحيوان الذي كان دائماً موضع رحمة خاصة من الله ، فإنه أفرده كطعام لعبده ، الإنسان . وإن القول الذي يقرر كون اللحم والعضل قبل جميع الأشياء معروف ، ويمكن لرحل فقير أن يعيش لخمسة أو ستة أيام على قليل من اللحم ومن المعلوم أننا نُغني عاصمتنا بمكسبنا المشروع . بينما هؤلاء التجار شرذمة من المرابين الذين حدث الله سبحانه عنهم في القرآن الكريم قائلاً : « وأحلّ الله البيع وحرّم الربا » . إنهم يحضرون الغلال وغيرها من المواد التموينية من مصر ، ولكنهم يخزّنونها في مخازنهم الكبيرة لكي يخلقوا قحطاً مصطنعاً ، وليكسبوا منافع غير مشروعة . إن العثمانيين ليسوا في حاجة إلى أرزهم المصري ، فإن الأرز يستورد أيضاً من فلبه (١٥٤) (Philipopolis) وبيك بازار (١٥٥) ، وكذلك لا

---

(١٥٤) من مدن الروملي ، وحالياً في بلغاريا .

(١٥٥) شرقي مدينة فلبه ، ولعلها في الخرائط بازارجيك

يحتاج سكان الروم الى القنب المصري ، لأن القنب ينتج في الروم (١٥٦) في مدن موناستير وكولورونيا (Kolurunia) وسرفيجة (Serfije) وترحالة (١٥٧) (Tırhale) ، وفي الأناضول في آلاف الأمكنة ، وبصورة خاصة في طرابزون (١٥٨) حيث القمصان والأردية رخيصة ومحكمة الصنع ، بحيث لا يكلف قميص البدوي أكثر من ٢٠ درهماً»*. فلماذا سغي إذن قنبهم. والذي كان علاوة على ذلك سبب الحرائق في القسطنطينية لأكثر من مرة . أماالعـدس فان هناك كميات وافرة منه في الأناضول . وأما السكر المصري فاننا نردّ بأن الله سبحانه لم يمدح في القرآن الكريم السكر بل العسل ، الذي أثنى على صفائه . فعسل أتينا وفالينشيه (Valentia) ومـولـدافيـا (١٥٩) (Moldavıa) معـروف جـداً، وكـل واحـد منـه لـه سبعون صنفاً . وإذا كان حلالتكم يرغب في السكر فينتج منه آلاف القنطارات في علايا وأضالية وأضنة وسِلْفِق وطرطوس (١٦٠) وبياس (Payas) وانطاكية وحلب وصيدا ودمشق . وبيروت وطرابلس فلماذا نريد اذن من (استيراد) السكر

---

(١٥٦) اي الاقليم المعروف بـ « روملي » ، وهو البلقان

(١٥٧) هذه المدن الأربـع من اقليم الروملي أو البلقان . وتقع موناستير في ولاية مقدونية من اليونان ، وكولورونيا أو كارلونو جنوبي جبال البلقان في بلغاريا ، وسرفيجة أو ساراجيفو من مدن البوسنة وحالياً احدى مدن يوغوسلافيا الكبرى ، وترحاله من البانيا الشرقية .

وكان يصنع من نبات القنب نوع من القماش الخشن للفلاحين ، كما يظهر من النص

(١٥٨) احدى الولايات شمالي الأناضول وميناء كبير على البحر الأسود وكانت امبراطورية صغيرة مستقلة فتحت في عهد محمد الفاتح .

(*) كالفلس أقل من آقجة أو العملة التركية الفضية

(١٥٩) حالياً جمهورية في روسيا السوفيتية على حدود يوكرايين الغربية ، ولم اهتد الى مكان فالينسية ، ولعلها كانت في النص التركي فلاجة أو ولاشية (Wallachıa) المحاوره لمولدافيا ، والتي تكونت منها جمهورية رومانيا الحديثة

(١٦٠) كل هذه المدن جنوب غرب الأناضول او الجمهورية التركية الحالية ، وعلايا وأضالية أو أنطالية وطرطوس موانىء مشهورة من موانىء تركيا في شرقي البحر الأبيض المتوسط . وبياس مدينة فوق ميناء اسكندرونة الحالية

المصـري ! وأما القهوة ، فإنهـا بدعة ، وتقلل النوم والرجولة في الإنسان . وإن المقاهي دور الفوضى . والقهوة محرمة شرعاً في كثير من كتب الفتوى . وإن « شربات » والحليب ، والشاي . واليانسون ، وسحلب ، ومشروب اللوز كلها أنفع من القهوة . وإذا كان الحنّاء صباغاً مشروعاً لأظفار النساء ولحى الرجال ، فيمكن (الحصول على ذلك) بطحن ساق نبات الأفيون في الهاون ، والذي إذا جعل منه معجون يصبغ الأظفار واللحى بأحسن اللون الياقوتي، ويقتل الجراثيم في البدن والشعر كما يطهره من التراب ، وإذن فليس هناك حاجة للحنّاء .

وهكذا بعد أن طعن الجزارون في البضائع والمنتجـات التي تستورد من مصر ، ردّ عليهم التجار المصريون في الكلمات التالية :

إن أرزنا جيد أبيض . . . وإذا طبخ مع الزبدة ينفح برائحة كالمسك . وإنه نتج بمعجزة من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلم يعرف قبل عهده لا الرز ولا ماء الورد ولا الموز ، ولا العنّاب (١٦١) . أما العدس فإنه عرف بالحديث النبوي أنه سوف ينمو في الجنة (١٦٢) وما سقي منه بماء النيل له طعم أجود ، وحبته أكبر من عدس الروملي . أما الحنّاء المصري فلا توجد أحسن منها في أي بلد ، واستعمالها مستحب حسب السنة النبوية ، ولا يمكن لأحد أن يردّ ذلك . أما السكر والقنب ، فاننا نسلّم بأن الروم لا يحتاجها لأن السكر الذي يأتي من (بلاد) الفرنجة أجود . ولكن قولوا أيها الجزارون ما الفائدة التي تجنيها الخزينة السلطانية من تجارتكم ؟ نحن نعطي عن البضائع التي تأتي في اسطولنا ما لا يقل عن أحد عشر الف كيساً (من النقود ؟) للجمرك سنوياً . وهكذا فاذا أخذ جلالتكم دعوانا الصادقة بعين الاعتبار فوجب منحنا الأسبقية على الجزارين في المواكب العامة .

وبعد أن انتهى التجار من كلامهم ، قرأ المفتي يحيى أفندي والمعيد أحمد أفندي نصاً من الحديث النبوي « خير الناس أنفعهم للناس » . وأصدر الإمبراطور من

---

(١٦١) فاكهة في حجم العنب . احمر اللون ، داخلها نواة كبيرة . تجفف وتستعمل كدواء .

(١٦٢) لا بد أن يكون مثل هذا الحديث من الأحاديث الموضوعة المكذوبة ، فالمشهور الثابت ان النبي عليه الصلاة والسلام كان يكره العدس لأنه من طعام اليهود الذين استبدلوا المائدة أو نعم الله بالبصل والثوم والعدس بدعائهم .

حينه مرسوماً قرّر أسبقية التجار على الجزارين . فطار هؤلاء فرحاً وابتهاجاً ، وأخذوا مكانهم في الأستعراض بعد قباطنة البحر الأبيض المتوسط مباشرة .

وكانت النقابات تقيم مهرجاناً عاماً مرة كل سنة :

يبدأ الموكب السلطاني في السير عند الفجر ، ويستمر طوال النهار حتى غروب الشمس ويفتتح (باستعراض) جنود الجاووشية بـ « آلاي چاووش » (أي چاووشية الاستعراض) وهم مئتا الف رجل (١٦٣) رجل ، ماشين كلهم في كامل السلاح كالبحر الهائج . ومن العادة المتبعة أنه عندما تصل هذه النقابات إلى تذكار خسرو باشا ، قرب الحديقة الجديدة ، فيعرض رؤساء كل واحدة منها أنفسهم أمام دار قاضي القسطنطينية ، لأنه هو الذي يملك سلطة تفتيش الموازين والمكاييل ، وجميع النقابات . ويحتم القانون أن تعرض جميع هذه النقابات البضائع أو المواد الاستهلاكية ، التي كانوا قد عرضوها في الاستعراض العام ، أمام ملّا (أو قاضي) القسطنطينية ، ولكن بعضها تختلس في هذه المناسبة ، وبعد أن يقدم هؤلاء آيات الاحترام لقاضي العاصمة الأول ، يذهب أصحاب النقابات ، برفقة رؤسائهم وكل واحد يعود إلى داره . وتنقطع كافة الأعمال التجارية والصاعية في القسطنطينية بمناسة هدا المهرجان لمدة تلاثة أيام ، ويملأ المدينة خلالها ضجيج وحركة موكب الاستعراض إلى الدرجة التي لا يمكن وصفها باللسان . وما أردت أنا الفقير اولياء چلبي إلا أن أعطي فكرة موجزة عنها ولم يشاهدَ متل هذا الاستعراض في أي مكان ولن يشاهد . . . هذه هي صورة عابرة عن سكان وزحام هذه العاصمة العطيمة ، القسطنطينية ، حفظها الله من جميع الآفات الأرضية والسماوية ، وجعلها عامرة إلى الأبد

ويمكن ذكر بعض النقابات على سبيل المثال :

إن تجار لحم البقر المجفف ست مئة . وهم تجار أغنياء . . ومعظمهم الكفار من مولداڤيا وولاشيه* (Moldavıa, Wallachıa) . . إنهم يُحضرون في يوم

(١٦٣) كذا في النص الانكليزي . وهو ظاهر المبالغة والخطأ والصواب كما يبدو مئتان وألف (١,٢٠٠) رجل .

(*) وتعرفان في النصوص العربية بالبغدان والأفلاق على التوالي .

« كاسيم »(١٦٤) (St. Demetrius) ثلاثمائة الف ثور للاستهلاك في القسطنطينية ، والتي يجعلون منها اللحم المجفف المملح (بسطرمه) . ويبيعون مواشيهم خارج يدى قوله (حصن سبعة أبراج) حيث يبقونها في واد كبير ويدفعون الرسوم إلى مفتشي اللحوم المجففة ، ويفصل في المنازعات نائب اللحوم المجففة ، إنها سوق كبيرة للحم البقري ، وتستمر لمدة ٤٠ يوماً . وذكر في البيان الرسمي الذي قُدم إلى السلطان مراد الرابع ، أنه في الأيام التي كان فيها على آغا مفتش الجمارك ، وحسين « نائب » اللحوم المجففة ، كان يذبح ثلاثمائة ألف ثور . ولا يُعرف من هو رئيس هؤلاء الذين يسوقون الغنم والمواشي الأخرى . ويطهو الطباخون رؤوس وأكارع هذه الحيوانات المذبوحة . ويمرّ هؤلاء التجار الذين يسوقون الغنم والمواشي الأخرى - (في الاستعراض) وهم راكبون خيولهم العربية في زيّ جميل ، وهم جماعة في غاية النظافة .

تجار المشروبات ٥٠٠ رجل ، ولهم ٣٠٠ دكان . وهم يزينون دكاكينهم بالآف من الكوبات والقصعات الصينية والفخارية اللامعة ، الممتلئة بالمشروبات المصنوعة من رَوَند (Rhubarb) ،والورد ، والليمون وزهر نيلوفر ، والتمر الهندي والعنب . وهم في سيرهم (في الاستعراض) يقدمون من هذه المشروبات الى المتفرجين . وأشهر المحلات لمثل هذه المشروبات دكان تاجر المشروبات البدوي في مواجهة تذكار طي زاده . قرب نافورة محمود باشا(١٦٥) ، ولا يضارعه أي تاجر مشروبات في بلاد العرب وايران وتركيا . ويزدحم الناس في دكانه ، وهو يعد المشروبات للوزراء وكبار رجال الدولة

ولتجار الثلج والجليد مؤسسة قرب سوق الخضار حيث يسكن رئيس دار الثلج السلطانية صيفاً وشتاءاً ، ويشتغل ٣٠٠ بحارة تحت قيادته في جبال قاطرلي(١٦٦) (Katırlı) ومُدانيا (Mudanya)واولمب (Olympus)دائماً ويحملون الثلج والجليد والماء الحلو من هذه الجبال في سفنهم ويأخذونها إلى المطبخ السلطاني وإلى دار الحلويات ، وإلى منازل الحريم ودور الوزير الأعظم وكبار الشخصيات الأخرى . وإن العمال الذين يحملون الثلج والجليد من الجبال إلى البحر هم أصحاب البغال من مُدانيا

---

(١٦٤) عيد للمسيحيين كما شرحه المؤلف باضافة الكلام بين الحاجزتين .
(١٦٥) وزير السلطان محمد الفاتح وصاحب الأبنية الكثيرة والحيّ المعروف باسمه في العاصمة .
(١٦٦) من سلسلة جبال طوروس أو اوليمب .

ورجال قبائل بورصة الرحل ، والحجارون . وعلى رئيس دار الثلج تفتيش تسعة مخازن كبرى للثلج القائمة في جوار القسطنطينية . . . وفي الشتاء عدما ينزل الثلج ، يجتمع الوزير الأعظم ، وآغا الانكشارية ، وبُستانجي باشي(١٦٧) وقيودان باشا* مع جم غفير من مائتي الف رجل في آق ميدان(١٦٨) (Ok- maydan) وهم يحملون المعاول وبعد أن يكّوموا الثلج في أكوام كبيرة يرمونه في مخازن الثلج .

وإن صيادي السمك الذين يصطادون في شباك يدعى « قراطية » (Karatıa) وأحصينا في ميناء القسطنطينية ، من نقطة سيراجليو إلى « أيوب » على جانبي الشاطىء ١٥٠ شبكة من المسماة بـ قراطية وإن عشرة من صيادي السمك المنحدرين من الأصل اليوناني الذين فتحوا بوابة « بيتري » (Petre Gate) للسلطان محمد الثاني مُعفون حتى الآن من كافة أنواع الرسوم وهم لا يدفعون أية ضرائب لمفتش مصائد الأسماك . و« قراطية » اسم جهاز الاصطياد الذي يتكون من ياردة أو عصا تمتد إلى الخارج من بيت على الشاطىء وشبكة مربعة مربوطة في آخر طرفها ، والتي تصطاد بها الأسماك . ويخضع جميع اليونانيين الذين يسكنون شاطىء الميناء لسلطة « بُستانجي باشي » القضائية ، ولا يجوز لأي واحد أن يلقي اي شباك في البحر بدون اذنه . وهم يدفعون إليه دوقة (Ducat) عن كل شبكة . . ويجب على الصيادين المُعفون من الرسوم أن يصطادوا الدُلفين (Dolphins) التي تستخدم كدواء للامبراطور . وهم يعرفون المواضع التي تختفي فيها في « جزر الأمير » (Prince's Islands) ؛ وإذا طاردها أي واحد آخر فيعاقب .

وتجار الرقيق ٢٠٠٠ رجل ، وهم يستعملون حجرات الخان (الفندق) الكبير حيث سوق الرقيق المنظمة . ويلبس هؤلاء الناس أحسن الثياب في يوم الاستعراض العام ؛ كما يلبسها العبيد من بلاد الجركس (Cırcassıa) ومكريليه (Mıngeralia) وداديان(١٧٠) (Dadian) وغيرها ، الذين أتى بهم كغنيمة شرعية ، ويمرون بهم

(١٦٧) رئيس فرقة البستانجية ، وانظر عنهم الهامش السابق ، رقم ١٥٠ .
(١٦٨) انظر الهامش السابق ، رقم ١٢٩ . (*) القائد البحري العام .
(١٦٩) في بحر ايجه غير بعيد عن شاطىء تركيا . وهي جميلة يزورها السواح .
(١٧٠) بلاد الحركس او الشركس ، ومكريليه (في التركية) وداديان من مناطق القوقاز أو جمهورية قفقاسيا في الروسية السوفيتية .

للاستعراض أمام الإمبراطور في الكشك السلطاني ، ويأخذ الإمبراطور مئة من ألمع عبيد الكرج ، وأباظه ، وجركس للقصر الإمبراطوري ، ويجزل لأصحابهم الصلات العظيمة ، وينتهي طابورهم بمفتش الرقيق الذي تسير أمامه مئات من الجواري الحسان في ثياب غالية جداً ويتبعهن عدة آلاف من الغلمان ذوي الوجوه الصبيحة والعيون البراقة ، والذين . . . يسيرون أمام المفتش وحوله ، عوضاً عن الوصفاء .

رجال الختم . إن مكتب الختم بناية عظيمة بالقرب من مصنع الصاغة (Factory of Goldsmiths) فيها حديقة وحمام ، ويخدم فيه سبعون موظفاً . إنهم يختمون الطغراء (أي علامة التوقيع السلطانية) على جميع أواني الفضة المصنوعة في القسطنطينية وتختلف هذه الطغراء من الطغراء المنقوش على قطع النقود بفارق الكلمة : « المنتصر دائماً » المنقوشة على مؤخر الذكر . ورئيس الختم مفتش جميع الصاغة في نفس الوقت ، لأنه يضع الختم على مصنوعاتهم بعد فحص الفضة المستعملة فيها . وضريبة الختم ٦ آقجة يذهب ثلاث منها إلى الخزينة ، ويقسم الثلاث الباقية بين رئيس دار الختم والصوفية الثلاثة في القبة . وإن تجاسر الصوفية الثلاثة بختم الفضة ذات عيار أقل من المأمور به قطعت رؤوسهم ، وعيّن مكانهم رجال أتقياء . وإن وجدت الفضة المطروحة في النار لأجل الفحص غير خالصة ، صادرها رئيس مكتب الختم باسم الإمبراطور ، أو كسرها بمطرقة في قطع صغيرة وأعادها إلى صاحبها . وهو يعمل هكذا بأزارير الفضة إذا وجدها مجوفة ، أو محشوة بمعدن رخيص . وكل ذلك حسب قانون السلطان سليم الأول الذي كان بنفسه صائغاً وختاماً . وإن المبنَى المختص بمكتب الختم من إنشائه هو .

الخياطون . لهم مؤسستان عظيمتان : الأولى قرب دار الأسود ، من بناء السلطان محمد الثاني (الفاتح) ويسكن فيها رئيسهم . والثانية مقابل « كشك الاستعراض » من بناء السلطان سليمان . ويعمل في كل منها ٥٠٠ رجل ويبلغ عدد دكاكين الخياطين خارج القسطنطينية ٣,٠٠٠ دكان في كافة أحياء أرباع المدينة . ويبلغ عدد العاملين (بها) ٥,٠٠٠ رجل . وبالإضافة إلى رئيسي الخياطين السلطانية اللذين يسكنان في المؤسستين المذكورتين ، هناك رئيس ثالث ، وهو رئيس جميع الخياطين في داخل المدينة وخارجها . وهم يزينون دكاكينهم على عربات . فيها جميع أنواع الثياب الغالية كما يحملون عدداً كبيراً من الملابس الصنوعة من القماش المصري فوق العصي ، ويكون جميع غلمانهم لابسي الدروع ، لأنهم

نقابة مهمة جداً في المعسكر ، ولأجل ذلك حصلوا على مرتبة فوق مراتب المؤسسات الآتية :

الدباغون . هناك ١٢ مدبغة كبيرة في أقسام القسطنطينية الأربعة . وهؤلاء الدباغون جماعة من اناس متوحشين ، وهم الافاعي الآدمية ، والذين يرفضون تسليم اي مجرم ، أو شقي سافك الدم يلجأ إليهم ، إلى العدالة . ولكنهم لا يدعونه يهرب ، بل يشغلونه في عمل تنظيف نجاسة الكلاب ؛ مهنة تجعله يتوب من جرائمه السابقة ، ويصلح حياته في المستقبل وهناك ٧٠٠ مدبغة على وجه الحصر ، وهي تشغّل ٣,٠٠٠ رجل . وهؤلاء الدباغون طائفة من اناس متوحشين همج ، وكانوا سبب فقدان ملك أحمد باشا منصب الوزارة العظمى . انهم من المشاغبة وعدم الخضوع للنظام بمكان بحيث يقدرون على عزل الإمبراطور .واجتمع ألوف كثيرة منهم عند المدخل العمومي للمعسكر (الاستعراضي) حفاة الأقدام ، حاسري الرؤوس ، أيديهم وأرجهلم مصبوغة بالصباغ احمر ، وثيابهم الجلود الملونة بألوان زاهية مختلفة ، ومآزرهم ، وعمائمهم ، وأقبيتهم ، وعصيّهم كلها مصنوعة من الجلد ، هاتفين : « استرا ، استرا » . والآخرون مشغولون بتزيين دكاكينهم بجلود الغنم المختلفة الألوان ، الأزرق ، والأصفر والأخضر الباهت والأسود النفطي ، ويمرّ الآخرون ، وهم يقلبون جلود الماعز إلى قوارب خشبية ويطئونها بأقدامهم ويهتفون : « يا حيّ » . ويمرّ الآخرون وهم يهتفون : « نحن ننظف ما غير نظيف ، وما غير نظيف ننظفه » .

وصانعوا الأحذية ٤,٠٠٠ رجل ولهم ٣٤٠ دكاناً ، وسبعة مصانع في سوق المرجان ، حيث يسكن ما لا يقل عن ٨,٠٠٠ رجل عازب، المستخدمين في هذه النقابة . ولهم رؤساؤهم الخصوصيون ، الذين يعينون بحسب الفرمان السلطاني الصادر من السلطان سليمان (القانوني) الذي أعفاهم عن الخضوع لأية سلطة قضائية أخرى غير سلطة هؤلاء الرؤساء القضاة . فإنهم يعاقبون مجرميهم بأنفسهم حتى عقاب الموت ، ويدفنونهم في حدود مؤسستهم . (وقصة ذلك) أن السلطان سليمان حلف ، حين غضبه مرة على الإنكشارية الذين كانوا قرروا أن لا يمسوا طعامهم من الشوربة لعدم رضاهم به ، بأنّه سيبددهم بمساعدة صانعي الأحذية . وإن هؤلاء بعد أن سمعوا هذا القسم اجتمعوا في الفور من أربع أقسام القسطنطينية القضائية ، وظهر جمهور من أربعين ألف صانعي الأحذية المسلحين أمام القصر ، وهم يهتفون : « الله ، الله » . فسأل السلطان سليمان ، متعجباً من هذه الهتافات

عن سبب تجمعهم ، وبعد أن عرف السبب سرّ بإخلاصهم ، وأذن لرؤسائهم وكبرائهم بالحضور أمامه ، وسألهم عماذا يستطيع أن يعمل لهم جزاء لحماسهم فاشتمل طلبهم على اربع نقاط :

أولاً - قالوا أنهم في السابق كانوا يُمنحون الغلمان المجندون (اي عجم اوغلان) والذين لكونهم مربّين تربية حسنة ولكونهم قادرين على الكتابة والقراءة كانوا يستطيعون أن يشقوا طريقهم إلى وظائف في الجيش . ولكن أوقف هذا التقليد من قبل الإنكشارية ، وهم يلتمسون اجراءه من جديد .

ثانياً - اشتكوا بأن قيمة زوج نعل بعشر آقجة قليل جداً ، وهم يطالبون زيادته .

ثالثاً - إنهم سألوا السماح بإعدام مجرميهم بأنفسهم بعد حكم رؤسائهم (قضاتهم) دون تدخل من أي قاض آخر .

رابعاً - التمسوا منحهم فرقة خاصة من الجنود المواطنين مع موسيقى تركية في مناسبات المواكب العامة ، لأن وجود آغاهم حتى ذلك الحين في فرقة آغا « الغلمان المجندين » كان بسبب الخلط والفوضى .

فلبّى السلطان سليمان هذه المطالب الأربعة في مرسوم سلطاني خاص ، وأمرهم بالعودة الى منازلهم ، والتزام الهدوء ، وبأن يكونوا مستعدين كالسابق وأما الانكشارية الذين كانوا قد امتنعوا عن أكل شوربتهم من قبل ، فانهم ازدادت شهيتهم الآن إلى حد أن كادوا يبلعوا الصحون مع الشوربة .

ويمرّ صانعوا الأحذية وهم مسلحون ، ولكن حفاة الأقدام ، حاسري الرؤوس ، وهم يزينون دكاكينهم بأنواع من الأحذية والنعال من جميع القياسات الممكنة .

وصانعو العَرق(١٧١) ٣٠٠ شخص ولهم مئة دكان ، وإنهم يعصّرون المشروبات

(١٧١) نوع من المشروبات الكحولية ، يصنع من غير العنب (ويعرف بهذا الاسم حتى الآن في لبنان وسوريا) . ومن ثم أورد المؤلف حكمه الفقهي في مذهب الإمام أبي حنيفة . ولكن جميع أئمة المذاهب الآخرين يحرمون حتى هذا المقدار ، وهو المعمول به في المذهب الحنفي .

الروحية من جميع أصناف النبات . . . وشرب هذه الأنواع من العرق إلى حد السكر محرم ، ولكن ذوق قطرتين أو ثلاث قطرات ليس محرماً .

وكان التجار ووكلاء الحكومة من البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط ومن وادي النيل ووادي الدانوب يزودون سكان المدينة بحاجاتهم الاستهلاكية اليومية العديدة من الخبز ، واللحم وغيرها من الأطعمة . وكان المستوردون وأصحاب المصانع يستوردون الأقمشة وحاجات الزينة والكماليات . وكان المال يسيل في المدينة ، من الضرائب ، وأموال الجزية من الولايات ، ودخل الإقطاعات ، والمنح ، والضياع ، والمناصب ، وأرباح التجارة . وكان ثمة رجال أغنياء يسكنون في القصور الفخمة . وإلى جانب الكثيرين الذين ازدادت ثرواتهم بواسطة ممارسة السلطة أو الوظائف الحكومية ، كان ثمة تجار أغنياء ، ورجال المال المرفهون ، ورجال الأعمال، لهم أعمال ومشاريع تجارية واسعة النطاق .

إن النقابات ، وبصورة خاصة منظمات « الأخيان » (الأخوان) للتجار ، والمهنيين لعبت دوراً هاماً في حياة المدينة الاجتماعية والتجارية . وكانت قريبة الشبه لحد ما بالحياة المدنية والتجارية في المدن الاغريقية - الرومانية في العصور القديمة وحياة مدن الغرب . إن استنبول العثمانية ، كالمدن الإسلامية الأخرى ، لم تكن لها شخصية مدنية قانونية مستقلة، ولا المنظمات البلدية المجتمعية . كان إسلام العصور الوسطى ، في جوهره ، حضارة المدن وبلغ ذروة إنجازاته في إنشاء سلسلة من المدن الرائعة المزدهرة ، ومع ذلك فلم يعترف القانون الإسلامي ولا الحكومة الإسلامية ، في حقيقة الأمر ، بشخصية المدينة كما يجب أن يكون . إذ أن النظرية الإسلامية القانونية التقليدية لا تقر بالشخصيات القانونية المندمجة كالمؤسسات ، ولا يسمح المجال للمؤسسات النيابية إلا قليلاً . والتاريخ الإسلامي لا يكشف لنا عن مدن معترف بها من الجمهور ، وذات امتياز من قبل القانون ، لها شخصيات قانونية مندمجة واعتبار مدني وحدود وحقوق كمدن فرنسا .

وهكذا فكانت المدينة بدون شروط المواطنة وبدون المؤسسات المدنية

الاجتماعية تحكمها فئتان من الناس : الأولى تشتمل على موظفي الحاكم الأعلى (السلطان) من المدنيين والعسكريين ، يمارسون سلطة نيابية ، وقابلة للتغيير وهي مستمدة من السلطة الحاكمة العليا . وكانت مهمتهم الرئيسية متعلقة بواجبات الشرطة ، وإطفاء الحرائق ، والأمن العام بصورة عامة . والفئة الثانية هم رجال الدين ، وهم أعضاء هيئة العلماء ، المفوضون للقيام بواجبات محددة من حماية نصوص القانون الإسلامي وتقريرها وتنفيذها حيث يتحتم ذلك .

وكانت مدينة استنبول العثمانية مقسمة الى اربع وحدات للأغراض الإدارية : استنبول الرئيسية ، والمدن الثلاث : غلطه ، وأيوب ، واسكدار . وكانت استنبول (الرئيسية) . المدينة المثلثة القديمة (القسطنطينية) بنيت على مجموعة من التلال ، يحدها القرن الذهبي ، وبحر مرمرة ، والأسوار البرية العظيمة التي امتدت من بحر إلى بحر . وعند قاعدة المثلث بدءاً بنقطة « سيراجليو » كان يقع قصر « طوبقبو » بميادينه الفسيحة ، ومبانيه المتلاحقة ، ومصالحه . وفي حرمه الخارجي ، عبر الباب السلطاني ، يقع آق[١٧٢] ميدان العظيم (Hippodrome) مع آيا صوفيا . ومن ثم كانت الطريق تتجه نحو قمة التل الثالث ، مركز المدينة القديم حيث القصر القديم لمحمد الفاتح ، وجامع بايزيد وعلى مسافة غير بعيدة مدخل السوق (المسقوفة) العظيمة ، ومجموعة مباني لجامع السلطان سليمان القانوني .

وعلى الشاطىء المواجه للقرن الذهبي تقع غلطة (Galata) ، التي كانت في العهد البيزنطي مستعمرة التجار الأوربيين وخصوصاً الجنوبيين . وظلت هكذا تحت حكم الأتراك حتى العهود الحديثة . وغالب سكانها من غير المسلمين وغير الأتراك . وعلى أية حال ، كان بعض المسلمين قد استقروا بها ، وكانت لهم مؤسستان ذات اهمية خاصة : مدرسة سراي غلطة ، وكانت تكوّن جزءاً من نظام تعليم القصر . وزاوية (الدراوشة) الصوفية المولوية ، المؤسسة هناك منذ ١٤٩٢ م ، أقدم

---

(١٧٢) انظر الهامش السابق ، رقم ١٢٩ .

المؤسسات المولوية في العاصمة ، وأصبحت التلال الواقعة شمالي غلطة المكان المرغوب للسكن عند السفراء الأجانب والقناصل . وعاش أيضاً في هذا المكان لويجي غريتي (Luigi Gritti) الإبن غير الشرعي لأمير (Doge)البندقية ، والذي أصبح مستشاراً وثقة للوزير الأعظم إبراهيم باشا في عهد سليمان القانوني ، ودعاه الأتراك بـ « بيك أوغلو »(١٧٣) أي ابن الأمير ـ وبمرور الزمن ، أصبح هذا اللقب اسم كل غلطة وملحقاتها ، ودعاها الأوربيون بـ « بيرا » (Pera) من كلمة اغريقية معناها وراء أو عبر ، بمعنى عبر القرن الذهبي من القسطنطينية القديمة .

وفي الطرف الشمالي للقرن الذهبي وراء أسوار المدينة ، كانت ضاحية « ايوب » ، على اسم صحابي جليل وحامل راية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والذي ، كما قيل ، سقط (شهيداً) خلال المحاولة العربية الأولى لانتزاع المدينة من البيزنطيين في ٦٧٢ م (٥٢ هـ) . وأنشأ السلطان محمد الفاتح جامعاً وقبة هناك . وبلغت مكانة هذه البقعة المقدسة من الرفعة والسمو بحيث انه كان يتم فيها احتفال « تتويج » السلاطين العثمانيين ، وهو عبارة عن ربط سيف عثمان (الأول) في وسط كل سلطان جديد .

أما ضاحية « اسكدار » فتقع عبر مضيق البوسفور على الشاطىء الآسيوي في مواجهة استنبول القديمة . وكانت في حوزة الأتراك قبل سقوط القسطنطينية بما لا يقل عن مئة عام . وكانت في صبغتها اسلامية وتركية الى حد كبير . وبعد ١٤٥٣ م (اي الفتح) ، أصبحت بالفعل جزءاً من العاصمة ، ولكنها لم تتقدم في الحقيقة ، حسب كلام أولياء جلبي ، إلا في عهد سليمان القانوني . ومنذ ذلك الحين ، غدت مركزاً دينياً هاماً ، مع كثير من الجوامع والمدارس الشهيرة فيها . كما أصبحت، بوجه خاص ، مركز عدد من زوايا « الدراويش » ، وعلى الأخص ، زاوية الرفاعي

---

(١٧٣) وينطقها الأتراك « بي اولو » . وشارع بهذا الاسم بجوار ساحة أو « ميدان تقسيم » أكبر شارع تجاري في المدينة .

او « الدراويش الصارخين » وكانت غلطة ، وأيوب ، واسكدار تعرف بمجموعها « بلادِ ثلاثة » (أي البلاد الثلاثة) .

وكانت مهمة حماية النظام في العاصمة قد فوضت إلى عدد من ضباط القوات المسلحة ، وكانت تنفذ بواسطة نظام التجول ليلاً ونهاراً ، يدار من شبكة لمراكز الحرس داخل المدينة وخارجها . وكان بُستانجي باشي ، قائد جنائني القصر - وهي كتيبة ممتازة من موظفي القصر - مسئولاً عن حماية الموانيء ، وشواطىء القرن الذهبي والبوسفور وبحر مرمرة . وكان من عادته أن يتجول في الشواطىء ومضايق المياه راكباً قاربه ومعه حرس من ٣٠ رجلاً . وكان قبودان باشا ، القائد العام للأسطول ، مسئولاً عن حماية الميناء التجاري ، وضاحية غلطة ، والترسانة ، والقاعدة البحرية في قاسم باشا . وكان يتجول في جميعها مع حرس من البحارة تحت قيادة ضباط البحرية . وكان لقائد كل من فرقتي المدفعية والمدرعات (طوپچي باشى ، وجبَّه جي باشى) وظائف مماثلة في المناطق المجاورة لقواعدهما ، ومستودعاتها . وفي غير هذه المواضع من المدينة ، كان آغا الإنكشارية مسئولاً عن حماية النظام والأمن العام بوجه عام . وكان عدد من كبار ضباط الانكشارية تحت قيادته مسئولين عن الشئون المتعلقة بالشرطة بوجه خاص . وكانت واجباتهم حماية الشوارع ، ومنع الجرائم والمعاقبة عليها ، وتنفيذ قرارات وعقوبات السلطات الدينية ، والتي كان هؤلاء الضباط يعظمون رجالها لقيامهم بتطبيق وإجراء القوانين الإسلامية وأوامر السلطان .

وكان لكل من « البلاد الثلاثة » قاضيه الخاص ، مستقل عن قاضي استنبول . ولو أنهم كانوا في المرتبة الدنيا من طبقة رجال الدين الموروثة . وكان هؤلاء القضاة الأربعة مسئولين عن الشئون القضائية والدينية في دائرة العاصمة . وكانوا يحضرون معاً إلى الوزير الأعظم كل يوم الأربعاء . وإن عضواً آخر من طبقة العلماء صاحب وظائف هامة في المدينة ، كان المحتسب . ووظيفته فرض القوانين واللوائح المتعلقة بأسعار ومواصفات البضائع المعروضة للبيع في الأسواق ،

والمحافظة على الآداب والأخلاق العامة بوجه عام .

ويمكن أن نأخذ فكرة عن المشاكل التي كان على السلطات الدينية أن تعالجها . من أمر صدر في ٢٣ ربيع الأول ٩٨١ هـ (٢٣ يوليو ١٥٧٣)(١٧٤) من الديوان السلطاني وأرسل إلى قاضي استنبول :

أمرٌ إلى قاضي استنبول . كان الكفار في العهود السالفة ممنوعين عن أن يأتوا بالخمر إلى المدن ، وكانت الضرائب عن الخمر قد ألغيت . ولكن أورد هؤلاء الخمر عن طريق الاحتيال على أية أحوال . وحيث أنه لم تؤخذ أية ضرائب عليه فقد أضر ذلك بالخزينة الى حد كبير . ولقد أحيل هذا الأمر إلى المفتي الأكبر ، أعظم علماء عصره ، فافتى كما يلي : « يجوز جباية الخراج بنصف المقدار على الخمر الذي يستورده رعايا السلطان من غير المسلمين ، وبمقدار كامل على الخمر الذي يستورده الكفار الأجانب . وعلى أية حال ، لا يجوز استيراد الخمر علناً البتة في المدن التي تقام فيها صلاة الجمعة . وكذلك لا يجوز لهم أن يبيعوا علناً فيما بينهم الخمر الذي استوردوه سرّاً ، وبيعه الى المسلمين محرم بدرجة أولى . وإنهم إن باعوا الخمر بعضهم لبعض فينبغي أن لا يكون هذا علناً بأية حال من الأحوال » .

وعملاً بهذه الفتوى الشريفة ، عُيِّن مدير لجباية خراج الخمر ، وصدر أمر سلطاني بهذا الخصوص : لقد أتى إلى علمي في هذه الآونة أن اليهود والمسيحيين في مدينة استنبول المحروسة يُدخلون الخمر والكحول في البراميل والصناديق والقِرب علناً مخالفين الفتوى الشريفة ومرسومي السلطاني ، ويقيمون المآدب ، ويستعملون الموسيقى في اجتماعاتهم وحفلاتهم . وإنني لأجل ذلك أمرت بأنكم ، بمجرد استلامكم هذا الأمر ، تعطوا لليهود والمسيحيين انذاراً واضحاً ومناسباً ، وأيضاً لحراس أبواب (قپوچية) المدينة المحروسة ، بعدم استيراد الخمر إلى المدينة علناً في البراميل والصناديق والقِرَب ، وبأن لا يبيعوا للمسلمين ما يوردونه من الخمر سرّاً بالليل لاستعمالهم الشخصي ، وأن يبق بيع الخمر فيما بينهم سرّاً، وأن لا يحوّلوا

---

(١٧٤) كان ذلك في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤ م) . والجدير بالملاحظة هنا أن هذا الأمر قد صدر من سلطان أتهمه الغربيون بادمان الخمر ولقبوه بلقب « سليم السكير » ، فهل يعقل مثل هذا الاتهام إزاء مثل هذا الامر الصارم لمنع الخمر من المسلمين أو علناً فيما بينهم .

دورهم إلى حانات ، ولا يبيعوا الخمور والكحول علناً ، ولا يلعبوا الموسيقى في أعيادهم .

وصورة أخرى من وظائف السلطات الإسلامية تلاحظ من أمر صادر في ٢٦ رمضان ٩٩٣ هـ (٢١ سبتمبر ١٥٨٥ م) برفض طلب الجزارين في استنبول لتخفيف الضرائب .

أمرٌ إلى قاضي استنبول . لقد ذكرتم في خطاب لكم إلينا أن جزاري المدينة المحروسة قد أتوا إلى المحكمة الشرعية ورفعوا إليها بأنه « بينما سعر لحم الغنم في المدينة المحروسة ٤٠٠ درهم (٣ آقجة) للأقة(*) الواحدة ، نبيع نحن للإنكشارية حسب القانون القديم بسعر ١٥٠ درهم لأقة واحدة ، وفي خمسة أشهر ونصف شهر من سنة ٩٩٣ هـ ، ذبحنا ٢٣,٥٠٠ رأس غنم وبعنا لحمها للانكشارية حسب السعر المحدد المذكور ، ولا نقدر الآن لسبب الخسائر الناتجة عن ذلك على أن نسدد دين ٢٠٠,٠٠٠ آقجة الذي ندينه لتجار الغنم » . وذكرتم علاوة على ذلك أنه عندما التمس هؤلاء تخفيفاً في الضرائب الواجبة عليهم ، أكد مفتش الأغنام ، إلياس چاووش صدق ما قالوه .

فقد صدر في هذا الموضوع أمرُنا بأن القانون يجب اتباعه . كما أمرنا بأنه . . . كيفما يكون القانون القديم ، عليكم العمل بموجبه ، وتجنبوا من الآن فصاعداً عمل أي شيء خلافه .

وكان الطعام والشراب موضع عناية خاصة من بين وظائف السلطات الدينية ، وسلطات الشرطة في المدينة ، وكذلك كان القهوة والدخان لبعض الوقت . وأدخلت أول الذكر من البلاد العربية ومؤخر الذكر على أيدي التجار الإنجليز من المستعمرات الأمريكية . ويصف المؤرخ ابراهيم بيجوى ، في بعض كتاباته في ١٦٣٥ م ، إدخالها إلى استنبول في الكلمات التالية :

لم توجد حتى عام ٩٦٢ هـ (١٥٥٥ م) القهوة والمقاهي في حاضرة القسطنطينية المحروسة الرفيعة ولا في عامة البلاد العثمانية . وحوالي تلك السنة ، جاء إلى المدينة

(*) مقياس يزيد عن كيلو غرام قليلا ، ولا يزال يستعمل في السعودية .

رجل من حلب يدعى بحَكَم ، ومُضحك يدعى بشمس من دمشق ، وكلاهما فتح دكاناً واسعاً في الحي المسى بـ « تحت القلعة » . وبدءا يقدمان القهوة فيهما ، وأصبح هذان المحلان موضع الالتقاء لجماعة من باحثي المتعة والكسالى وأيضاً بعض المتظرفين من رجال العلم والأدب الذين أصبحوا يلتقون في مجموعات من حوالي ٢٠ أو ٣٠ شخصاً ، وكان بعضهم يقرأ الكتب والكتابات النفيسة ، والبعض الآخر يلعبون النرد والشطرنج ، وغيرهم الآخرون ينشدون قصائد جديدة ، ويتحدثون في شؤون الأدب . وإن الذين كانوا ينفقون مبالغ باهظة في تقديم الولائم في السهرات ، وجدوا انه بإمكانهم أن يحصلوا على متعة السهرة بمجرد إنفاق آقجة أو آقجتين في ثمن القهوة . وبلغ الأمر إلى حد أن جميع فئات الضباط غير المعينين في العمل ، وكذلك القضاة ، والأساتذة الباحثون عن الترقي ، والجالسون في زوايا العزلة الذين لا عمل لهم ، أعلن كل هؤلاء انه لا يوجد هناك مثل هذين المحلين للاستمتاع والاستجمام ، وأخذوا يزدحمون فيهما بحيث لـم يكن يبق هناك مكان للجلوس أو الوقوف . وأصبحا من الشهرة بمكان بحيث لم يستطع حتى كبار الأعيان الامتناع عن المجيء إليه بالإضافة الى أصحاب المناصب العليا. وكان الأئمة والمؤذنون والمتظاهرون من الأتقياء يقولون : « إن الناس باتوا مدمني المقاهي ولا يأتي احد إلى المسجد » وقال العلماء : « دار الأفاعيل الشريرة . والذهاب إلى الحانة أهون من الذهاب اليها » . وبذل الوعاظ جهودهم بوجه خاص للمنع من الذهاب إليهما ، وأصدر المفتون فتاوى ضدها ، محتجين بأن أي شيء طبخ إلى أن يستحيل إلى الفحم فهو حرام . وفي عهد السلطان مراد الثالث غفر الله له ورحمه كان هناك تشديد كبير على المنهيات والمحرمات ، ولكن اتصل بعض الأشخاص برئيس الشرطة وقبطان الحرس حول بيع القهوة من الأبواب الخلفية في الأزقة الفرعية ، وفي الدكاكين الصغيرة غير البارزة ، فسمح لهم بذلك . ولكنها أصبحت بعد هذا العهد من كثرة الانتشار بحيث ألغي المنع . وبدأ المفتون والوعاظ يقولون الآن ، إنها لا تصير الفحم تماماً ، ولأصل ذلك شربها حلال . ولم يبق أحد من بين العلماء ، والشيوخ ، والوزراء ، والعظماء من لم يشر بها . بل بلغ الأمر إلى حد أن رؤساء الوزراء أنشأوا المقاهي العظيمة لغرض الاستثمار ، وبدءوا يؤجرونها لقاء قطعة أو قطعتين ذهبيتين يومياً .

ويقول (نفس المؤرخ) عن تصاعد دخان التنباك الكريه الرائحة المؤدي إلى الغثيان :

لقد أتى به الكفار الإنجلير في سنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ ـ ١٦٠١ م) ، وباعوه كعلاج لأنواع من أمراض الرطوبة وقال بعض الناس من باحثي المتعة ، والشهوانيين · (ها هنا فرصة للمتعة) وأصبحوا مدمنين له وسرعان ما اخذ في استعماله أيضاً اولئك الذين لم يكونوا مجرد باحثي المتعة ، بل وقع كثير من كبار العلماء وأعاظم الرجال أسرى إدمانه . وكانت المقاهي تمتلىء بدخان أزرق ، بسبب التدخين غير المنقطع فيها للنرجيلة (أو الشيشة) إلى حد انه لم يكن يستطيع أولئك الذين يكونون فيها أن يرى بعضهم وجه بعض وأيضاً لم تترك غليوناتهم أيديهم في الأسواق والمتاجر . وإنهم بنفخ الدخان في وجوه وأعين بعضهم لبعض ، جعلوا الأسواق والطرقات تفوح برائحة كريهة ونظموا في مدحه أبياتاً سخيفة وأنشدوها بدون مناسبة .

وكنت أناقش بعض أصحابي حوله ، فأقول : « إن رائحنه الكريهة توسخ لحى بعض الناس وعمائمهم ، والملابس التي يلبسونها والمكان الذي يدخنون فيه . وإنه يشعل الحريق بعض الأحيان في السجاجيد ، واللباد ، والفراش ، ويوسخها جميعاً بالرماد والسواد » ويصعد بخاره إلى الدماغ بعد النوم وعلاوة على ذلك فان استعماله غير المنقطع يمنع الناس من العمل الشاق والاكتساب . ويعوق الأيدي عن الشغل . وما هي المتعة والمنفعة الممكنة الحصول منه في مقابل هذا الأثر الضار المؤذي وغير ذلك من الاضرار ؟

وكل ما استطاعوا أن يجيبوا به عليّ ، هو : «أنه كيفٌ ، وأكثر من ذلك متعة للذوق الجمالي ، إنه ليس بجواب ولكنه مجرد تحايل

وبالإضافة الى ذلك ، فانه كان سبب الحرائق العظيمة في القسطنطينية المحروسة العلية مرات عديدة ، وعانى آلاف من الرجال من تلك الحرائق . ويجوز التسليم بأنه مفيد فقط في حراسة العبيد العاملين في السفن ، فيمكن لهؤلاء ان يمنعوا عنهم النوم باستعماله لحد ما ، وذلك بحماية أنفسهم عن الرطوبة بواسطته ، لأنه يؤدي إلى اليُبس . ولكن لا يجوز عقلاً ولا نقلاً أن يرضى الانسان بمثل تلك المضرة العظيمة لمثل هذه المصلحة الصغيرة . ومنذ بداية عام ١٠٤٥ هـ (١٦٣٥ ـ ١٦٣٦ م) ، كان انتشاره واشتهاره قد بلغا من الحد بحيث لا يمكن الافصاح عنه أو الكتابه فيه .

وبالرغم من مثل هذا المنع والقمع ، فسرعان ما وجد هناك عدد كبير من هذه

المقاهي التي تقدم القهوة ، والدخان ، والحوار اللطيف ، وتستجلب المتظرفين والمثقفين ، والعلماء ، وكبار موظفي المدينة . ويقال ان « الشمس » قد عاد إلى حلب بعد ثلاث سنوات فقط رابحاً خمس آلاف قطعة ذهبية . بل أصدر بُستان زاده محمد أفندي ، المفتي الأكبر من ١٥٨٩ إلى ١٥٩٢ م ، ومن ١٥٩٣ إلى ١٥٩٨ م فتوى مفصلة منظومة أجاز فيها هذا المشروب الذي سمّاه أحد الشعراء العرب « العدو الأسود للنوم والحب » . وكان العلماء المحافظون الآخرون أعدائها . ويبدو أن مناقشة شؤون الدولة العامة في تلك المحال سبب وجه خطر للسلطات الحاكمة فأصدرت الأوامر ضدها ـ ولكن بدون فائدة ـ. وفي ١٦٣٣ م حرّم مراد الرابع المعروف بصرامته كلا القهوة والدخان ، وأعدم عدداً من الذين يشربون القهوة ويدخنون . والدافع المعلن عنه لإلقاء هذا العقاب ، كان حماية المدينة من الحرائق ، ولعل دافعاً آخر كان حماية الحكومة من التعليقات النقدية . ووافق عليه بيجوي بكل قلبه قائلاً :

مدّ الله القوي القادر في عمر امبراطورنا المطلق ، وقوته ، وعدله وانصافه (وأيّد أنصاره) الذي أغلق كافة المقاهي في بلاد الدولة المحروسة بأسرها ، وجعل الدكاكين المناسبة تفتح في مواضعها ، وأصدر أمره بمنع التدخين منعاً باتاً ، بهذه الوسائل ، قد أحسن إلى الفقير والغني على السواء . بحيث لو شكروه ، إلى يوم الحساب ما أمكنوا من تأدية واجب الشكر تأدية كافية

وبعد مزيد من المناقشات والنكسات ، قبِلَ « غير المتذوقين » ـ كما كان يطلق على اولئك الذين يناهضون القهوة والدخان ـ هزيمتهم ، وأعلن بإباحة التنباك في النهاية في فتوى صادرة من المفتي الأكبر محمد بهائي أفندي ، المدخن المكثار بنفسه ، والذي كان قد عزل ونُفي لتدخينه في عام ١٦٣٤ م . ويقول عنه معاصره كاتب جلبي(١٧٥) : « ومهما كان الأمر ففتواه في إباحة الدخان كانت صادرة لا بسبب

---

(١٧٥) وهو المؤرخ والعالم التركي ، المعروف لدى العرب بحاجيْ خليفة صاحب كتاب « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » . واسمه مصطفى بن عبد الله ، توفي في ١٠٥٨ هـ / ١٦٥٧ م .

إدمانه هو ، ولكن بتفكيره فيما كان الأجدر بأحوال الناس ، وباستناده إلى مبدأ شرعي ، وهو : « أن كل ما كان غير محرم بنص ظاهر فهو مباح » .

ولم تكن المقاهي وحدها من وسائل تسلية سكان استنبول . فكان هناك نوع محبب آخر لقضاء الوقت وهو النزهة . فكان ثمة عديد من الميادين الجميلة للنزهة في ضواحي المدينة ، كان يؤمها رجال البلاط وعامة الناس في الصيف وأوائل الشتاء . وكانت العيون الجبلية الصغيرة أحب أماكن النزهة بصفة خاصة حيث الغابات والبساتين على أطرافها . فكان يقصدها جماعات من المتنزهين من استنبول ، في قوارب صغيرة مزدانة ، لإمتاع أنفسهم وتجاذب أطراف الحديث بين الأشجار والنافورات والأزهار . وكان من هذا النوع العين الصغيرة (كجك سو) على الشاطىء الآسيوي للبوسفور ، والتي كان الأوربيون يسمونها « مياه آسيا الحلوة » . وكذلك كان « كاغد خانه » (Kalthana) في الطرف الأعلى للقرن الذهبي ، المعروف لدى الزوار (الاوربيين) باسم « مياه أوربا الحلوة » . وكان كاغد خانه ـ الذي أخذ اسمه من مصنع ورق بيزنطي قديم ـ موضعاً محبباً للنزهة منذ زمن الفتح ، وكان سليمان القانوني والسلاطين الآخرون قاموا بتجميله . وفي سنة ١٧٢١ م شيد هناك السلطان أحمد الثالث قصره الصيفي الجميل الشهير بـ « سعد آباد » ـ مكان السعادة ـ ، المبني حسب خريطة قصر فرنسي أحضره سفيره بباريس ، ومن جانبيه الطرق الواسعة المشجرة ، والبساتين ، والحدائق ، والنافورات ، والفوارات ، والشلالات ، وعدد كبير من أزهار تيولب (Tulip) المختلفة الالوان كانت قد أصبحت « موضة » في اختيار الأزهار آنذاك .

وكانت تقدم بعض وسائل التسلية من قبل السلطان ، كالمهرجانات التي تجري فيها المباريات الرياضية ، والاستعراضات العسكرية والنقابية ، والألعاب النارية والأضواء ، وذلك بمناسبات الاحتفال بالانتصارات المختلفة ، والأعياد الدينية ، ومناسبات الفرح الاخرى . وكان أحد هذه الاحتفالات قد أقيم بمناسبة ختان الأمير محمد بن السلطان مراد الثالث في ١٥٨٢ م أثناء الحرب ضد فارس .

ولقد وصفه أحد الزوار الأوربيين الذي قدم تفسيره الخاص ـ غير خارج عن نطاق التقليد الأوربي لمثل هذه التفسيرات ـ عن الغاية المقصودة من وراء مثل هذه الاحتفالات . وقد ظهرت ترجمة انجليزية لوصفه ذاك في لندن بعد بضع سنوات، وهو كما يلي :

في سنة سيدنا ومنقذنا ١٥٨٢ م ، بعد أن لاحظ السلطان مراد ، امبراطور تركيا ، أن شؤون دولته مضطربة ، وعواطف الشعب ضده ، قرر لكسب عواطفهم ، وتحبيب نفسه إليهم ، ولنيل تقديره الرائد في نفوسهم ، وأيضاً ليهابوه أكثر ، ولتزداد عظمته عند الأجانب ، والشعوب والبلاد الأجنبية للأبد ، قرر أن من الضروري المستحسن أن يقيم احتفالاً عظيماً بمناسبة ختان محمد ابنه . وللوصول إلى غايته المقصودة على أكمل وجه ، دعا معظم امراء المسيحية الكبار ، وهو يستهدف أنه يكون بذلك ـ لهذا الاحتفال شأن كبير في نظر جميع العالم . وفي الواقع ، أرسل كثير من الملوك المسلمين والمسيحيين سفراءهم إلى القسطنطينية ، ومنهم سفير امبراطور فرنسا ، وسفراء بولونيا ، والبندقية ، وايران ، وفاس (مراكش) ، والتتار ، وترانسلفانيا ، والبغدان (مولدافيا) وغيرهم الكثيرون من الأمراء .

وأصف لكم الآن المكان الذي قدمت فيه أنواع من وسائل التسلية والألعاب . إنه كان واسعاً عظيماً فخماً حيث اقيمت مسارح ضخمة ، والمقاصير الخشبية العالية الممتازة الموزعة في عدة أقسام ، كأنها قاعات أنشئت للسفراء ، تصلح للأكل كما تصلح لمشاهدة الألعاب والملاهي وكان مراد في أروع وأفخم هذه الأماكن بحيث يمكنه أن يشاهد من خلال الشُبيكات والنوافذ كل شيء وكل واحد دون أن يُرى هو ، وخلفه كانت امه وزوجته واخته ، وفي جانب منه كان سنان باشا (١٧٦) القائد العام ثم بقية امرائه ونبلائه ، وفي الجانب الآخر . كان سفراء الملوك والأمراء المذكورون . وكان في وسط هذه القاعة الكبرى فناء مبلط رائع ، مفتوح ومرئي من جميع الجهات . طوله ١,٨٠٠ قدم وعرضه ١,٢٠٠ قدم ؛ وهو في غاية الإتقان من

---

(١٧٦) هو الوزير الأعظم سنان باشا ، وكان أيضاً القائد العام للجيش . تولى الوزارة في ١٥٨٠ م .

التبليط ، وكان في نفس هذا المكان اهرامان رائعان قديمان ، أحدهما من الرخام مربع الشكل صنع في غاية الدقة ، وكانت هناك أربعة عواميد عظيمة قوية مربعة (من الأسفل) ومدورة مس الأعلى لحمل هذين الأهرامين . والثاني كان من الحجر نُصب ببراعة فائقة دون استعمال أي نوع من الأسمنت ومواد التلصيق الأخرى ويقرب هذين الأهرامين كان هناك عدد من الألواح الخشبية نصبت عالية جدا بحيث تبدو بأنها أعلى منهما بكثير ، وكانت أشكال هندسية مختلفة مصنوعة من الحبال مركبة في هده الأخشاب من أولها إلى آخرها في شكل المحاريب وربطت بها عددٌ لا يحصى من المصابيح رائعة جداً ، ركبت بمهارة فائقة ، وكانت تلقي ضوءاً ساطعاً عظيماً في المكان بأسره ، وثمة عجلة كبيرة تشبه لحد كبير بعجلة المطاحن الهوائية والتي كانت تدور باستمرار ؛ وهناك ايضاً خمسة تماثيل في شكل ووضع الأسطوانات العظيمة ، وهي عالية جداً ومصنوعة كلها من الشمع وملّوّنة بالألوان المختلفة الزاهية ، وتلمع لمعاناً قوياً بسبب الذهب الذي مُوّهت به كلها . وبالأختصار ، كانت جميع الأشياء قد نظمت بطريقة دقيقة متقنة وفخمة .

واقترب الآن يوم الختان ، وهو ١٨ مايو من السنة المذكورة . وسار مراد وابنه ، يرافقهم الأمراء والأعيان وعدد كبير من الضباط مع عدة آلاف من الناس في ابهة عظيمة خارج قلعته ، واتجه رأساً إلى المكان المعين لهذه الألعاب والملاهي . وعند نزولهم من فوق صهوات جيادهم ، شاهدوا في فناء القلعة الأسفل ثلاثمائة من الحيوانات الغريبة ، وكلها مصنوعة من السكر وفي اوضاع متنوعة مبتكرة وبعد الانتهاء من هذا ، ذهب ابن مراد تتبعه كتائب من الجنود العظام الشجعان ، لزيارة والدته ، لأنه من عادة الأتراك في ختان أبناء سلاطينهم أن ذلك الابن يجب عليه أن يذهب ويقول الوداع الأخير لأمه قبل الختان ، لأنه لا يراها بعد ذلك . وبعد وصوله إلى قصر والدته ، ترك أتباعه وراءه وذهب إليها ليؤدي واجب التحية . وبقي معها لمدة ساعتين ، ثم استأذن في نهاية هذا اللقاء بتأدب ، وفارقها إلى مكان الملاهي مباشرة ، وسأذكر لكم ما جرى فيه فيما يلي :

ونتابع الآن الكلام على الألعاب والتمثيليات والملاهي ، وأصفها لكم في ثلاث فقرات كما قدمت للمشاهدة في ثلاث فترات . وكانت إحداها ما سميت بالألعاب الصباحية ، والثانية بالألعاب المسائية والأخيرة بالألعاب الليلية . إن سكان القسطنطينية وأصحاب الحرف حضروا تلك الألعاب الصباحية في ملابسهم الملكية الفخمة . الجنود ، ورجال الحرب ، والعمال ، والمضحكون ، والقافزون ، (أي

لاعبي الجمباز) والراقصون ، والمهرجون وأمثالهم أدوا أدوارهم في الألعاب الصباحية . وأما الألعاب الليلية فقد اشتملت على إحراق الحصون والأسوار ، والخيول ، والأفيال والحيوانات الصناعية الأخرى .

والآن يجب علي أن أذكر الفرقة الثانية والأخيرة ، وهم المغنون ، والعازفون على الآلات الموسيقية ، والعلماء ، والدراوشة ، والمشعوذون ولاعبو الألعاب البهلوانية ، والممثلون : الأناس الذين يتشابهون بين الأتراك في طريقة المعيشة واللبس والحركة من مكان إلى مكان كما تشبه قطرة من الحليب الأخرى ، لا أكثر ولا أقل ، إن قلوب المغنين والموسيقيين تتحد وتنسجم إلى حد كبير بفرقة الجنود المتمردين ويمكنكم هنا ان تشاهدوا العرب ، والمغاربة ، والغرس ، واليونانيين ، والاسبانيين ينفخون في مزاميرهم وأبواقهم ، ويضربون على طبولهم وصنجاتهم وغيرها من الآلات الموسيقية في الساحة أو الفناء المبلط حيث قاموا بصياح وتصويت مختلط بدون نغم ، وتغيير صوت ، أو مراعاة فواصل النغم إلى أن ضجت المدينة كلها ، ورنّت باختلاط صراخهم وأصواتهم العالية . وفي النهاية سار العلماء الذين - والحق يقال - لا يمكنكم أن تتصوروهم علماء في مظاهرهم تلك ، بل بالأحرى الحجاج والرهبان المتسولين ، لأنه لا يمكن لأحد أن يتصورهم غير ذلك ، وهو يشاهدهم في تلك الأغطية ، والقبعات البيض المربوطة بأشرطة حول أوساطهم ، حفاة الأقدام ، وأيديهم قذرة نتنه ، ووجوه جد قذرة كريهة المنظر (١٧٧) . وقدم هؤلاء إلى مراد بعض كتب و أوراق ملوّنة من اختراعهم . ثم تبعهم الدراوشة في جماعة من الحجاج الفقراء الذين يذهبون للحج إلى مكة كما يسمونها والتي هي ضريح محمد (١٧٨) ويُعتبر هؤلاء اناس مقدسون جداً في تركيا ، في ثياب

---

(١٧٧) يدل هذا الكلام على جهل هذا السفير أو المبعوث الانكليزي وتعصبه الممقوت ضد الاتراك العثمانيين ، فالعلماء في الإسلام ولدى الاتراك لم يكونوا يربطون القبعات بأوساطهم ، وإذا قصد هذا الوصف العمائم فانه كانوا يلفونها على رؤ وسهم ، كما أنه من المستحيل أن يصفهم الإنسان بالقذارة والهيئة التي صورهم بها هذا الانكليزي . بل عدم الاغتسال والقذارة كانت فضيلة لدى الرهبان المسيحيين عبر العصور كما يعرفه الجميع ، بينما النظافة في الإسلام من الإيمان . ولعله قصد بعض الدراوشة فأخطأ في التسمية .

(١٧٨) وهذا مثال واضح لجهل هذا المبعوث الانكليزي الذي اعتبر مكة ضريحاً للرسول صلى الله=

العلماء ، والذين لا يقومون باي عمـل غير إجهاد انفسهم بتحريك اجسامهم إلى الأعلى والأسفل ، ويُتعبون أنفسهم بهذه الطريقة بحيث أنهم يفقدون في النهاية كل ذكائهم وفهمهم . وبما أنهم لا يستريحون ولا يتوقفون في أي مكان وفي أية لحظة بل يقفزون ويرقصون باستمرار فيمكن لواحد أن يشبههم بكل ثقة بـ كورتيس (Curetes) وكـوريبانتيس (Corebantes) السادنين القديمين لـ سيبل (١٧٩) (Cybele) جدة هذين الوثنيين . وإليهم وحدهم من بين جميع الامراء آمر مراد بتقديم كثير من الهدايا الصغيرة . وتبعهم في الحال الممثلون في عدد أكثر من النمل والبعوض . تمثل طائفة منهم وجوه الحكماء لما لبسوه من وجوه مستعارة (أو الأقنعة التنكرية) . وآخرون يحملون العصي ويلبسون التيجان كالباباوات ، وتبدو وجوههم وهم محلوقو الرأس أو نصف محلوقي الرأس كأغرب ما تكون ، ويلحي (مثل لحى) الماعز ، وبأفواههم الفاغرة يبدون كأنهم قد يكونوا بلعوا عدداً مماثلاً بعدد من يشاهدونهم . وبعضهم مزقوا جميع ملابسهم وصيّروها وكأنها مربوطة فوق آذانهم ، والآخرون نصف عراة ، والآخرون عراة تماماً وقليلو الحياء دون حد .

ولكني أبدأ اولاً لمباراة المصارعين وهي رياضة مقبولة إلى حد كبير لدى الأقدمين . وكانت بشكل حازت إعجاب جميع من كانوا يشاهدونها . فانه بمجرد ما انتهى النقيب من الإعلان بالبدء ، هرع إلى المكان خمسة عشر زوجاً من المصارعين وكلهم عراة ومدهونين (بزيت) حسب المألوف القديم ، ويمسك بعضهم بعضاً ،

عليه وسلم ، والعياذ بالله . والحج عنده زيارة هذا الضريح . وهكذا كانت اوربا الغارقة في الجهل حينذاك تتصور الإسلام ونبي الإسلام . ومن المؤسف أن بروفسور برنارد لويس استاذ التاريخ الإسلامي في جامعة لندن ينقل كل هذا الهراء والسخف والتهجم دون أي تعقيب أو تصحيح .

ومن الجدير بالذكر أن انكلترا لم تكن لها علاقات دبلوماسية مع الدولة العثمانية حتى ذلك الحين بخلاف فرنسا والنمسا . وكانت ملكتها اليزابيث تحاول عن طريق الاتصال مع السلطانة صفية ، زوجة السلطان مراد الثالث ، وإرسال الهدايا إليها أن تفوز باقامة مثل هذه العلاقات .

(٧٩) إلهة وأم عدد من الآلهة في الأساطير اليونانية . وكورتيس وكريبانتيس أنصاف الآلهة اللذان كان يرقصان لهذه الإلهة ولزيوس الصغير في طقوسهم الاسطورية الخرافية . انظر Every-man's Classical Dictionary, by John Warrington pp. 174, 166, 251

كل واحد مع نده . وقفز ودار واحد من بين البقية وركز نفسه في وسط الحلبة ، وهو يعرض أكتافه العريضة ، ويهز ذراعيه كما فعل دارا (Dares) حسب كلام فرجيل (Virgil) وتحدى هائجاً بقية المصارعين . وفجأة جاء أمامه للمصارعة شاب لا يقل عنه في القوة والضخامة . وبدأ يحرك أرجله بالقوة إلى الأمام ولكماته في الهواء . ثم بعد أن قرأ دعاءاً بصوت عال وجال في الحلبة قليلاً ، ليجعل نفسه خفيف الحركة سريع الهجوم ، أمسكه بشدة ونازله'، وشيئاً فشيئاً تشابكت أيديهما ، وأخذ الواحد يمسك بالآخر ، ويصرعه على الأرض مسطحاً على أنفه ، فيقوم هذا مرة أخرى ويصرع الثاني . وتصارعا هكذا بقوة بالدفع والرمي على الأرض حيناً ، وبالإمساك والشد وجهاً لوجه حيناً آخر منتقلين من مواضعهما ورفع بعضهما لبعض في الهواء حيناً ثالثاً . ودار أحدهما لكي يمسك ويشد برجل الآخر بقوة ، ثم بدأ يضرب لكمة إثر لكمة ، ولكن الآخر تمكن من افتكاك رجليه والتخلص من خصمه ، ثم انقض عليه بجدية وخفة كي يجعله يخسر كل ما قام به من مشقة الهجوم . والآن بعد أن قضيا ثلاث ساعات في الحلبة كان كلاهما منهوكاً يلهث إلى حد بالغ ، ومع ذلك كان يحترق بالغيظ وحب الانتصار ضد الآخر . ومن المخجل أن كان جميع رجال البلاط ـ وهم واقفون كل هذا الوقت ـ يشاهدونهما ويصدرون الأحكام عليهما(١٨٠) ، إلا أنهما كانا في النهاية على وشك أن يكفّا ويريحا أنفسهما . وعند ذلك أمرهما مراد بالمغادرة . ثم جاء الآخرون حسب الترتيب . لكنهم لم يصارعوا بكل هذه الشدة ولا بمثل هذا الوقت الطويل كما فعل الزوج الأول ، وهذا كل ما قام به المصارعون

ولنختم الآن (إذا أحببتم) ولنصف لكم المشاهد التي ابتكروها ، والتي كان موعد مشاهدتها في الليل . وبالرغم من أنها لم تكن تختلف كثيراً عن الألعاب في النهار فاني سأذكرها لكم باختصار ، إنهم أوقدوا بعد غروب الشمس مباشرة المصابيح التي كانت ربطت بالمحاريب المعلقة والدوائر المصنوعة من الحبال (والتي تحدثت عنها فيما سبق) . وكانت هذه المصابيح مدورة الشكل في غاية المهارة وإتقان الصنع .

---

(٨٠) ولسنا ندري ، ولا يدري أي قارىء ، ما هو موضع الخجل في هذه المصارعة الرياضية ، بل الخجل كل الخجل في تاريخ اولئك الرومان ، مصدر الحضارة الغربية ، الذين كانوا يتمتعون بمشاهدة مصارعة العبيد (Gladiators) الوحشية للسباع الضارية أو بعضهم لبعض ، والتي كانت تنتهي بقتل بعض هؤلاء العبيد على أيدي السباع أو زملائهم . وهي لا تزال ممثلة في مصارعة الثيران الوحشية البشعة في اسبانيا .

وأضاءت بتمام الصفاء ، وظلت موقدة طوال الليل . وزيادة على ذلك ، فكانت تشعل ثلاثين مشعلاً كل ليلة في الساحة المذكورة ، تعطي لساحة المسرح كلها ضياءاً ساطعاً براقاً . وبعد أن نظمت كل الأشياء على هذا الوضع ، أطلقوا الألعاب النارية المليئة بالبارود والتي أخرجت دوياً وقصفاً غريباً معجباً ، وعند سقوطها على الأرض لفظت ست أو سبع شرارات كالنجوم البديعة المنظر .

وبالإضافة إلى كل ذلك فقد أحضروا في هده الساحة كل يوم ست أو ثماني وعلى الأكثر عشر قلاع وأبراج وسفن مصنوعة من ألواح الخشب، ومغطاة بالورق تغطية حسنة ، او بقماش الكتان المذهب الغالي الفخم ، عليها صور وألوان منوعة ، ثم أشعلوا فيها النار . وكانت قد صنعت قوية من الداخل ومن الخارج ، وفي جميع جوانبها قطع صغيرة كما تكون في المدافع ، من نوع مدافع الحديد الصغيرة ، وفيها كثير من الحلقات او الدوائر والتي تستعمل في السفن فقط وذلك للقصف من البحرية ، ومجهزة تجهيزاً حسناً بقذائف صاروخية، وبارود للمدافع الكبيرة دون نقص أو قلة . وبمجرد ما أشعلت فيها النار خرج مها دويّ هائل كدويّ الرعد والبرق ، وطارت تلك القذائف في الهواء كالحيات وسقطت خارج المسرح غير بعيد عنه ، وكانت في نهاية هذا الهول أو الضجة تخرج أصواتاً كأصوات البوق والطبول . ولم يكن هذا الضجيج بهجاً على الإطلاق ، بل كانت بالأحرى صورة وتمثيلاً لفتح القسطنطينية .

وفوق ذلك كله ، لو شاهدتم صور وهيئات الرجال في ملابس الفرس والطليان والألمان ، وأيضاً صور الأفيال ، والجمال ، والكلاب ، والخيول ، والحمير والديك البريّة وغير ذلك من الحيوانات وكلها مليئة بطلقات المدافع والبارود ، والتي كأنها أشعلوا فيها النار فصارت وكأنها لم تكن شيئاً ، لعجبتم .

استمرت هذه الألعاب إلى الساعة الثانية بعد الليل ، وبعض الأحيان إلى الثالثة (بأمر من مراد) .

٦

الدّين وَالعِلم

كان من المألوف بين مسيحيي أوربا في زمن ما أن يستعملوا كلمة « ترك » كمترادف لكلمة مسلم ، ويقولوا عن أي شخص اهتدى إلى الإسلام بأنه أصبح « تركاً » . ولم يكن هذا التعبير بعيداً عن المنطق . فان الإمبراطورية العثمانية من مبدء نشوئها إلى نهاية أمرها كانت دولة إسلامية ، نذرت نفسها أولاً لحمل راية الإسلام إلى أقطار جديدة ثم الدفاع عنه ضد الكفار . ومنذ القرن السادس عشر ، شملت ممتلكاتها مراكز الإسلام الأولى ـ مدينتي مكة والمدينة المقدستين وعاصمتي الخلفاء الأقدمين دمشق وبغداد ـ ثم انها كانت آخر الإمبراطوريات الإسلامية وبالتأكيد أطولها عمراً ولعل أعظمها قاطبة . وكان حاكمها الأعلى حاكم الإسلام الأعلى حسب تعبير كتابها ورجالها الرسميين . وجيوشها جيوش الإسلام . وقوانينها قوانين الإسلام والتي كان من واجب السلطان أن يتمسك بها ويقوم بتطبيقها . وكان يساعده في القيام بهذا الواجب طبقة كهنوتية[١٨١] عظيمة من العلماء والفقهاء ، حماة الشريعة المطهرة .

---

(١٨١) لا توجد في الإسلام طبقة كهنوتية بمعناها المعروف . ويكابر المؤلف في السطور القادمة ، ويصر على تسمية علماء الدين الإسلامي بطبقة الكهنوت . وبينهما فرق شاسع . فليس العلماء والفقهاء في الإسلام وسطاء بين العبد وخالقه كما هو الأمر في الديانة المسيحية .

لقد قيل مراراً بأنه لا يوجد رجال الكهنوت في الإسلام ، ـ أي لا توجد فيه وظيفة « القداسة الكهنوتية » ولا توجد فيه وساطة رجل الدين بين الله والإنسان كما يمكن أن يقال انه لا مكان للمحامين في الإسلام ، بمعنى أن الإسلام لا يقر بوظيفة التشريع للإنسان ولا بنظام قانوني مقبول غير شريعة الله . ولكن ثمت في الحقيقة منذ العهود الأولى طائفة من رجال الدين المختصين الذين قاموا بتأدية عمل كل من المحامين ورجال الكهنوت ، وهم علماء الشريعة وفقهاء الإسلام الروحانيين . ليس ثمة تفريق واضح في الإسلام بين القانون والدين، ولا بين الجريمة والذنب. إن مبادىء العقيدة ، وسنن الطقوس والعبادة ، والقانون المدني والجنائي ـ كلها صادرة من سلطة واحدة ، وكلها مدعمة بنفس التصديقات الالهية العليا . واتجه اولئك الذين كانوا مختصين بها من حيث المهنة إلى تخصصات أخرى في نفس نظام العلم الأساسي . وكان هذا العلم من اختصاص العلماء ـ اي الذين يعلمون . وفي العهود العثمانية ، كانت طبقتهم المنظمة ذات الدرجات تدعى بـ « علمية » .

وكان العلماء يتضلعون في موضوعين رئيسيين : العقائد والقانون (الشريعة) ، ومواهبهم تظهر في مهنتين عظيمتين : التعليم والقضاء . وكان هذان متصلان متقاربان وفي الحقيقة شكّلا جزءاً من نفس سلم التقدم المهني . وكان أصحاب الوظائف العليا يُدعون بـ « مُلاّ » ، وهي كلمة عربية الأصل بمعنى المتبوع أو السيد ، وكان يطلق هذا اللقب على كبار الشخصيات الدينية في العاصمة ، وعلى من يشغل مناصب معينة في أمكنة أخرى ، وهم مرتبون في درجات ومراتب .

ولا تملك الدولة حسب نظرية فقهاء المسلمين الدقيقة سلطة التشريع بل الله فقط يضع القانون ويعلنه بواسطة الوحي . وهكذا فقانون الإسلام المقدس أي الشريعة بُنيت على القرآن والسنة النبوية التي دوّنها وفسّرها العلماء الأوائل . وليست وظيفة الحاكم الأعلى وضع أو حتى تعديل هذا القانون الذي هو سابق على وظيفته هو ، ومقرِّر لها ، وإنما وظيفته التمسك به وتنفيذه . وكذلك ليست وظيفة الفقهاء

تنقيح وإصلاح هذا القانون الذي هو سماوي وخالد فضلاً عن تبديله ، وإنما وظيفتهم تنحصر في تفسيره وتطبيقه .

ولكن الضرورات العملية لتفسير وتطبيق هذا القانون أعطت لإرادة الحاكم الأعلى ومهارة رجال الشريعة مجالاً أوسع مما يسمح به ظواهر النصوص الشرعية . وكثيراً ما ظلت قوانين الأعراف للشعوب وأقاليم الإمبراطورية متبعة ، ولعبت دوراً ذات أهمية في نظام العدل القـائم . وعالجت إرادة الحاكم ، كما عبَّر عنها في الفـرمانات ،مشاكل الشؤون المالية والجنائية التي لم تقدم لها الشريعة في كتبها حلولاً فورية وواضحة ، وذلك بصورة ملحوظة وبسهولة وكفاية . فكانت تصدر من حين لحين مجموعات من اللوائح المعروفة بـ « قانون » والمجموعة في « قانون نامه(*) » . وكانت بعض هذه المجاميع عامة وبعضها متعلقة بمناطق معينة أو أمور معينة ،ولكنها لم تكن قوانين أو لوائح بمعناها الدقيق ، بل الأحرى بنود مرتبة للقانون السائر لغرض التسهيل الإداري . وكانت مبنية على الشريعة ، والعرف ، والمراسيم . وكثير من هذه القوانين كانت قد أعلنت في حكم سليمان العظيم الذي يعرف في التواريخ العثمانية بسليمان القانوني . وكان علماء الشريعة من فئتيـن : القضاة والمفتون . وكان الأولون ـ الأكثر عدداً بدرجة ملحوظة في الإمبراطورية العثمانية ـ ينظرون في قضايا العدل ويصدرون فيها الأحكام ، بينما كان مؤخرو الذكر يصدرون الفتاوى في المسائل القانونية عندما يستشارون .

كان العلماء العثمانيون الأوائل من الشرق ، والذين عيّنهم السلاطين قضاة في المدن المختلفة التي فتحوها . وعين مراد الأول رئيساً للقضاة لأول مرة ، ومنحه لقب قاضي عسكر أي قاضي الجيش . وعُيِّن آخر مثله(١٨٢) من قبل السلطان محمد الثاني

(*) أي كتاب القانون أو مجموعة القوانين .

(١٨٢) وكان الأول يسمى قاضي عسكر الأناضول والثاني قاضي عسكر الروملي (أو البلقان) .

(الفاتح) . ومن هذه البداية نمت طبقة عظيمة ذات درجات لأصحاب الوظائف القضائية ـ الدينية لم تعرف مثلها في الإسلام من قبل . وكان يترأسها في اول الأمر قاضيا عسكر . ثم اخذ مفتي استنبول الأكبر الذي أصبح يعرف بشيخ الإسلام يرتفع في السلطة ، وغدا يعترف به في أوائل القرن السادس عشر الميلادي كأكبر الشخصيات الدينية قاطبة . وأعلن عن سلطته ونفوذه في قوانين رسوم البلاط ، ويأتي ترتيبه حسب تلك القوانين بعد الوزير الأعظم مباشرة ، والذي له فقط كان شيخ الإسلام يؤدي زيارات المجاملة . ويبدو انه فيما بعد أصبح مساوياً للوزير الأعظم في الرتبة ، بل وكان يتطلب من السلطان أن يقوم بزيارته في بعض المناسبات . وكان عمله السياسي الرئيسي إصدار الفتاوى حسب الشريعة الإسلامية في الشؤون السياسية العامة . وهكذا فكان يصح أن يسأل في توثيق إعلان حرب ، أو في عزل سلطان ، أو الموافقة على إصدار قوانين وضوابط جديدة . وفي القرن السادس عشر الميلادي عندما كان النفوذ الإسلامي يتزايد بسرعة فائقة ، لعب المفتون الكبار أو رؤساء المفتين وهيئآت موظفيهم دوراً هاماً في التوفيق بين قوانين الشريعة وبين ما كانت تمارسه الإدارة الحكومية العثمانية بالفعل .

وكان شيخ الإسلام يشرف على عدد ضخم من القضاة والمفتين ، لهم صلاحيات قضائية في المناطق الإقليمية المختلفة كما هو الحال مع قضاة واساقفة المسيحيين . وكانت تحت سلطته الإدارية أيضاً الجوامع والمساجد والقائمون بشؤونها كالأئمة والمؤذنين والخطباء ، وكذلك المدارس مع فئآتها الخاصة من أطفال المدارس والطلبة والمربين ، والمدرسين ، والاساتذة ، والمديـرين . وفي هذه المدارس ، كان أفراد الطبقات البيروقراطية والدينية يتلقون تعليمهم . وكان الكثير من المناصب البيروقراطية العليا يشغلها أفراد طبقة العلماء .

كما كان كثير من العلماء يقومون بوظيفة التدريس، وكانت أعلى هذه الوظائف الاستاذية الكبرى في معاهد استنبول العليا . وهي ما انشأها السلطان محمد الفاتح والسلطان سليمان القانوني وغيرهما من الشخصيات الكثيرة الأخرى ، وكانت

مناهجها الدراسية تتكون بصفة خاصة من علوم الدين والشريعة ، ولكن اعطى أيضاً جانب من الأهمية ولو قليلاً لما يسمى بالعلوم العقلية ، كالتاريخ الطبيعي ، والفلك والرياضيات . كما كان يدرس أيضاً الطب ـ حسب مدرسة القرون الوسطى الإسلامية . وكانت مهنة الطب تُعد من فرع « علمية » (اي العلوم) . وكان أساتذة المعاهد مرتبين في درجات ، وأعلاها مرحلة يعترف بها كسلّم إلى منصب القاضي أو إحدى الوظائف المدنية الكبرى في الدولة مثل « نشانجي » و« دفتردار » (أي سكرتير الدولة ورئيس الشؤ ون المالية على التوالي) التي كان يشغلها العلماء . وإن القضاة بجانب قيامهم بمهمة القضاء كانوا يقومون أيضاً بحفظ كثير من سجلات الولايات ، بل كانوا في الواقع، ممثلي السلطة التنفيذية في المراكز الإقليمية الصغيرة . ولم تكن للمفتي الأكبر السلطة الزمنية ، إذ أنه لم يكن يستطيع إلا الإجابة على ما توجه اليه من الأسئلة لا إثارتها . ولكنه رغم ذلك كله كان يتمتع بمكانة مرموقة بصفته المفسر الرسمي الأعلى للشريعة التي كان السلطان نفسه خاضعاً لها ، كما كان يجمع في يده قوة فعالة عظيمة بصفته رئيس طبقة دينية منظمة .

وكانت هذه الطبقة الدينية تتمتع بصلاحيات مراقبة القانون ، والقضاء والشؤ ون الدينية والتعليم بدون أي تدخل من الحكومة ، كما كانت أيضاً تتمتع بالاستقلال المالي . وكان العلماء أنفسهم معفون من الضرائب . وكانوا يستطيعون ، بخلاف زملائهم في « منظمة المماليك » ، نقل ممتلكاتهم بل درجاتهم من جيل إلى جيل ، وهكذا شكل هؤ لاء طبقة مالية وراثية حقيقية . وأكثر من ذلك فانه كان في أيديهم مراقبة أموال الأوقاف الطائلة ، أي الأراضي العقارية وغيرها من الممتلكات ذات الدخل الثابت التي وقفت على مؤسسات خيرية للأغراض الدينية القريبة أو البعيدة . وإنها بدون شك كانت تشمل الأوقاف الكثيرة التي أسست للمصالح الخيرية الأصيلة كما اشتملت أيضاً على عدد متزايد لتلك التي سميت بالأوقاف المدنية أو أوقاف الأسرة ، والتي تنتقل الإفادة منها من الأب إلى الابن لأجيال متعاقبة ، مع نوع من الضمان المالي لا يوجد في أي شكل آخر للوظيفة او المنحة . وبمرور الزمن تحولت عقارات واسعة إلى الوقف ، كان يشرف على دخلها الإداريون الذين تعينهم

طبقة العلماء من أنفسهم كما أشارت إليه مادام ورتلي مونتيجو Lady Worthly) Montagu) في خطاب لها عام ١٧١٧ م :

> إن هذه الجماعة من الرجال مؤهلون (لشغل) مناصب القضاء والدين على السواء ، ذينك العلمين اللذين صُبا في قالب علم واحد في تركيا ، والقاضي ورجل الدين كلمة واحدة في لغتها . إنهم وحدهم اناس دوو اعتبار عظيم حقيقي في الإمبراطورية ،وكافة الوظائف المهمة والأوقاف الدينية في أيديهم . والسيد العظيم (أي السلطان) رغم كونه وريثاً عاماً لشعبه لا يحاول المساس أبداً باراضيهم أو بأموالهم التي تذهب في وراثة غير منقطعة إلى أولادهم. صحيح أنهم يفقدون هذه المزية بقبول وظيفة في البلاط أو بلقب الباشا ، ولكنه لا توجد إلا أمثلة نادرة لأمثال هؤلاء الحمقى بينهم . وبامكانكم أن تقدروا بسهولة قوة هؤلاء الرجال الذين قد حصلوا على جميع العلم ، وعلى جميع ثروة الإمبراطورية على وجه التقريب .

كان رؤساء العلماء العثمانيين ، في الفترة الأولى ، على الأغلب من النازحين من بلاد ذات حضارة إسلامية قديمة ، من فارس ، والبلاد العربية أو من أولئك الذين كانوا قد هاجروا إليها لأجل الحصول على العلم . ولكنهم كانوا منذ القرن السادس عشر الميلادي ، في الغالب ، من الأتراك العثمانيين ، وتخرجوا من مراكزهم للتعليم العالي في العاصمة أو المراكز العلمية في الأقاليم . ورغم هذه الحقيقة بأن الوظائف الدينية كانت تتجه نحو التحول إلى وظائف وراثية ، فان هؤلاء العلماء لم يصبحوا أبداً طبقة دينية مغلقة على نفسها . إذ وجد رجال من الجيل الثاني في « منظمة المماليك » ، أي أولاد ضباط القصر والجيش مجالاً للنبوغ في الدين في كثير من الأحيان كما وجد المسلمون الأحرار الولادة من أصول متواضعة، أي المعتقين وأصحاب الحرف وحتى رجال القبائل بعض الأحيان ، وجد كل هؤلاء طريقهم إلى صفوف العلماء عن طريق المعاهد العلمية . وإن التعليم رغم كونه غير شائع شيوعاً عاماً كان بالمجان ، بل كانت تقدم المنح للطلبة ، وكان بامكان طالب ذكي لامع لا وسائل له أن يرتقي بواسطة سلم طبقة العلماء إلى أرفع المناصب .

كان العلماء رجال الفقه والدين ، وكان دينهم فقهياً أصولياً ودقيقاً . أما عامة

الناس فقد ظهر لهم هؤلاء كأصحاب السلطان ، وأكثر الأحيان أصحاب الغنى وهم في وظائف القضاء والتعليم . وكان من وراء ظهرهم (لمساندتهم) هيبة القانون وقوة الدولة ، وانه كان بعيداً إلى حد لا يقاس(١٨٣) حتى أبعد من ممثله السلطان .

إن فروض العبادة في المساجد بسيطة صارمة . والإسلام الصحيح (السلفي) قد رفض الرقص ، كالمسيحية واليهودية ، في عبادته وطقوسه الدينية ، بل زاد على الديانتين الشقيقتين له فحرّم الموسيقى والشعر (في العبادة) وحدد تراتيله في نصوص بسيطة(١٨٤) خاشعة مأخوذة في الغالب من القرآن . وإن المسجد ليس فيه « مذبح » (Altar) ، ولا مكان القداس ، لأنه لا يوجد في الإسلام مراسم القداس والسيامة ، وليس الإمام قسيساً ولا راعي الابرشية ، وإنما هو إمام في الصلاة ، ويمكن أن يرشد المؤمن في الأمور الشرعية والفروض الدينية ، ولكنه لا يجوز أن يقف وسيطاً بينه وبين الله . وإن صلاة الجماعة عمل منظم موحد لإظهار الخضوع أمام ذات واحدة ، الله البعيد(١٨٥) العليّ ، كما أن الإسلام لا يعترف بأي

---

(١٨٣) وهذا مثال آخر من تهم المؤلف الباطلة ضد الإسلام. فالمسلم مهما كان ضئيلاً في العلم ووضيعاً في المجتمع لا يعتقد ولا يشعر أبداً أن الله بعيد عنه . كيف وإنه يقف أمامه كل يوم خمس مرات في الصلاة. ويعلمه القرآن أنه «أقرب إليه من حبل الوريد» .
وكل من له أدنى معرفة بالإسلام وبسلاطين وحكام الإسلام، ومنهم العثمانيون، يعرف جيداً ان الحاكم ليس ممثلاً لله في الإسلام. وإنما ذلك في المسيحية، وفي المذهب الكاثوليكي منها بصفة خاصة، حيث الباب هو ممثل الله على وجه الأرض، ويعطي صكوك الغفران، ويبدل في الدين كما يشاء. والمؤلف لا يجهل هذه الحقيقة ولكنه يكابر حقداً وعدواناً .

(١٨٤) إن المسلم يقرأ في صلاته ما يشاء من سور القرآن وآياته الكثيرة المتنوعة بالاضافة الى تكرار الفاتحة في كل ركعة من الصلاة، فليس يقال انها نصوص بسيطة تكرر وتعاد كما هي «صلاة الرب» (Lords Prayer) عند المسيحيين .

(١٨٥) يضرب المؤلف مرة اخرى على نغمة بُعد الله سبحانه وتعالى عن عباده في الإسلام، وليس ذلك إلا من ابتداع فكره وأوهامه ودسائسه ولا أقول جهله فانه لا بد أن يعرف أن القرآن الكريم في غير آية ذكر قرب الله الشديد من عباده المخلصين ،فجاء في سورة=

شكل روائي ولا بغموض ، وليس فيه مكان للموسيقى التعبدية ، والشعر التعبدي ، وبدرجة أولى للرسوم والتماثيل والتي تحرمها التقوى الإسلامية باعتبارها ضلالة قريبة الشبه بالوثنية . ومن ثم استعمل الفنانون المسلمون ، عوضاً عنها ، تصميمات مجردة ، بنقوش بديعة دقيقة مبنية على الكتابات الدينية في الخط العربي ، أغلبها اقتباسات من القرآن . وبلغ فن الخط على أيدي أسياد الفن العظام قمته من الروعة الفنية ليست سهلة المنال لأولئك الذين تربّوا في بيئة دينية وجمالية أخرى .

إن ترفع العلماء المتشددين من أصحاب الامتيازات ، وجفاف عبادتهم والشرعية الباردة لمبادئهم فشلت في أن تلبي الحاجات الاجتماعية والروحية لكثير من المسلمين فاتجهوا نحو غيرهم لطلب العون والإرشاد(١٨٦) ، وكثيراً ما اتبعوا ، في

= البقرة : «واذا سألك عبادي فإني قريب. أجيب دعوة الداع اذا دعاني . . الخ » وجاء في سورة «ق»: «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد». ونبي الإسلام قال في حديثه الصحيح : «اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

فهل بعد هذا كله يحاول بروفسور برنارد لويس تشويه الإسلام وتضليل القارىء في كتاب تاريخي ؟ !

(١٨٦) إن هذا التهجم على العبادات الإسلامية ينم عن جهل بها أو تجاهل: وانه لسخف وافتراء . فاذا لم يجد المسلمون تلبية أشواقهم الروحية في صلاتهم ومناجاتهم لله وفي تلاوة القرآن ، وسيرة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام وسير أصحابه وأئمة الدين فأين يجدونها ؟ هل في تكالب البابوات على زهرة الحياة الدنيا ونعيمهم وترفهم ، أو في مادية اليهود الرعناء عبر التاريخ . وفي أية مدرسة تربى الزهاد الأوائل في الإسلام ، ابو بكر وعمر وعلي وابو ذر الغفاري ومصعب ابن عمير والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي وعشرات بل مئات غيرهم . وتعاليم الشيعة التي يتحدث عنها المؤلف لم تكن في عهودها الأولى إلا مبادىء سياسية كما هو معروف لدى كل دارس لتاريخ الإسلام . ولم تبقَ آثار عقائد الشيعة في الديانة الشعبية . وليلاحظ القارىء أن المؤلف الذي تصدى لكتابة الحضارة الامبراطورية العثمانية انتهز الفرصة فمال إلى التهجم على الإسلام ، وشرح مبادئه حسب أهوائه وميوله . ومن المعروف أنه كان للعلماء والفقهاء في الدولة العثمانية مكانة رفيعة ولهم صلات حب واحترام مع أصحاب الطرق الصوفية السنّية .

العهود الأولى ، تعاليم الشيعة التي يعتبرها العلماء السنّيون بدعة وضلالة ، وبقيت كثير من آثار عقائد الشيعة في الديانة الشعبية . وكان أهم من ذلك تأثير الصوفية الذين كانوا قد نظموا أنفسهم في منظمات الاخوة الدراوشة منذ القرون الوسطى ، واتبع كل منها نظاماً صوفياً خاصاً يدعى بـ « الطريقة » . ولقد أضافت هذه « الطرق » الكثير الذي كان ينقص الإسلام السلفي ، وملأوا الفراغ الذي تركته «السلفية» بين الرجل وخالقه(١٨٧) . وقام المرشدون الدراوشة بمهمة رجال الدين والمرشدين الروحانيين ، وفتحت اجتماعاتهم المجال للمواخاة والمعاشرة في سبيل البحث عن الله ، وفي بعض المناسبات ، الكفاح لأجل الحاجات الإنسانية. كانت عقيدتهم حية ، صوفية ، نابعة من الحدس الطبيعي ؛ وعبادتهم ملؤها العاطفة والوجدان ، تستخدم فيها الموسيقى والغناء والرقص ، وذلك مساعدة للمؤمن في الاتصال مع الله . وظل هؤلاء الدراوشة بخلاف العلماء جزءاً من الشعب يتمتعون بنفوذ واسع بينهم ، وكانوا في العهود الأولى ، في كثير من الأحيان ، قادة الحركات الثورية الاجتماعية والدينية التي قامت لأجل انتصار البر العام والطهارة النفسية ضد مذهب التمسك الحرفي بالشريعة وضد العلم. والانتصار الشعب ضد الدولة والطبقة الدينية المتحكمة . بل استطاعوا أحياناً أن يتسربوا إلى القصر والجيش نفسهما ، ويتحدّوا العلماء في مراكز القوة ذاتها . وكان هؤلاء موجودين عند نشأة الدولة العثمانية كمربّين دينيين ومرشدين روحانيين لمجاهدي الثغور، وانتشروا مع الجيوش التركية في المناطق والمدن المفتوحة حديثاً ، ينشئون فيها شبكة واسعة النطاق من الزوايا وفروعها ، والتي ضمت جزءاً كبيراً من السكان الأتراك . وكانت هذه الزوايا

---

(١٨٧) إنه لمن سخف القول . لا ينقص الإسلام السلفي أو الصحيح شيء من الروحانية . وإن هذا الفراغ الذي يشير إليه كانت نتيجة الثروة والرخاء المادي في عهد العباسيين فنشأ تيار الروحانية ضد هذه المادية . وأصول هذه الروحانية مستمدة من القرآن وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته لدى الباحثين المنصفين في موضوع التصوف والصوفية أمثال المأسوف عليه المستشرق الانكليزي آربري . ولم يكن هؤلاء الدراوشة بل علماء الشريعة الأتقياء الزهاد .

تعرف عندهم بـ « تكية » ، وهي نوع من الدير حيث يسكن « شيخ الطريقة » مع عدد من أتباعه العزاب المتبتلين ، بينما يسكن الدراوشة المتزوجون خارج التكية ويحضرون الاحتفالات بها ، كما كان يفعل أيضاً الاخوة غير المتفرغين الذين يُدعون « بالمحبّين » أي محبّي الله . ولكل طريقة شكل خاص « للعبادة الوجدانية » تعرف بالذكر ، ولها نظامها وضوابطها الخاصة . وتحتفظ بعض ممارساتهم آثاراً من الرقص التعبدي القديم ومن الطقوس الشامانية(١٨٨) للأتراك الوثنيين . كما تعكس بعض معتقداتهم تأثير البدع التي حدثت في الإسلام والتي صادفها الأتراك في طريقهم من اواسط آسيا عبر ايران إلى الأناضول ، ثم ترعرعت هي في الحرية النسبية بثغور الأناضول . ليس هذا فقط بل يبدو الاحتفاظ بتأثير آخر ، وهو بقاء بعض المعتقدات المسيحية بين المسلمين المستجدين ، والاحترام الذي أُبدي ، تحت ستار الأسماء المستعارة أحياناً ، للقديسين المسحيين ، وأعيادهم الدينية ، وأماكنهم المقدسة . وقد قدرت الأهمية النسبية للعناصر التركية ، والشيعية المحلية ، والمسيحية في عقائد وطقوس هذه المنظمات الأخوية(١٨٩) بتقديرات مغايرة .

---

(١٨٨) الديانة التركية المغولية القديمة المنتشرة في منغوليا . وهي ديانة بدائية قبلية تعتمد على الكهانة ، وجاءت إلى الأناضول في اعقاب غزو المغول . وتأثرت بها الطرق المنحرفة مثل اليسوية والقلندرية قبل قيام الدولة العثمانية . ولكن تأثير الشامانية لم يكن عاماً في جميع الطرق الصوفية كما يدعى المؤلف . وكانت الطرق الصوفية الكبرى مثل المولوية والنقشبندية وغيرهما تحارب مثل هذه الهرطقة .

(١٨٩) كانت منظمة الأخيان (المركب من « أخى » العربية و « ان » علامة الجمع في الفارسية) في الأناضول على غرار منظمة « الفتوة » التي شكلها الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) وأول من كتب عن هذه المنظمة هو الرحالة المراكشي العربي ابن بطوطة الذي زار آسيا الصغرى في النصف الأول مى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي في عهد ثاني سلاطين آل عثمان ، أورخان ، ونزل في ضيافتهم في زواياهم المنتشرة في مختلف مدن الأناضول حيث كان يجد دائماً من يتفاهم معهم باللغة العربية . ولم يشر ابن بطوطة مطلقاً إلى مثل هذه التأثيرات التي يتحدث عنها المؤلف هنا ، ولم يلاحظ في طرق عباداتهم وعاداتهم الاجتماعية شيئاً يخالف الإ سلام الصحيح . فتسمية المؤلف بعض الطرق الصوفية =

وليس من الغريب أن العلماء السلفيين نظروا إلى الطرق الصوفية بنظر الريبة ، وطعنوا فيها مراراً . وإنهم كرهوا بصفة خاصة مبادئهم المشتملة على نظرية « وحدة الوجود » ، والتي بدت لهم معارضة لوحدانية الله العليا ، كما كرهوا عباداتهم الوثنية للقديسين والأماكن المقدسة ، وعمل الكرامات والخوارق ، والطرق المشبوهة لاستجلاب حالة الوجدان ، وقلة عنايتهم بالتقيد بالشريعة الالهية(١٩٠) . ومجال آخر للريبة كان عنصر تعاليم الشيعة القوي في معتقدات جميع الطوائف الأخوية على وجه التقريب(١٩١) ، ولعله لم يكن من الدرجة بحيث يطبع هؤلاء بطابع الشيعة ولكن لدرجة كافية بحيث يثير مخاوف وغضب أهل السنة والجماعة . وكانت هناك مخاوف أخرى أيضاً ، وهي مخاوف الطاقات الخطيرة المكبوتة التي كان يكبح جماحها زعماء الدراوشة، وكانوا يستطيعون أن يطلقوها إن أرادوا .

= الشاذة المنحرفة بالمنظمات الأخوية ليست في محلها من جهة ، وهي محاولة تشويه هذه المنظمة من جهة اخرى . وانظر مناقشة هذا الموضوع بطريقة علمية دقيقة في كتاب « قيام الدولة العثمانية لمحمد فؤاد كوبريلي السابق الذكر صفحات ١٥٥ ـ ١٦٣ .

(١٩٠) هذا التعميم من المؤلف تجنٍّ ظاهر . وهو يخلط هكذا بين الغث والسمين من طرق الصوفية وتعاليمهم . وهو يتجاهل عمداً عشرات الطرق الصوفية الكبرى الشهيرة التي كانت تتبع تعاليم الشريعة الإسلامية بكل دقة كالنقشبندية والقادرية والكاذرونية والمجددية والشاذلية والمولوية والخلوتية وغيرها . ولم توجد عبادة وثنية في أية طريقة صوفية قط . ويعطي المؤلف ـ بقصد الطعن في المجتمع الإسلامي ـ أهمية زائدة لطوائف الهراطقة من الصوفية والدراوشة المتحللين الذين كانوا بمثابة دمل خبيث في جسم المجتمع الإسلامي ، وظاهرة شاذة مؤقتة ليست لها آثار عميقة ثابتة وانظر في هذا الموضوع البحث الجيد لمحمد فؤاد كوبريلي . المصدر المذكور (ص ١٤٥ ـ ١٧٨) .

(١٩١) وهذا التعميم أيضاً يخالف الأمر الواقع ، فبادر المؤلف في الجملة اللاحقة بالاستدراك . ويجدر بالأشارة أن تعاليم الشيعة السياسية والمذهبية شيء، وإجلال وحب أهل بيت الرسول شيء آخر مع عدم التفريط في حق غيرهم من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم . والأمر الثاني هو العنصر المشترك في معتقدات مختلف الطرق الصوفية او الطوائف الأخوية .

ويبالغ المؤلف في تقديره لطاقات الدراوشة . ولم يكن زعماءها يمثلون إلا طوائف مارقة ، أما جمهرة الشعب التركي فكان مع تيار الإسلام الصحيح

وفي حكم كل من السلاجقة والعثمانيين ، قاد الدراوشة عدة حركات عصيان باسم المُثل الدينية . ولوّحوا أحياناً بتهديدٍ لتدمير النظام القائم . وكانت أولى تلك الثورات الكبرى ما قام بها بابا اسحاق[١٩٢] في القرن الثالث عشر الميلادي ؛ وكادت ثورة أخرى ، قادها الشيخ بدر الدين الشهير[١٩٣] ، أن تحطم الإمبراطورية العثمانية قبل أن تُخمد في عام ١٤١٦ م . وفي سنة ١٥١٩ م وقع على عاتق السلطان سليم الأول بعد فتوحه في ايران ومصر مباشرة أن يخضع ثائراً يسمى بجلالي[١٩٤] وادعى بدعاوى المهدوية . وذلك بجوار مدينة توقات . وفي سنة ١٥٢٧ م ، اضطر السلطان سليمان القانوني، بعد انتصاره بقليل على المجريين في معركة موهاكس، أن يبعث وزيره الأعظم للقضاء على حركة عصيان في قرمان قادها درويش (اي صوفي) يعرف بـ قَلَنْدَر[١٩٥] أوغلو الذي ادعى انحداره من نسل حاجي بكتاش .

---

(١٩٢) ويعرف أيضاً بـ « بابا رسول الله » . وكان يتبعه البدو من عشائر التركمان في الأناضول . وكانت حركة هدامة ، وقامت قبل قيام الدولة العثمانية اي في ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) في عهد السلطان السلجوقي في الأناضول كيخسرو الثاني في ظروف سياسية حرجة من هجمات التتار أو المغول . وقضى السلطان السلحوقي على هذه الثورة بحزم ، وشنق زعيمها (راجع محمد فؤاد كوبريلي ، المصدر المذكور (ص ٨٢ ـ ٨٣) .

(١٩٣) كان بدر الدين الصمانوي رجلاً انتهازياً مغامراً ، ولم يكن من الصوفية في مبدأ الأمر بل كان قاضي العسكر لأمير موسى بن بايزيد يلدرم . ووزيره . وانتهز فرصة اضطراب شؤون الدولة والحرب الاهلية بين أبناء بايزيد هذا بعد هزيمته على يد تيمورلنك ، فقام بحركته ، بعد مقتل سيده ، في ازنيق حيت كان قد انضم إليه بعض الطوائف الصوفية وفلاحي الأناضول ، والهراطقة اللامبالين من الدراوشة ، كما انضم اليه بعض رؤساء اليهود . ولكن سرعان ما قضى على حركته السلطان محمد الأول (چلبي) وشنقه في ١٤١٦ م . وكانت تعاليمه تنادي بالإباحية والاشتراكية التامة في الأموال (انظر للتفصيل . محمد فريد : الدولة العثمانية ص ٥٣ ، بروكلمن : تاريخ الشعوب الإسلامية ؛ ٥/ ٣٥ ـ ٣٧ اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ١/ ٥٣١ .

(١٩٤) واسمه في المنح الحليمية في تاريخ الدولة العلية لمحمد بك حليم : الشيخ جلال . وجمع هذا الشيخ حسب كلام هذا المؤلف « ألوفاً من الأوباش وظهر في ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ م في جهات توقات وقضى عليه والي مدينة مرعش وشتت شمل اعوانه » (صفحة ٨٤) .

(١٩٥) قَلَنْدَر كلمة فارسية ، ويستعمل للرجل المتحلل من جميع الآداب والتقاليد وقيود المجتمع

ثم تبعت سلسلة اخرى من الثورات في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وقاد احداها في ١٦٠٨ م قلندر أوغلو آخر يسمى بمحمد آغا(١٩٦) .

وقلندر اوغلو يعني ابن قلندر ، وهو شخصية معروفة في كتابات الرحالة الأوروبيين الأوائل إلى الأمبراطورية العثمانية ، وأيضاً في قصص ألف ليلة وليلة . وكان القلندرية دراوشة متنقلين متسولين ، آثاروا عن قصد ، الرأي الإسلامي العام ضدهم بحلق لحاهم ورؤ وسهم وحواجبهم ، ونبذ أوامر الشريعة ونواهيها وراء ظهورهم . وكان اسم « بابا » ـ الأب ـ يطلق عادة على زعماء الدراوشة ، وبوجه خاص على أولئك الذين ألهموا ، منذ القرن الحادي عشر الميلادي وما بعده ، رجال الثغور الأتراك ورجال القبائل التركية الذين فتحوا واستوطنوا الأناضول(١٩٧) .

ومن هذه الحلقات ، برزت منظمة الأخوة التركية العظيمة الأولى ، اي أخوة

= وكانوا جماعة غريبة الأطوار في مظهرهم وطريقة معيشتهم ، فكانوا يحلقون رؤ وسهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم ويهيمون دائماً على وجوههم ، وهم يشبهون طائفة السادهو الهندوكية في الهند ، وكانوا يعيشون حياة العزوبة والفقر والشحاذة ، ولهم طريقة معروفة تعرف بالطريقة القلندرية . وليسوا هم من الإسلام في شيء . (وانظر عنهم محمد فؤاد كوبريلي : المصدر المذكور ١٧١ ـ ١٧٣) .

(١٩٦) وقضى على حركته المخربة الصدر الأعظم قبوجي مراد باشا في نفس السنة ، وبدّد شملهم وأتى إلى إستنبول بكثير من أسرهم . (اسماعيل سرهنك ، المصدر المذكور : ٥٧٣/١) .

(١٩٧) لم يكن هؤلاء البابوات، أو مشايخ التركمان، ملهمي رجال الثغور الأتراك منذ القرن الحادي عشر . فالاسلام استقر في الأناضول بحركة فتح السلاجقة الأتراك في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، كما هو معروف . وإن أقدم طريقة صوفية تركية هي اليسوية والتي تكونت في آسيا الوسطى في القرن الثاني عشر الميلادي ، ونشأت على أثرها الطريقة القلندرية والحيدرية ولم يتدفق رجال هذه الطرق على الأناضول إلا في القرن الثالث عشر . وكانت الطرق الصوفية السنيّة الأخرى مثل المولوية والرفاعية أو الأحمدية والخلوتية أقدم عهداً في الأناضول من الطريقة القلندرية ، وهم الذين ألهموا رجال الثغور الأتراك في حركة الجهاد ، بالاضافة إلى منظمة « الأخيان » الاجتماعية الدينية القديمة التي كان لها أدوار خطيرة في تأسيس الدولة العثمانية على وجه التحقيق (انظر محمد فؤاد كوبريلي ، المصدر المذكور ص ١٦٢ و ١٧١ و ١٧٣) .

الدراويش البكتاشية ، وكان زعيمهم ومؤسسهم الذي سميت باسمه هذه الأخوة حاجي بكتاش ، وهو مهاجر من خراسان ، ويحتمل أنه كان تلميذاً لبابا اسحاق زعيم الثورة الأناضولية في ١٢٤٠ م . واستلهمت هذه الطريقة مبادئها من مصادر عديدة محلية ومن آسيا الوسطى . ويبدو أنها بعد تطور طويل الأمد ، استوعبت خلاله قدراً ملحوظاً من العناصر المسيحية ، بلغت إلى شكلها التقليدي المعروف في بداية القرن السادس عشر الميلادي . وإن مرشدهم الأكبر أو جلبي (Chalabi) كان يسكن في الزاوية الأم على ضريح الحاج بكتاش بين قيصرية وقيرشهر (Kırshehr) ،وانتشرت فروعهم في الأناضول والروملي ، وسرعان ما تمركزوا في العاصمة حيث وجدت لهم عند حلّهم في ١٨٢٦ م أربع عشرة زاوية . وكان الحاج بكتاش حسب اسطورة قديمة مؤسس فرقة الإنكشارية ، وهو الذي أعطاهم اسمهم الذي عرفوا به ولباس رأسهم المميز(١٩٨) . وفي القرني الخامس عشر والسادس عشر الميلادي ، أصبح للبكتاشيين نفوذ كبير في الحياة الدينية للانكشارية ، وذلك لقيامهم بأعمال المربين والمرشدين الدينيين لضباطهم الصغار وجنودهم ، ولصبغهم إياهم بصبغة الأخوة الدينية ـ العسكرية .

ولقد إحتفظ البكتاشية رغم اتصالاهم بالإنكشارية بشيء من طابعهم الشعبي المتطرف وكثيراً ما أثاروا ريب الدولة والعلماء على السواء . وإن قصة رواها المؤرخ أسد أفندي عند حلّهم لتكشف شيئاً كثيراً عن الإتهامات التي وجهت إليهم من قبل خصومهم وإن لم تكشف عن اتجاهات البكتاشية أنفسهم . فيقول في سنة ١٦٩٠ م خلال الحرب مع المجر :

> ذهب بكتاشي ملعون بين صفوف الجنود المسلمين حينما كانوا معسكرين في الليل ، وراح من جندي إلى جندي قائلاً : « أيها الحمقى ! لماذا تضيعون حياتكم

---

(١٩٨) يقرر محمد فؤاد كوبريلي (المصدر المذكور ص ١٧٨) أنه « ليس من التاريخ في شيء ما يقال من أن الحاج بكتاش قد لاقى السلاطين العثمانيين أو أنه لعب دوراً في إنشاء الجيش الانكشاري » . وهذا الباحث هو حجة في هذا الموضوع لنشره دراسات قيمة عن الصوفية والتصوف في الأناضول في العهد التركي المبكر .

لغير شيء؟ واهاً لكم! كل ما تسمعون من الكلام حول فضائل الجهاد، والاستشهاد في القتال هراء. فبينما يمتع السلطان العثماني نفسه في قصره ويستمتع الملك الافرنجي في بلاده، لا أفهم لماذا تضحون بحياتكم مقاتلين في قمم هذه الجبال.

وبالرغم من مثل هذا الهجوم، والاتهامات المتكررة بالمروق عن الدين والفسوق، وأسوأ من كل ذلك، بالتمرد، فظل البكتاشية ينمّون صلاتهم مع جيش الإنكشارية، ضامنين لهم مكانة من القوة والنفوذ في صميم مركز الدولة العثمانية.

ولعله كان لأجل العمل المضاد لهذا النفوذ أن أعطت الدولة العثمانية بعض التشجيع لطريقة صوفية منافسة، لعبت أيضاً دوراً كبيراً في حياة الامبراطورية العثمانية. وهي الطريقة المولوية العظيمة المعروفة لدى الغربيين بـ «الدراويش الراقصين». ولقد اخذ هؤلاء اسمهم من الصوفي والشاعر الشهير جلال الدين الرومي المعروف بـ «مولانا» الذي عاش في العاصمة السلجوقية، قونية، في القرن الثالث عشر الميلادي. واسمهم الغربي مشتق من جزء من نظام «الذكر»، إذ كانوا يدورون حول أنفسهم مرة بعد مرة على أرجلهم اليمنى مع أنغام الناي وغيره من الآلات الموسيقية إلى أن يبلغوا حالة الوجد الصوفي. وكان شيخ طريقتهم الأكبر يسكن في قونية في الزاوية المركزية بجانب ضريح مؤسسهم. كان المولوية أقرب الطرق الصوفية إلى الإسلام السني السلفي(١٩٩)، وكان اتباعهم من سكان المدن من بين الطبقات الوسطى والعليا، وفيهم كثير من مشاهير الشعراء والموسيقيين الأتراك. وكانت مبادئهم معقدة ذات طبيعة فلسفية، يمكن عرضها بحيث يقل اختلافها عن عقائد أهل السنة والجماعة. وإنهم بنهاية القرن السادس عشر فازوا برضا السلاطين وفي سنة ١٦٤٨ م، أشرف شيخهم الأكبر لأول مرة على مراسم الاحتفال بربط سيف عثمان (الأول) على وسط السلطان، والذي كان إعلاناً عن

---

(١٩٩) وهي التي كتب لها البقاء في تركيا حتى يومنا هذا، بينما تلاشت طوائف المراطقة من القلندرية والبكتاشية، وصدق الله العظيم «فأما الزَّبَد فيذهب جُفاءاً وأما ما ينفع الناس فيمكُثُ في الأرض» ـ الآية.

اعتلاء سلطان جديد للعرش . وتمتع الشيوخ العظام المتأخرون بنفس المزية بعض الأحيان .

كانت كل من طريقتي البكتاشية والمولوية من أصل تركي أناضولي . وكانتا محصورتين بوجه عام في الأقاليم التابعة للحكم أو النفوذ التركي . ودخلت في تركيا طرق اخرى من أماكن أخرى من العالم الإسلامي . كانت منها على سبيل المثال الطريقة القادرية التي تأسست في العراق في القرن الثاني عشر الميلادي ، ولعلها أقدم الطرق الباقية على مرّ الزمن . ويبدو أن هذه الطريقة القريبة نسبياً من أهل السنة والجماعة قد أدخلت في تركيا في زمن الفتح العثماني للعراق في القرن السادس عشر الميلادي . وسرعان ما تمركزت قوية في استنبول .

واستيراد آخر مبكر من العراق كانت الطريقة الرفاعية المعروفة في الغرب « بالدراوشة الصارخين » إذ أن أتباعها كانوا يطعنون ، ويجرحون ، ويحرقون أنفسهم دون أن يصابوا بجروح ، وكانوا يزاولون ذكراً بُني على صراخ وصياح إيقاعيين .

أما الطريقة النقشبندية فأصلها من آسيا الوسطى ، وقيل أنها دخلت في تركيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي بواسطة الشاعر إلـي الذي زار ضريح مؤسسها في بخاري ، ودخل هذه الطريقة كمتلقن ثم عاد إلى استنبول ومعه شيخ بخاريّ ، وأنشأ هذا الشيخ اول مركز للنقشبندية في تركيا . وكان العديد من الشعراء الأتراك من هذا العصر من بين مريدي هذه الطريقة ، وبالأخص الشاعر الصوفي لامعي(٢٠٠) من بورصة المتوفي في ١٥٣١ م ، مؤلف كتب لا تحصى في النظم والنثر . وفي زمن متأخر ، أُدخلت الطريقة النقشبندية إلى تركيا من جديد ، وهذه المرة من الهند وفي صورة متشددة ، وأصبح لها أتباع غير متفرغين بعدد

---

(٢٠٠) هذا لقبه المختار في الشعر ، واسمه محمود بن عثمان بن علي . وانظر ترجمته وشعره في E. J. W. Gibb, A History of Ottoman Poetry, vol. 3, pp. 20-34.

ملحوظ . وكانت مبادئها أقرب إلى معتقدات أهل السنة والجماعة من غيرها من معظم الطرق الصوفية ، كما ان أتباعها أكثر محافظة في القيام بواجباتهم الدينية كالصلاة والصيام وغيرها من العبادات المفروضة شرعاً . ويعترف أولياء چلبي ، حين كتابته بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادي بأهمية هذه الطريقة بملاحظته : « إن الشيوخ الكبار يمكن تصنيفهم إلى طريقتين رئيسيتين : الطريقة الخلوتية والطريقة النقشبندية » .

والطريقة الخلوتية التي يشير اليها اولياء چلبي كانت ايضاً لوقت ما ذات أهمية خاصة ، واسمها مشتق من اللفظة العربية « خلوة » ، وهو يرمز إلى نظام الطريقة الذي كان يطلب من أعضائها أن يخلو في حجرة منعزلة لمدة اربعين يوماً في السنة . يتعبدون فيها صياماً وقياماً من الفجر إلى العشاء . وأسس هذه الطريقة شيخ صوفي من شماخه في القوقاز الشرقية في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي . وسرعان ما أصبح لها أتباع من بين القبائل التركمانية في اذربيجان وتركيا الشرقية . ثم حملها عدد من الدعاة المرشدين النشطين نحو الغرب . وبعد فتح القسطنطينية بقليل كان الخلوتية قد تمركزوا فيها تحت زعامة شيخ تمتع بنفوذ وسلطان عظيمين بين الناس . إن اتجاههم المتشدد ، وانتشارهم الواسع ، وطموحهم السياسي ، وسلفيتهم المريبة جعلتهم موضع ريبة لدى السلطان والعلماء من حين إلى حين . وما لبث محمد الفاتح أن نصح شيخ الخلوتية بأن يغادر المدينة . ولكن الطريقة كانت جذورها قد تأصلت بها من قبل بحيث كانت قادرة على أن تلعب دوراً سياسياً ملحوظاً ، ولو غامضاً ، تحت عديد من خلفائه .

وخلال أوائل القرن السابع عشر ، حدثت منازعات خطيرة بين أتباع الطريقة الخلوتية وبين خصومهم من أهل السنة والجماعة أو السلفية . وكان الزعيمان المتخاصمان هما خلوتي شيخ سيواسي أفندي (المتوفى في ١٦٣٩ م)والخطيب والمدرس السلفي محمد أفندي المعروف عادة بقاضي زاده أي ابن القاضي (المتوفى في ١٦٣٥ م) . ويصف منافستهما جيدا معاصرهما الشهير كاتب چلبي :

كان هذان الشيخان على طرفي النقيض فيما بينهما . ولاختلاف طبائعهما قامت بينهما معارك كلامية . وفي معظم الخلافات أخذ قاضي زاده طرفا وسيواسي طرفا ، ويذهب، كلاهما مذهب التطرف . وكان أتباع كل منهما يتنازعون ويتخاصمون فيما بينهم . واستمر هذا الوضع لسنوات عديدة ، رسخت فيها الخصومات بين الطرفين . ونتيجة للمخاصمات العديمة الجدوى تأصلت في نفوس الجانبين كراهية وعدواة شديدتين بعضهم ضد بعض . وانحاز معظم الشيوخ إلى جانب أو آخر ، وظل عقلاؤ هم بعيدين عن تلك المخصمات قائلين :«إنها خصومة غير مجدية وناتجة عن التعصب ، ونحن كلنا أفراد الأمة المحمدية وإخوة في العقيدة . ليست عندنا إجازة من سيواسى ولا شهادة من قاضي زاده . وانهما ليسا إلا شيخان محترمان ، كسبا شهرة بمخالفة أحدهما للآخر ، وحتى بلغت هذه‌الشهرة إلى آذان السلطان . وهكذا فانهما قد اكتسبا مصالحهما الشخصية وأصبحا محط أنظار العالم . فلماذا نرتكب نحن الحماقة ونحارب في معاركهم نيابة عنهم ؟ إننا لا نحصل على أية فائدة من ذلك» .

ولكن بعض الحمقى من الناس قد ارتبطوا بشدة بجانب أو آخر ، مؤملين أن يبلغوا إلى الشهرة متلهم . وحينما بلغ ضرب وطعن وعراكهم الكلامي من منابرهم المختلفة الى حد أنذر بحدوث معارك حربية حقيقية بالسيوف والرماح فأصبح من الواجب على السلطان بأن يلقّن بعضهم حدود النظام ، ويأمر بقرص آذانهم ، وذلك بابعادهم عن المدينة . إذ أن من بين واجبات سلطان المسلمين أن يخضع المتعصبين المتبجحين من أمثال هؤلاء ويعيدهم إلى حدود النظام كائناً من كان . ولقد نتج في الماضي فساد متراكم من مثل هذا التعصب الشديد .

وعلى أية حال ، كانت هذه الخلافات تقوم على شيء أكثر من المنافسات ، والأحقاد الشخصية ، واستمرت بعد موت هذين الشيخين بزمن طويل. وبعد ذلك بزمن قصير ، قامت في نفس القرن معركة أخرى على القهوة والدخان ، واللذان دافع عنهما الدراوشة وهاجمهما السنّيون المحافظون مع هجومهم على الموسيقى والرقص ، فكلها عندهم فجور وإباحية . وكان الصراع بين الصوفية ورجال الشريعة موضوعاً رئيسياً في الحياة الدينية في الامبراطورية العثمانية ، ولم ينته بتاتاً حتى يومنا هذا .

كان الإسلام بالنسبة للامبراطورية العثمانية ما كانت المسيحية لأوربا . وكانت آداب العربية والفارسية الإسلامية الكلاسيكية بالنسبة لثقافة الأتراك العثمانيين ما كانت اللاتينية واليونانية بالنسبة للثقافة الأوربية . إن الأدب العثماني في جوهره أدب إسلامي ، كتب في أغلب أقسامه باللغة التركية ولكن في الخط العربي ، مع استعارة من الكلمات والتعبيرات والموضوعات العربية والفارسية لا تحصى . وسيطرت التأثيرات العربية بصورة واضحة جداً في علمي العقائد والقانون . وكان كثير من العلماء العثمانيين من أصل عربي ، وحتى أولئك البعض الذين لم يكونوا من أصل عربي قد استعملوا اللغة العربية كأداة للتعبير مفضلين إياها على اللغة التركية. أما الشعر وأدب المجاملة فكانت إيران لا البلاد العربية هي التي زوّدت العثمانيين بنماذج الاسلوب والجمال. فقد قرئت الآداب الفارسية الكلاسيكية، ودرست، وترجمت ، وقُلدت في تركيا، وكان الإلمام بها يعتبر من الأدوات اللازمة لباحث أو متأدب .

وليس معنى ذلك أن الأدب العثماني كان اقتباساً وتقليداً محضاً . بل نجح الكتاب الأتراك في صهر التقاليد الأدبية العربية والفارسية وخلق أدب جديد متميز حيّ . ويمكن أن تساعدنا بعض مقتطفات مختصرة في توضيح الأمر في مجاَليْ الشعر والتاريخ، الذين أبدع فيهما الكتّاب الأتراك أيما إبداع .

كان الشاعر مسيحي قد ولد في البانيا وذهب إلى استنبول كطالب لدراسة الدين ، ثم فاز ببعض الشهرة كخطاط وشاعر . ولكنه كان غير قادر على الخروج من الأزمة التي أصابت حياته العلمية المبكرة بسبب وفاة حاميه ونصيره . فانسحب من المدينة إلى ضيعة صغيرة في البوسنة حيث توفي في ١٥١٢ م . ويعتبره الرأي العثماني أعظم شاعر غنائي قبل « باقي » . وأشهر قصائده المعروفة في الغرب قصيدته عن الربيع . وظهرت ترجمتها في شعر القرن الثامن عشر الميلادي بقلم سر وِلْيَم جُونْز) (Sir William Jones) في عام ١٧٧٤ م . وهي :

اسمعوا كيف العنادل على كل غصن

ترحب بأصداح عالية عودة الربيع الحلو
وينسج الموج الغامر الخيوط اللوزية هناك
والشاطىء الأخضر تزهيه البراعم الفضية
والربيع الباسم يزين كل غصن بالأزهار
افرح ، فعما قليل ستذبل ازهار الربيع

لبست التلال والوديان والغابات أجمل حللها
من يدري ما هي المتاعب التي تنتظرنا في ذلك اليوم الحالك
تُذهب فيه الرياح العاتية عنا الربيع
ولعل الموت يزور ودياننا
افرح ، فسرعان ما تذبل أزهار الربيع

يزهو الأقحوان بألوانه البهية
ويلقي بأشعة من الوهج السماوي كعيون أحمد
أيها القوم المخلصون الصادقون
تابعوا مباهج الشباب ما دام الربيع يدعوكم
ألا تطرب قلوبكم هذه النغمات
افرح ، فسرعان ما تذبل ازهار الربيع

تلعب قطرات الندى الشفاف فوق الياسمين
كأنها لآلىء الشرق أو أشعة الشمس
إن الحب والبهجة تدغدغ خاطركم اللعوب
فلْتسمعنْ أيتها الحوريات (لكلمات الشاعر ، كلمات حكمة)
ما دمتن تجلسن هكذا تحت الظل المرتعش
فافرحن ، فسرعان ما تذبل ازهار الربيع

الورود المفتحة حديثاً تبدو كخدود زينب
حينما تلمع اللآلىء في أذنيها الجميلتين

ويتراءى سحر الشباب في آن ويزول
وتقول الطبيعة ، انه لحلو ولكن لا يدوم
وهكذا يتفتح الورد وتتفتح الغادة الخجلاء
افرح ، فسرعان ما تذبل أزهار الربيع

انظر هناك إلى شقائق النعمان ، أوراقها تتكشف
عن اليواقيت المتوهجة واللجين النابض بالحياة
وبينما تنسكب قطرات البلور من السحب الباكية
استمتع بوجود صديقك الشادي الألحان
والآن ، بعد ما أُحضرت الصهباء ونُضدت الأرائك
افرح ، فسرعان ما تذبل أزهار الربيع .

لا الغراس ذابلة الآن ، ولا المروج ذاوية
ولا براعم الورود مُطرقة رؤوسها المهمومة .
اخضرّت الأعشاب في الوديان والمروج والخمائل
وتوج كل غصن بالأزهار
ويقف كل تل مصطفّاً في حلة من الحرير
افرح ، فسرعان ما تذبل أزهار الربيع

قطرات نقية ترصّع نوار الورد كل صباح
ومن أوراقها يعبّ النسيم العليل العطر الفواح
تطفح البراعم الندية بمخزونها الرقراق
لتكن هذه ثروتنا ، ولا تسألن أيها الصبايا ! شيئاً
فلْيحسد العقلاء وليؤنب الحمقى
افرح ، فسرعان ما تذبل أزهار الربيع .

قطرات الندى ، المترعة بريح المسك
قد تحولت إلى العطر قبل وصولها الوادي

والسماء اللازوردي ، نَصَب سرادق غالية
فوق رؤ وسنا النشوى ، دون أي جهد مّنا
دع الآخرين يكدّون في الحرب ، في الفنون ، في التجارة
وافرح انت ، فسرعان ما تذبل ازهار الربيع

برّد الشتاء المتأخر الحزين الهواء المنكود
إلى أن نهض سليمان ، فاذا بكل شيء رائع بهيج
،إذا بحكمه حب وسعادة وألحان ،
وتدور كأس الحبور الوردية بحريّة وانطلاق
هنا على الشاطىء المظلّل بالكروم المعرّشة المتدلية
افرح ، فسرعان ما تذبل أزهار الربيع

لِتظل هذه الأنشودة المتواضعة من عصر لعصر
تذكاراً صادقاً عن هذه المباهج الساحرة .
تعالي يا حبيبتي الفاتنة ، واسمعي إلى شاعرك يغني
فأنت الورد ، وهو بلبل الربيع
الحب يأمره بالغناء ، والحب سوف يطاع
افرح ، فسرعان ما تذبل أزهار الربيع .

وكان أكبر شعراء الأتراك في عصره « باقي »(٢٠١) باتفاق الجميع . وهو ابن مؤذن ولد في استنبول ، وعمل كصبي متمرن في محل سروجيّ في أول الأمر . ولكنه بعد ذلك بدأ يدرس في مدرسة حيث نجح في جلب انتباه أعظم علماء وكتّاب عصره . فشجعوه لمواهبه وساعدوه في الدخول في صف العلماء .وفي سنة ١٥٥٥ م

---

(٢٠١) وهذا لقبه الشعري، واسمه محمد عبد الباقي عاش بين عامي ٩٣٣ ـ ١٠٠٨ هـ / ١٥٢٦ ـ ١٦٠٠ م . واشتغل منصب القضاء في مكة المكرمة واستنبول وقاضي عسكر الأناضول . وانظر ترجمته مفصلة في كتاب E.J.W.Gibb الآنف الذكر Vol iii. pp. 133-147

قـــدم باقي قصيدة للسلطان سليمان القانوني الذي كان قد عاد آنذاك من حملته على فارس ، وحاز برضاه وصداقته لنجاحه في ميدان الشعر . وبدأ السلطان يرسل إليه أشعاره هو للإصلاح ، كما فتح له الباب لنيل مكانة دينية وأدبية مرموقة . وكان موت سليمان صدمة أليمة له . فرثى صديقه ومحسنه في قصيدة رثائية شهيرة ، تعتبر من أروع آثاره الفنية . ويبدأ فيهاالشاعر بموضوع تقليدي مُذكّراً القارىء أو السامع بعدم خلود العظمة في هذه الدنيا الفانية ، وملحّاً عليه ، إذا كان قد نسي ذلك ، أن يتأمل ما وقع لسليمان العظيم :

يا أيها الذي تعلق رجله في شباك الشهرة والمجد
حتى متى تطمع في متاع هذه الدنيا التي لا قرار لها

فكّر في ذلك اليوم الذي سينقضي فيه ربيع الحياة
ويتحول الخد الورديّ اللون إلى ورقة الخريف .

ويكون التراب مكانَ قرارك الأخير كثُمالة الكأس
وستُحطم حجرة من يد الدهر كأسَ حياتك .

إن الإنسان الحق هو الذي قلبه صافٍ كالمرآة
فاذا كنت إنساناً فلماذا تُضمر شراسة النمر في صدرك .

حتى متى يُغمض رقود الإهمال العين البصيرة
ألا تعتبر بما وقع للسلطان ، أسد المعامع .

ذلك الفارس العظيم في دنيا السعادة
الذي كانت ساحة العالم كله ضيقة لجواده السبّاق .

والذي طأطأ كفار المجَر رؤوسهم لحدّ سيفه
وأعجب الفرنجُ بضربة حُسامه .

فقد وضع وجهه للأرض بنعومة كأوراق الورد النديّة

وخبّأه خازن الدهر في خزينته كجوهرة غالية .

قد أسفر الصباح ، ألا يصحو سيد العالم من سُباته
ألا يُبدي طلعته من شرفة قصره الذي يناطح السماء

عيوننا شاخصة الى الطريق ، فلم تات كلمة
من الموضع الذي نُثر به التراب على عتبة عظمته .

بُهت لون خدّه، إنه ينام جاف الشفاه
كوردة سقطت بعيدة عن غصنها النديّ .

يخفي ملَك السماء أحياناً نفسه وراء حجب الغيوم
ولكنه حينما يتذكر عظمتك يتصبب عرقاً من الخجل
من وراء تلك الغيوم .

دعائي أن كل من لا يبكي عليك
شباباً وشيوخاً ، دفن الله دموعهم تحت التراب .
فَلْتحترق الشمس ولتلتهب بنار فراقك
وحزناً عليك ، ولْتلبس سواداً من أسمال السحاب
الباكية دماً على ذكر مجدك
ولْيسقط حسامك من غمده في التراب .
لِيشقّ القلم جيبه أسفاً عليك
ولْتمزّق الراية ثيابه في المأتم والنحيب .

ويكفينا مثالان من الثقافة العثمانية التاريخية الواسعة الغنية . الأول : خطاب انتصار ، وهو صنف معروف في الآداب العثمانية . وكان خطاب الانتصار يُعد من الأعمال الأدبية البارعة ، والهدف منه وصف انتصار ، بل الأحرى تمجيد انتصار ، تحرزه قوات السلطان المسلحة في البرّ والبحر ، وذلك لإدخال السرور في

قلوب الأصدقاء وإرهاب الأعداء . وكانت تُرسَل منه نسخ إلى الملوك الأصدقاء والبعض الآخرين . وكثيراً ما كان يسجل مثل هذا الخطاب في المدونات التاريخية للإمبراطورية .

ومن أحسن الأمثلة لهذا الصنف من الأدب الجامع بين الدعاية السياسية وقصص البطولة نشرةٌ عن الانتصار في معركة قانيزا (Kanıza) ، كتبت للاحتفال باستيلاء العثمانيين على حصن لآل هبسبرگ (Hapsburg) في سنة ١٦٠٠ م . ولعل كاتبه كان المؤرخ العظيم حسن بيك زاده الذي كان يعمل آنذاك كرئيس أفندي(٢٠٢) . ويوجد نص هذه النشرة في خطاب من استنبول إلى الملكة اليزابث (Elızabeth.1) المحفوظ بمكتب السجلات العمومية بلندن :

ليكن معلوماً أننا في هذه السنة المباركة سرنا مع جنودنا الأقوياء الشجعان من بلغراد ، دار الجهاد ، وبينما كنا في طريقنا إلى بُودا(٢٠٣) (Buda) ، حرقت حاميات حصني العدو ، ببَوكْزا (Babocza) وقانيـزا (Kaniza) ، الجسور في الطريق الى بُودا ،كما تعدوا على الشعب والنبلاء بنار العدوان . وحيث ان استئصالهم كان ، كما اتفق عليه ، أمراً ضرورياً محتماً ، وقضية واجبة مفروضة فصُرف عنان السير إلى ذلك المكان ، وأطلق زمام التحرك لافتتاح ذينك الحصنين وامتلاكهما فوصلنا أولاً إلى حصن ببوكْزا ، وأقمنا معسكرنا العظيم حوله من جميع أطرافه . ولم يستطع الفساق المحصورون في الداخل أن يقاوموا هجوم طلائعنا الظافرة ، فانهم سلّموا لنا هذا الحصن في مجرد يومين . فغادرنا ذلك المكان ، وحاصرنا حصن قانيـزا ، الذي هو مفتاح بلاد الكفار المحتقرين ، والسد المنيع والباب الحديدي لممتلكات المجرمين الأشقياء . ولكن بحيث أنه كان هناك بُرجاً مائياً (Water Tower) محصناً منيعاً ملحقاً بهذا الحصن ، وأبراج عالية تتصل ذُراها بقبة السماء فلم يكن من الممكن أخذه أو تخريبه بهجوم عاصف . وبعد أن نصبنا المدافع القاصفة في مواضع مختلفة بحيث

---

(٢٠٢) هو سكرتير الدولة للشؤون الخارجية . ومرّ ذكر هذا المنصب في فصل « القصر والحكومة » من هذا الكتاب .

(٢٠٣) جزء من مدينة بُودابست الحالية عاصمة المجر . كانت في ذلك العهد مدينة مستقلة على ضفة نهر الدانوب . ثم أُلحقت بها مدينة پست (Pest) على الضفة المواجهة لها .

بلغ ضجيج القصف إلى عنان السماء ، وبعد أن غطينا المنطقة الضحلة بألواح خشبية ، ووضعنا أكوام الخشب كالجبال حول جهاته الأربع بدأنا الهجوم في ٢٨ ربيع الاول . واقترب خلال ذلك ملك فُيينا مع قواده المشاهير المعروفين بدهائهم وشجاعتهم وفي معيته أكثر من مئة الف من الجنود المشاة والفرسان من الكفار المغرورين ، وأسلحة وعتاد لا يحصى ، وفي حشد من عربات وخيام وقباب خارجة عن الحصر . وحينما بدأت المعركة ، تقدم جنود الإسلام الظافرون الذين كانوا يعتبرون أيامها أيام احتفال نحو العدو بدون خوف أو تهيب ، وبسرعة وخفة . واندلعت نار الحرب بين الطرفين ووقع قتال ضارٍ عنيف . كان ذلك اليوم يوم مجد عظيم .

إن جنودنا الأبطال دكوا الحصن من أحد جوانبه لثلاثة أيام ، وحاربوا وقاتلوا ضد معسكر الكفار من الجانب الآخر . ولكن حَفر العصاة الملاعنة خنادق عميقة حول معسكراتهم ونصبوا المدافع حولهم . والتقت الصفوف والكتائب في اليوم الرابع مرة اخرى ، ونُظمت أجنحة الأيسر والأيمن والقلب والمؤخرتين بسرعة ، ورُدت آلاف من المشاة والفرسان من المواضع المختلفة متقهقرين إلى معسكرهم ، ونصبت أمامه عدد لا يحصى من الأسلحة النارية ، وأُمطرت قذائف المدافع ورشاش البنادق على رؤ وسهم كالمطر والبَرد . وهاجمهم جنودنا حلفاء النصر من كل جهة كفيضان غامر مدمر . وفي صباح اليوم السابع ، فُتحت أبواب النصر بعون الله الملك المتعال ، فأصبح الأعداء المكتوب عليهم الهزيمة غير قادرين على الصمود ، ورُدوا على أعقابهم هاربين في اضطراب وفوضى إلى حيث أتوا منه . وغدا عدة آلاف من جنودهم الفرسان والمشاة لقمة سيف ، كما أصبح الوف عديدة أُخر أسرى الحرب . وأُخذت جميع مدافعهم وذخائرهم وبارودهم وتمويناتهم وغلالهم . ولكن أظهر المارقون المحاصَرون في الحصن العناد كما يعاند الحيوان المعَد للذبح ، واستمروا في معاندتهم وكبريائهم ، وبذلوا كل جهد كما يحاول الغريق فعل كل ما يقدر عليه ، وبدأوا يرمون بكل ما وجدوه من الاحجار والأخشاب والبنادق والمدافع ، ومرة أخرى ، أطلقنا عليهم بنادقنا ومدافعنا وسهامنا وغيرها من أسلحة الحرب بدون تأخير ، وتقدمنا خطوة خطوة ليلاً ونهاراً . وإنهم أدركوا أن الهجوم النهائي قد بدأ ، ولا يمكنهم الهروب من مخالب لا تقاوم إن لم يسلّموا الحصن . فاستسلموا مضطرين في اليوم الثالث عشر من ربيع الآخر . ثم انهم طرقوا باب الرحمة ، والتمسوا الصفح والكرم وسلّموا مفاتيح الحصن . وبذلنا العفو لأرواحهم وممتلكاتهم

وأولادهم ونسائهم ، ثم أرسل جميع هؤلاء الى بيوتهم . . . والحمد لله العلي القدير أن في هذه السنة المباركة وقعت مثل هذه الأحداث المجيدة ، نصَرنا الله على جميع أعدائنا وكسر شوكتهم هكذا(٢٠٤) .

ويتصل الاقتباس الثاني ليس بالحرب ولكن بالدبلوماسية ، ويصور المؤرخ العثماني في وضع مختلف تماماً . إن هذه القطعة التي تتعلق باستقبال سفير(٢٠٥) جاء من قبل الإمبراطور المغولي بالهند إلى استنبول في ١٦٥٤ م وبتعيين سفارة جوابية إليه،كتبها مؤرخ معاصر ثم سجلها مدون التاريخ بالبلاط السلطاني، نعيما. وإنها تصور ببراعة فائقة مجتمع استنبول الحضري المتأنق في ذلك العهد .

إنه (السفير) قدِم إلى الديوان في ٢٣ رجب وقدّم هداياه . وكانت تشتمل على ثلاث تحف غالية تقدر بمجموعها بثلاثمائة الف قرش ، وهي إكليل العمامة فيه ماسة أكبر مما هي عند السلطان ، وسيف وخنجر . وبما أن السفير كان أحد العلماء فأقام له كل من الوزير والمفتي وقضاة عسكر وغيرهم من كبار الوجهاء حفلات استقبال على شرفه . وحضرها العلماء والشخصيات الممتازة ، من أسياد فن المحادثة ، ومتّعوا السفير بالمناقشات العلمية والردود البارعة . وأُقيمت هذه الحفلات في القصور التي هي زينة الدنيا ، وفي الاستراحات المبهجة للقلوب على الشواطىء لكي يقف السفير على مناظر استنبول المُعجبة الخلابة . وبعد أن عومل بكل مظاهر التبجيل والتشريف كتبت رسالة سلطانية إلى امبراطور الهند ، وأعطي السفير ٦ آلاف قطعة ذهبية وعباءة من الفرو وجواد مطهّم . ثم انعقد اجتماع لاختيار سفير لمرافقته في عودته الى الهند . وكان المفروض ، حسب التقليد المعهود ، أن يكون من بين العلماء أو الأدباء ، أو رجل الفصاحة والبلاغة من بين الباحثين والمثقفين . ولكن في الواقع صُرف النظر عن هذه المؤهلات هذه المرة . وطلب ذو الفقار آغا أخو صالح باشا هذه السفارة قائلاً « إنني لا أحتاج الى المصروفات ، فسأنفق فيها من جيبي الخاص » . وبالنظر إلى كون هذه الطريقة مفيدة ومناسبة

---

(٢٠٤) وقعت هذه المعركة في عهد محمد الثالث . وكان هذا السلطان قد هزم مكسميليان الثاني قبل ذلك بثلاث سنوات في معركة كريستز (Kerestez) .

(٢٠٥) هذا السفير هو حاجي أحمد سعيد ، والأمبراطور المغولي هو شهاب الدين الشهير بشاه جهان . وانظر الهامش السابق رقم ١١٩ .

معاً ـ على قاعدة أن الأجير الرخيص خير رفيق ـ فانهم عيّنوا هذا البُشناق(*) الجاهل سفيراً .

أما جلالة السلطان فانه بعد أن سمع عن مزايا السفير الهندي وحديثه البارع أمر بأن « يعينّ رجل عالم وكفؤ سفيراً (إلى الهند) فإن السفراء شرف الملوك » فاستشار الوزير والمفتي لاختيار من يعينونه ، وسمّي عدد من رجال العلم ، ثم قال بعضهم : إذا عينتم للسفارة رجل الثقافة والبصيرة فانه سيحتاج بجانب نفقات سفره إلى علاوة شخصية ، وسوف يكثر مطالبه ويثقل علينا بمطالبته قضاء حاجاته والعناية به » .

وبالنظر إلى ذلك فانهم قد اتفقوا على اختيار ذو الفقار آغا وقالوا له : « قابل السفير . وأقمْ حفلة استقبال حسنة على شرفه وكنْ متودداً له واجتماعياً معه ، ولكنْ حافظ على الصمت في رفقته . ولا تشعره بأنك مطلوب منك الحديث ، ثم ارتكبْ خطأ فاحشاً » . هذا هو ما علّموه . فذهب إثر ذلك هذا الحمار في أبّهة لا توصف لزيارة السفير وإخباره بتعيينه هو للسفارة ولدعوته إلى الحفل . ويقول المرحوم مان أوغلو (Manoglu) أنه لم يدعُ أي واحد من الأدباء والشعراء إلا جُورى چلبي ، ومن المفكرين إلا أبا أحمد أوغلو من أتباع قاضي زاده . وكان هذان الرجلان من أصدقائه الموثوقين به المتقربين اليه . وكان عليهما أن يحادثا السفير ويمتعاه ، ويغطيا أيضاً بمهارتهما على الأخطاء ، التي ربما يرتكبها هو أثناء الحديث .

وأقام ذو الفقار آغا حفلة استقبال رائعة . وأمر بين أصناف الطعام الأخرى بصنفين أو ثلاثة من الكرنب الذي كان يعتبره أجود المآكل اللطيفة . وقدم السفير وجلس . وبعد مجاملات اجتماعية تقليدية قُدم العشاء . وعندما قدِّم طبق الكرنب التفت ذو الفقار إلى السفير وسأله : « هل ثمة كرنب في الهند » ؟ فأجاب السفير : « إن نباتات المناخ البارد باستثناء بعض الأصناف الخاصة قلما تزرع في المناخ المعتدل » .

واستمر ذو الفقار ، دون أن يفهم ما قاله السفير ، في قوله : « إنه شيء مفيد ، ويقوي روح المرء » .

فابتسم السفير ، وقال : « ليس هناك شك أنه يسبب الريح (في المعدة) ولكن علاوة على هذه العلاقة اللفظية فانني لا أعرف له أية صلة بالروح » .

(*) أي من البوسنة .

ولم يفهم ذو الفقار معنى كلمات السفير ولا سبب انسامته وتقهقه مقلداً له ، ببلاهه وقال .

« سيدي نُكتكم حسنة حداً . ولكن الحقيقة أن الألبابيين أذكياء لأنهم يأكلون الكبد . . . بينما الشناق أقوياء وشجعان لأنهم يأكلون الكرنب » .

وردّ السفير شاعراً بخيبة الأمل بحديثه البارد .

« حسب القاعدة التي قررتموها ينبغي أن يكون الألبانيون شجعاناً والشناق أصحاب الريح(*) » .

كان جورى وأبو أحمد اللذان فهما معنى حديثه قد انفجرا بضحك لا يكف . ولكنهما كانا نادمان على الإتيان بمثل ذلك أثناء الأكل ، رغم أنهما بسبب محاولتهما الكف عن الضحك لم يستطيعا أن يأكلا تماماً .

ورفعت المائدة وانتهى الحفل . وعندما كان السفير على وشك المغادرة قال له ذو الفقار . « سوف نستمتع بعون الله بالسفر في رفقة سعادتكم » . وردّ عليه السفير : « أجل ، سنشاهد في طريقنا بعض أشياء غريبة جداً ،

ونستمتع بها ، حفظنا الله عز وجل ورعانا في جميع الأحوال . ثم نهض متفوهاً بهذه الملاحظة : « الحمد لله الذي حلو توراً في صورة رجل إنه لرفيق حسن من سوف نستمتع بصحبته » . وذهب إلى مقره .

وبعد أن انتهى الحفل أبقى ذو الفقار جورى وأبا احمد اوغلو وقال لهما

« ألم أحادث ذلك الديوث محادثة لائقة . انهم يتفاخرون بقرفتهم وقرنفلهم ولكننا اذا لم نشترِ بضائعهم فمن يشتريها ؟ ولنتفاخر نحن ايضا بمنتوجات بلادنا . إنه حادثني في لغة مصطنعة ولكنني أحسنت الرد عليه في التركية السهلة » .

وبما أنه كان رجلاً غنياً وسفيراً معيناً فلم يكن من المستحسن وضعه في موضع مخجل ، وبحيث انه كانت تنقصه الأهلية للتعلم والفهم فانهما لم يجدا طريقا أفضل من أن يظلا صامتين .

وذكر أبو أحمد أوغلو تفصيل هذا الحادث لصديقه مان أوغلو . فتساءل · إذا نظرنا إلى ذلك بدون تحيّز ، في زمن يتيسر فيه وجود العلماء والكتاب ورجال الأدب ، فهل من المعقول إرسال مثل هذا الرجل العادي في السفارات لمجرد ثروته ؟ ! وهل مثل هذه الفضائح متماشية مع واجب احتفاظ شرف الامبراطورية وسمعتها ؟

(*) اي الضراطون وبمعني آخر جبناء .

٧

الخاتمة

في سنة ١٦٣٠ م ، قدَّم كوچو بيك (Kochu Bey) ، موظف مسئول من أصل بلقاني ، مذكرة إلى السلطان مراد الرابع ، بحث فيها لإرشاد سيده نقاط الضعف في الدولة العثمانية والمجتمع العثماني التي أدت إلى الانحطاط في القوة العثمانية منذ نهاية عهد سليمان القانوني ، وقدم اقتراحاته لإصلاحها :

> لقد انقضى منذ زمن طويل ذلك العهد الذي كان يخدم فيه الأسرةَ السلطانية العالية الرفيعة المكان (حماها الله برعايته الأبدية) العلماء الأكفاء ذوو النوايا الحسنة والحريصون على مصلحة الدولة ، العبيد المطيعون المخلصون المتفانون . واليوم بعد أن تبدلت الأحوال ، تجاوز الشرّ والشغب والتمرد والعصيان جميع الحدود ،ترقبتُ الفرصة لكي أدقق النظر في علل وأسباب هذا التبدل ، ولأقدمها للمسامع السلطانية الرفيعة . . أولاً ، ليكنْ معلوماً لجلالته أن أصل التنظيم المحكم للملك والشعب ، وسبب استقرار دعائم الدين والأسرة المالكة هو التمسك التام بحبل الشريعة المحمدية المتين . وأما ما بقي غيرها من الأمور فلتمنح العناية والرضا السلطاني لرجال الدين الذين يتصرفون بوعي واهتمام في شؤون الرعايا الذين فوض الله أمورهم إلى السلطان ، كما يديرون شؤون الجند الذين يضحون بحياتهم في سبيل الله . وليُمنح رضاه للرجال الأكفاء من جميع الطبقات ؛ وليُعلن عن عدم رضاه لغير الأكفاء .

ويصف كوچو بيك ذروة المجد العثماني في عهد سليمان القانوني في كلمات

براقة ـ ولكنه يشير ببراعة إلى أن ظهرت أولى علائم الضعف في حكمه والتي أدت إلى ذلك الفساد السريع في عهود خلفائه . وهو يعزو هذا الانحطاط إلى سلسلة من العلل المتشابكة . الأولى : انسحاب السلطان من الرقابة الفعلية على عامة شؤون الدولة ، وقطع بذلك ذلك الاتصال المباشر الذي لا غنى عنه بين مصدر سلطاته وبين أولئك الذين وُكل إليهم ممارستها . الثانية : انحطاط منصب الوزير الأعظم ، الذي بدأ يعيَّن ويُصانع الآن برضا القصر خلاف ما كان عليه الأمر في السابق . إذ كان يصل إلى هذا المنصب عن طريق سلّم الخبرة الإدارية والكفاية الذاتية . وصار لكونه غير متمتع بالكفاية والاحترام معرض للطرد عن منصبه في أية لحظة ، بل معرّض للإعدام . وهكذا فانه نفسه سبَّب سوء سمعة منصبه العظيم . وهكذا بوجود سلطان متغيب (عن الإشراف على شؤون الدولة) ووزير أعظم كنديم البلاط، انفتح الباب للحريم ليتسلطن على شؤون الدولة . كما فتح الباب معهن للخصيان والمنافقين والانتهازيين والمتصيّدين للفرص من جميع الأصناف. بل فسد رجال القصر كلهم وفسد جيش الإنكشارية :

> ولقد دخل إلى الحريم السلطاني خلاف القانون رجال لا دين لهم ولا عقيدة : المحتالون ، ومدمنو السكر ، والأوغاد مـن جنس ودين غير معروفَين كالتركمان ، والنوَر . والتات (٢٠٦) ، والأكراد ، والأجانب ، واللان (٢٠٧) ، والبدو الرحل ، وسائقوا البغال والجمال ، والحمالون ، وبائعوا الشربات . وقطاع الطرق ، والنشالون ، واناس من أصناف كثيرة أخرى . واختل نتيجة ذلك الضبط والنظام ، وانعدمت القوانين ومقاييس الأخلاق .

وإن حكومة الصنائع غير الواعين لمسئولياتهم قد فتحت بدورها الطريق إلى الفساد، العاهة التي إذا لم تعالج لدمرت كل شعبة من النظام العثماني السياسي

---

(٢٠٦) تات أو تَتْ كلمة تركية تطلق على العناصر الغريبة القاطنـة في البلاد التركية لا سيما سكان شرقي جبال القفقاس ، منهم الأرمن والخوارزميّون .

(٢٠٧) وهم سكان القوقاز .

والاجتماعي . كانت التعيينات والترقيات يحصل عليها بواسطة المحسوبية أو الشراء . ومدة المنصب كانت قصيرة وغير مأمونة ، وأصحابها غير أكفاء وغير جديرين بها .

ما زال كوچو بيك ، وهو يكتب بعد موت سليمان بأكثر من نصف قرن ، يفكر عن الفترة السابقة بأنها فترة شرّ طارئة ، كما كان يؤمل أن الخطوات السريعة الحازمة ستوقف هذا الانحطاط وتعيد إلى الامبراطورية عظمتها :

وحينئذ يقول أعداء الدين ـ وهم يلاحظون النظام والاستقرار المحكمين ـ مخذولين في خوف وحسد : « ظل بيت عثمان في رقاد الإهمال لمدة ستين سنة . ولكنهم أستيقظوا الآن ، وبدءوا بتدارك وإصلاح النقائص الموجودة من الأيام الماضية » .

ولكن بالرغم من بعض فترات الإصلاح استمر الانحطاط . ونسمع بالتدريج نبرات أكثر قنوطاً في كتابات مدوّني المذكرات المتأخرين .

فكتب « كاتب چلبي »(٢٠٨) ، متحدثاً عن مذكرته هو حول الإصلاح المقدمة في سنة ١٦٥٣ م « وحيث أني شعرت أن توصياتي ستكون صعبة التطبيق فلم أكلف نفسي في شأنها أكثر مما فعلت : ولكن سلطاناً في زمن مستقبل سوف يتنبّه لها ويضع تلك التوصيات في حيّز العمل وستنتج منها أحسن النتائج » .

وكان كتاب ورجال الدولة العثمانيون من القرنين السابع عشر والثامن عشر ما برحوا ينظرون إلى الوراء ، إلى العهد الذهبي السالف . وكانوا لا يرون أمل إنقاذ الإمبراطورية العثمانية إلا في الرجوع إلى العقيدة الإسلامية الصافية والقانون الإسلامي القويم بعد إزالة ما علق بهما من الشوائب، وفي العودة إلى تقاليد آل عثمان النقية القديمة . ففي عام ١٧٩٢ م ، حينما سأل السلطان سليم الثالث عدداً من الشخصيات العثمانية الممتازة عما لديهم من النصائح لإنقاذ الإمبراطورية كان هناك

---

(٢٠٨) انظر الهامش السابق ، رقم ١٧٥

الكثيرون الذين أعطوا حتى ذلك الحين نفس الإجابة . ولكن كان ثمة رجال آخرون وجدوا طريقاً جديدة - طريق الإصلاح والتجديد ، والتي كان من شأنها أن يصل الشعب التركي بواسطتها عبر الزمن ، ومن خلال انهيار الإمبراطورية العثمانية النهائي ،إلى مولد الجمهورية التركية .

مراجع وتعليقات المترجم(*)

آ - المراجع العربية

١ - ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، القاهرة ١٩٠٥ .

٢ - ابراهيم خليل أفندي : مصباح الساري ونزهة القاري - بيروت ١٨٧٨ .

٣ - الإسحاقي . محمد عبد المعطي : لطائف أخبار الأُوَل فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول - القاهرة ١٣١١ هـ .

٤ - آصاف ، يوسف : تاريخ سلاطين آل عثمان العظام ، القاهرة ١٨٩٠ .

٥ - ألاقسكي ، علي همت بركي : ابو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية ، (في التركية) تعريب محمد احسان عبد العزيز - القاهرة ١٩٥٣ .

(*) رأيت اثبات هذه المراجع هنا إفادة للقارىء وتكملة للبحث . وهي غير المراجع الأجنبية او التركية التي رجع اليها المؤلف .

٦ ـ بابنجر ، ف : مقال « أورخان » في دائرة المعارف الإسلامية ، (الترجمة العربية) للأساتذة عبد الحميد يونس ، ابراهيم خورشيد ومحمود شاكر . الجزء الخامس ـ القاهرة .

٧ ـ بارتولد ، ف : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد سليمان القاهرة ١٩٥٨ .

٨ ـ بروكلمن ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ـ (طبعة ثالثة) بيروت ١٩٦١ .

٩ ـ ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) ـ القاهرة ١٩٦٤ .

١٠ ـ بينز ، نورمان : الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب حسين مؤنس ومحمود زايد ـ (طبعة ثانية) . القاهرة ١٩٥٧ .

١١ ـ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ١٤ جزءاً ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٠ .

١٢ ـ حسين مجيب المصري : صلات بين العرب والفرس والترك ، القاهرة ١٩٧١ .

١٣ ـ الرشيدي ، سالم : محمد الفاتح (طبعة ثانية) بيروت ١٩٦٩ .

١٤ ـ رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، تعريب محمد صادق نشأت وزميليه، جزءان ـ القاهرة، ١٩٦٠ .

١٥ ـ ابن زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية ، جزءان ، مؤسسة الحلبي القاهرة ، ١٩٦٨ .
١٦ ـ سرهنك ، اسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار ٣ أجزاء ـ القاهرة ، ١٩١٧ .
١٧ ـ الأمير شكيب ارسلان : حاضر العالم الإسلامي ، (تعليقاته) تأليف ستودارد لوثروب ، ترجمة عجاج نويهض ٤ أجزاء ـ بيروت ١٩٧١ ، (طبعة مصورة) .
١٨ ـ ابن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ـ القاهرة ١٢٨٥ هـ .
١٩ ـ فريد ، محمد : تاريخ الدولة العلية العثمانية (طبعة ثانية) القاهرة ١٨٩٦ .
٢٠ ـ القرآن الكريم
٢١ ـ كوبريلي ، محمد فؤاد : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان (عن التركية) ، القاهرة ١٩٦٧ .
٢٢ ـ هازارد ، هاري : أطلس التاريخ الإسلامي ، تعريب ابراهيم زكي خورشيد مكتبة النهضة ، القاهرة .

المراجع الأجنبية

1. Bradford, Ernie.	The Life of Barbarossa, London, 1969.
2. Coles, Paul.	The Ottoman Impact on Europe, London, 1968.
3 Creasy, E.S	History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961. (Reprint)
4. Daniel, N.	Islam, Europe and Empire, London, 1966.
5. George, Young.	Constantinople, London
6. Gibb, H. R. and Bowen.	IslamicSociety and theWest,Vol. I, Parts I and II, London, 1955, 1960.
7. Gibbon, E.	The Decline and Fall of Roman Empire, London, 1962.
8. Grube, E.J	The World of Islam, London, 1966.
9. Hitti, Philip	History of the Arabs. (7 th ed.), London, 1961.
10. Holt and Lewis.	Historians of the Middle East, London, 1962.
11. Mahajan, V D.	Muslim Rule in India, Delhi 1962
12 Lane-Poole, S	Turkey, Beirut, 1966. (Rerint)
13. Lane-Poole, S.	Mohammadan Dynasties. Pakistan, 1969. (Reprint).
14 Pirenne, J	The Tides of History, London, 1963.
15 Price, M. p.	A Hisotory of Turkey, London, 1961.
16 Runciman, S	The Fall of Constantinople, Cambridge, 1965.
17. Saksena, B P.	History of Shajahan of Delhi , Allahabad, India 1962.
18. Steward, D.	Turkey,Time -Life International, Verona, Italy, 1966.
19 Stern, S. M.	Documents from Islamic Chanceries, London.
20. Stoye, John.	The Siege of Vieanna, London, 1964.
21. Toynbee, Arnold.	A. Study of History, Abridgement by D.C. Somervell, 2 vols. London. 1963.
22. Warrington, J.	Everyman's Classical Dictionary.
23 Williams, G.	Turkey, London, 1967.
24. Inalçik, K.	The Ottoman Empire, London 1937.
25. Kinros, L.	The Ottoman Centuries, London 1977
26. Shaw, S.J.	History of the Ottoman Empire and Modernturkey, Cambride, U.K 1976.

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام
(الأشخاص والطوائف والقبائل والشعوب)

- ب -

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الأماكن والبقاع

- ت -

- ج -

فهرس الكتب

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة